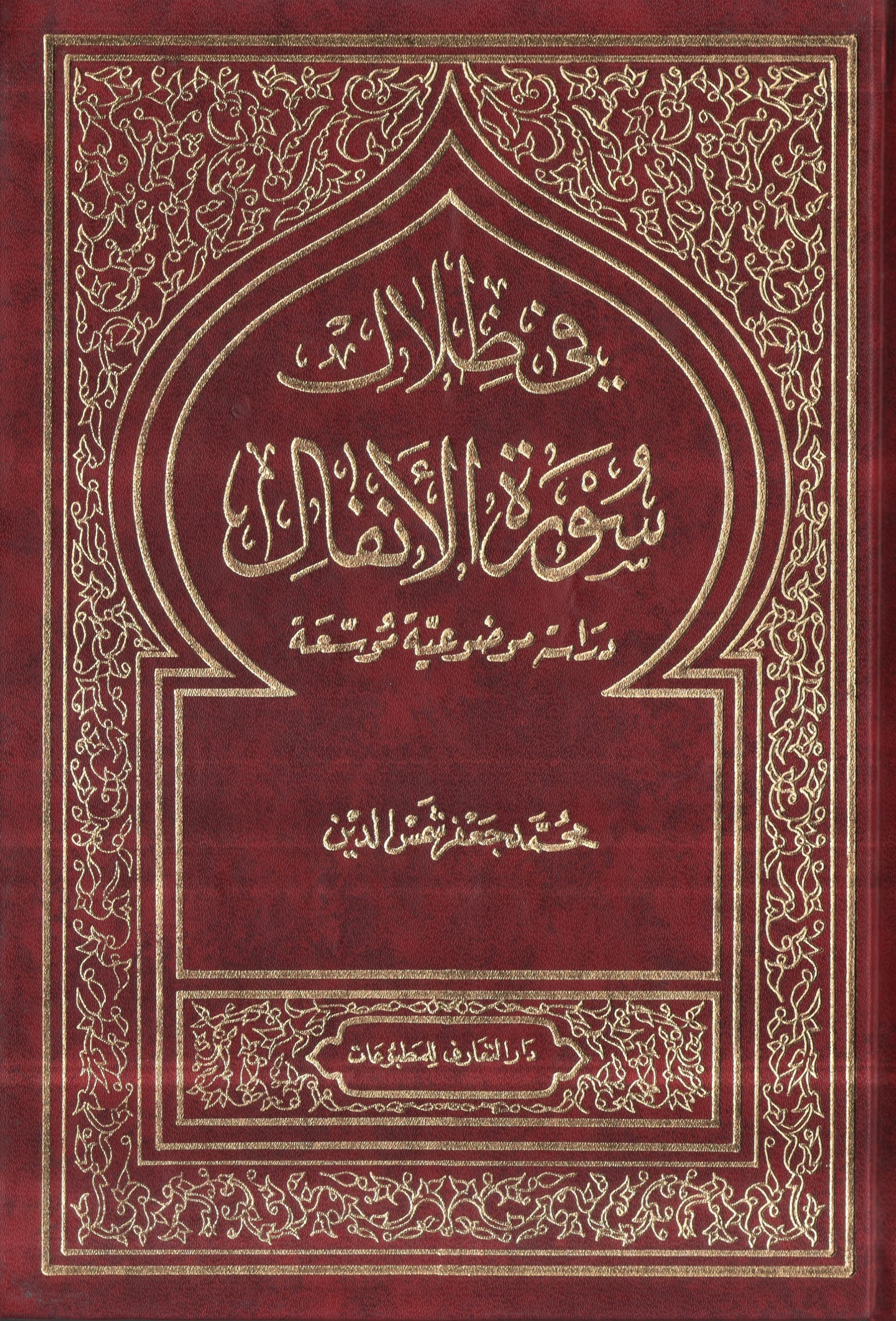

في ظلال
سورة الأنفال
دراسة موضوعية موسّعة
محمد جعفر شمس الدين
دار التعارف للمطبوعات

في ظلال سورة الأنفال

دراسة موضوعية موسعة





في ظلال سورة الأنفال

دراسة موضوعية موسّعة

محمد جعفر شمس الدين

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٩٨٢

بسم الله

ولله الحمد

مقدمة

القرآن العظيم ، كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد (ص) ، ليخرج به الناس من الظلمات الى النور . ويرتفع بهم عن مهابط الحيوان ، الى ذرى سامقة ، تليق بهذا الكائن ، الذي أراد الخالق له أن يكون أكرم مخلوق ، عندما أناط به مهمة خلافته له على الارض .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١)

واتئمنه على ما ناءت بحمله السماوات والارض والجبال .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (٢)

هذا القرآن العظيم ، كان له في قلوب الرَّعيل الأول من المسلمين ، مكانة لا يرقى إليه فيها أي شيء ، وكانوا لا يعدِلون به أيَّ شيء .

كان المحور الذي يدورون حوله ، وينشدُّون الى نوره ، ويهتدون بهَدْي كلماته ، وكان هو الاطار الذي يتحركون ضمن معالمه فلا يتعدَّوْن حدوده .

بهذه الروح ، وبهذا الشعور ، تلقى المسلمون الأولون كتاب الله ، فما مضى إلا وقت يسير ، حتى كان القرآن كفيلاً ، بتحويلهم من حياة جاهلية مسفة ، محكومة لعالم الضرورات والغرائز ، الى حياة عزيزة كريمة ، ترفرف عليها السعادة ، وتَظَلَّلُها الأمجاد ، ولا تجد الغرائز ، والضرورات فيها مكاناً ، إلا بمقدار ما يأمَنُ الإنسان معه التمزّق والضياع .

ثم دارت عجلة الزمن ، وتعاقبت بعد ذلك الرَّعيل ـ ممن حوَّل خط سير البشرية نحو

---

(١) البقرة / ٣٠

(٢) الأحزاب / ٧٢

طريق الخير ومنبثق النور - أجيال من المسلمين .

وكان كلما اتّسع الفاصل الزمني بين الجيل الأول ، والأجيال اللاّحقة ، كلما ضعف تأثير القرآن في النفوس ، وتأثّر النفوس بالقرآن ، حتى غدا - في زماننا هذا - غيرَ ذي أثر بالنسبة للغالبية العظمى ممن يعتنقون الاسلام .

وهنا يقفز الى ذهننا سؤال :

ما هو السر - يا ترى - في عدم تأثير القرآن أو التأثر به ، بالنسبة للأجيال المسلمة التي تلت الجيل الأول من المسلمين ؟؟

والذي يتبادر الى الذهن في مقام الإجابة على هذا ، التساؤل ، هو أن السبب فيما صار اليه المسلمون ، من عدم تأثرهم بكتاب ربهم ، وما صار إليه القرآن من عدم التأثير في نفوس المسلمين ، ينحصر في أحد أمرين لا ثالث لهما :

إما تبدّل أو تحريف طرأ على القرآن ، بحيث لم يعد هو الكتاب الذي أثّر ذلك الأثر العظيم في نفوس المسلمين الأولين ، وهذا الذي بين أيدينا كتاب آخر ، لا علاقة له بما نزل به الروح الأمين على قلب محمد (ص) !

واما لتبدّل جذري طرأ على نفوس المسلمين في العصور المتأخرة ، حتى غَدَوا والجيل الأول من المسلمين اسلافهم على طرفَيْ نقيض !

أما الأمر الأول ، وهو تبدّل القرآن أو تحريفه ، فمقطوع العدم . إذ إن ما بأيدينا اليوم من القرآن ، هو نفس ما كان بأيدي الجيل الأول من المسلمين ، بسوره وآياته ، بل وحركاته وسكناته ، وهو هو ما انزله الله على رسوله محمد (ص) ، تناقلته الأجيال يداً بيد ، بالتواتر ، حتى تسلّمناه نحن في هذا العصر .

فالقرآن العظيم ، هو كتاب الله الخالد ، الذي أنزله وتكفّل بحفظه إلى ان تتبدل الآرض غير الأرض والسماوت :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1]

إذن ، لم يبق أمامنا ، الا أن نفتش عن السبب لذلك ، داخل نفوسنا نحن المسلمين .

وكلمة الحق التي يجب أن تُقال هنا ، ان المسلمين ، عندما عزلوا القرآن من حياتهم ، ضُربت عليهم الذِلّة ، وصاروا إلى ما نرى ، من هزيمة الروح في واقعهم . وضمور المثل والقيم الانسانية فيهم . واضمحلال روابط الدين وعرى الأخلاق فيما بينهم .

---

(١) الحجر / ٩

وقد أدى ذلك كله ، إلى ما نشاهده من تفسّخ يبدو لأعيننا في كثير من ظواهر الاجتماع ، وانحطاط خلقي يبدو واضحا في كثير من أوضاعهم .

ولكن ، كيف تسلّلت هذه الأدواء الى كياننا فأفسدته ؟

والجواب على ذلك ، ان الحضارة المادية ، التي استهوانا منها بريقها الزائف ، وتحللها من كل ما يرتفع بالانسان الى أعلى ، هذه الحضارة ، استثارت غرائز الحيوان فينا ، فكان بعد ذلك ، أن اندفعنا في العبِّ منها ، دون أن يكون لمُثلنا ، وتقاليدنا التي اكتَسَبْناها قرآننا علينا من سلطان .

ولم يضق الاستعمار الكافر ، متمثلا في طلائعه الغازية ، من مستشرقين وغير مستشرقين ، بجهد ، في سبيل تشويه ثقافتنا ، وقرآننا ، وديننا بوجه عام . لأنهم رأوا ، أن اخطر ما يهدد سيطرتهم علينا ، هو أن نتمثّل تراثنا الثقافي ، الذي يمثل القرآن الكريم مركز الصدارة فيه وأن أحسنَ ما يدعم هذه السيطرة ، إنما هو جرنا الى مفاهيمهم ومُثُلِهم في الحياة .

وهكذا كان ، حتى غدا المسلمون اليوم ، لكثافة السُجُف التي لفّت نفوسهم ، والشهوات التي انغمسوا فيها وتهالكوا عليها ، وحملات التشكيك التي تعرّض لها دينهم وتراثهم ، لا يملكون من الوعي لثقافتهم وتراثهم ذاك ، بل يقف كثير منهم ، موقف العداء من هذا التراث ، وخيرهم من يقف موقف الرثاء لهذا التراث (العتيق) ، الذي أدى رسالةً اقتضاها طور تاريخي خاص ، انقضى فانقضت معه امكانات الحياة بالنسبة اليه . فما علينا ـ بحسب جهل هؤلاء ـ إلا أن نحتفظ به كأثر تاريخي ، نحيط به هالة من أساطير القرون !؟

وقد نال القرآن العظيم ، القسط الأكبر من الحملات التهويشية والتشويهية ، التي شنها الاستعمار الكافر بشراسة ، اعتقاداً منه بأنه إذا تمكن من زعزعة ثقة المسلمين بقرآنهم ، فسوف يكون معنى ذلك ، أنهم خسروا الأرضية الصلبة ، التي يُمكنهم أن يقفوا عليها ، في تحديهم لهذا الاستعمار بكل ضروبه واشكاله .

وهذه حقيقة ، تبدو جليةً لكل مَن اطّلع على بحوث المستشرقين وكتاباتهم عن الاسلام بشكل عام . والقرآن بصورة خاصة .

يقول كولد تسيهر[1] عند كلامه عن القرآن « من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه

---

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ٧٨ ـ ٧٩ . وفي رأيي انه ينبغي مطالعة كتب أهم المستشرقين عن الاسلام لكي يلمس القارىء بشكل حسي مدى حقد هؤلاء على هذا الدين وكتابه ويستكشف خلفيات هذا الحقد ودوافعه بنفسه فليطالع كتاب مذاهب التفسير الاسلامي لكولد تسيهر ، وكتاب تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان وغيرها .

مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات . ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً ، إلا آثار عامة نجد فيها أذا بحثنا في تفاصيلها احياناً تعاليم متناقضة » .

ويقول هذا المستشرق الحاقد في موضع آخر[1] « وكان وحي النبي حتى في حياته معرّضا لحكم النقّاد، الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص، وكان عدم الإستقرار والطابع المتناقض البادي في تعاليمه ، موقع ملاحظات ساخرة » .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي عرضناها ، يتضح أن واجب المسلمين اليوم ، أذا أرادوا أن يستعيدوا ما خسروه من مواقع ومواقف ، وان يخرجوا من الهوة التي ارتكسوا فيها ، ان يرجعوا الى كتاب ربهم ، رافضين كل حملات التشويه والتشكيك التي ضللهم بها الاستعمار الكافر من خلال افتراءات المستشرقين ، أن يرجعوا الى كتاب ربهم ، ففيه وحده خلاصهم .

رُوي عن علي عليه السلام أنه قال :

« أما إني سمعت رسولَ الله (ص) يقول : ستكون فتن . قلت : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله . كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . هو الذي من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله . فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . هو الذي مَن قال به صدق ، ومَن حكم به عَدَل ، ومَن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى الى طراط مستقيم »[2] .

واجب المسلمين ، ان يرجعوا الى كتاب ربهم ، يتدبرون آياته ، ويتفيأون ظلاله ، ويستلهمونه حلول مشاكلهم ، لعلهم يرشدون .

ونحن ، سوف نحاول في دراستنا هذه لسورة الأنفال ، أن نختط منهجاً في التفسير ، يكون رائدنا فيه الحرص على أن نقدّم بعض آيات القرآن العظيم ، مع تجلية لما اشتملت عليه من مفاهيم وأفكار ، تكوّن بمجموعها الصورة المتألقة الوهّاجة ، التي ينبغي ان يكون عليها الانسان المسلم ، علّ ذلك يؤدي بالتالي ، ألى أن نتمثل هذه الأفكار ،

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) سنن الدارمي ٢ / ٤٣٥ وتفسير الرازي ١ / ١٦٠ .

وتلك المفاهيم ، لتعود في المستقبل القريب ـ بإذن الله ـ سمات الجيل الأول من المسلمين ، ذلك الجيل الذي حمل القرآن للبشرية ، على أنه المخلِّص والهادي والمرشد .
ويكون بذلك انطلاقة بعث جديد للطاقات الكامنة في أمة الاسلام ، تحتل بتفجيرها مركز القيادة للبشرية التعسة ، التي تتخبط في دياجير جاهليتها وحيوانيتها . والله من وراء القصد .

بيروت في ٢٨ جمادى الأول ١٤٠١ هجرية
الموافق ٢ نيسان ١٩٨١ ميلادية
محمد جعفر شمس الدين



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تعتبر سورة الانفال ، من أهم السور القرآنية ـ وكل القرآن مهم ـ واهميتها تنشأ من كونها نزلت محددة ملامح فترة جديدة من حياة المسلمين . فترة ، تميزت بانطلاقة عملاقة للاسلام ، حطمت معها كثيرا من الحواجز التي كانت تعترضه، وكان ذلك بداية طيبة لتخليص الإنسانية من المآسي التي ضج بها تاريخها الطويل . ومقررة لأسلوب جديد من أساليب الدعوة ، كانت معركة بدر فاتحة ناجحة له .

هذا اضافة ، الى انها فتحت عيون المسلمين ، على بعض مواطن الضعف في نفوس أعدائهم . ووضعت لهم كثيرا من القواعد التي يجب عليهم ان يتبعوها خلال قتالهم مع هؤلاء الاعداء ، وشرعت بعض أحكام الجهاد ، والأسرى ، والغنائم ، الى غير ذلك من الامور والموضوعات .

وسورة الانفال ، خمس وسبعون آية في الكوفي ، كلها مدنيّة[1]، قيل بأنها أول ما نزل على النبي (ص) في المدينة[2] .

وذهب ابن عباس ، وقتادة[3] ، الى انها مدنية عدا سبع آيات نزلت بمكة . وذهب الحسن ، وعكرمة ، الى انها بأجمعها نزلت في معركة بدر[4] .

وسواء كانت هذه السورة قد نزلت بأجمعها في معركة بدر أوْلا ، فمما لا نقاش فيه ، أن جُلَّها يدور حول وصف هذه المعركة ، بجميع ملابساتها السابقة عليها والمقارنة لها ، وعلاج ما نجم عنها من أسرى وغنائم ومواقف .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤ / ٥١٦

(٢) تفسير التبيان للطوسي ٧١/٥

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٥١٦/٤ وتفسير الفخر الرازي ١١٣/١٥ .

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٥١٦/٤ . وتفسير الميزان للطباطبائي ٩/ص ٥

الأنفال ، جمع نَفَل - بالتحريك ، - وهو لغة[1] - الزيادة على اصل الشيء ، يقال : نفلته كذا اذا زدته ، ومن هنا أطلقت النافلة على ما زاد على الصلاة المفروضة .

وقد اختلف المفسرون في المراد من الانفال في الاية الكريمة .

فذهب[2] ابن عباس ، وقتادة ومجاهد كما روى عكرمة عنهم ، الى ان المراد بالانفال هنا الغنائم التي غنمها المسلمون يوم بدر .

بينما ذهب آخرون[3] ، الى انها ماشذ من المشركين الى المسلمين من عبد أو جارية من غير قتال أو غير ذلك .

وقيل : بان الانفال ما سقط من المتاع بعد قسمة الغنائم من الفرَس والدرع والرمح .

وقيل[4] : بأنها كل ما كان من فتح لم يقاتل عليه ولم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، وبطون الاودية ، ورؤوس الجبال والموات ، وغيرها .

ومن الواضح ، ان هذه الامور التي ذكرت أخيرا ، هي ما يصطلح عليه بالفيء عند المتشرعة اذ إنه في اصطلاحهم ، كل ما يؤول الى أيدي المسلمين من الكافرين بغير قتال (وهو ملك للدولة ، اي للنبي او الامام باعتبار المنصب ، ولذا يعتبر الفيء نوعاً من الانفال)[5]

وقد يكون اطلاق الفيء في اصطلاحهم على الأنفال وجعله نوعا منه ، بلحاظ ما ورد[6] في بعض الروايات عن الامام ابي جعفر الباقر (ع) ، حيث كان لسانها جامعا بين كلا اللفظين .

ومهما يكن المراد من الأنفال ، فلا إشكال في ان المراد بها هنا - من وجهة نظرنا - باعتبار مناسبات الحكم والموضوع ، خصوص ما غنمه المسلمون من المشركين في معركة بدر .
ولكن ليس معنى ذلك ، ان الحكم فيها خاص بخصوص هذه الغنائم ، وانما يشمل كل غنيمة ، إذ ان المورد عندنا لا يخصِّص الوارد .

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور مادة - نَفَلَ -
(٢) و(٣) البيان للشيخ الطوسي ٧١/٥ ومجمع البيان للطبرسي ٥١٧/٤
(٤) وسائل الشيعة للحر العاملي ٣٦٤/٦ وما بعدها .
(٥) اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر ٦٣٣/٢ .
(٦) وسائل ٣٦٨/٦ .

ولعل الوجه في تسمية هذه الغنائم انفالا ، زيادتها عن الغاية التي خرج المسلمون من اجل تحقيقها ، وهي قتال المشركين ، وكسر شوكتهم ، وقطع دابرهم ، واعلاء كلمة الله في الأرض .

سبب النزول

وتتضح وجاهة ما اخترناه ، من ان المراد بالانفال هنا ، خصوص ما غنمه المسلمون في بدر ، اذا تصورنا ما كان عليه حال المسلمين بعد انتهاء القتال واحراز النصر . يحدثنا ابن الاثير عن ذلك بعد أن وصف أحداثَ معركة بدر :

(ثم ان رسول الله (ص) أمر فجمع ما في العسكر ، فاختلف المسلمون فقال من جمعه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو : والله لولا نحن لما أصبتموه ، نحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله (ص) وهو في العريش ، والله ما انتم بأحق به منا ، لقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن له من يمنعه ، ولكن خفنا كَرَّةَ العدوّ على رسول الله (ص) فقمنا دونه ، فنزع الله الانفال من أيديهم وجعلها الى رسول الله)[1] .

وهذا النص ، يوضح لنا ، ما كان عليه حال المسلمين بعد انتهاء القتال في بدر ، والانقسام الذي حصل بينهم ، وان سبب هذا الانقسام ينحصر في ملكية ما غنموه من المشركين ، حيث ادَّعت كل فئة أحقّيتها في ذلك .

وقد أدى بهم هذا التنازع والانقسام الى ان يرفعوا امرهم الى النبي (ص) لكي يحكم في هذه الغنائم ، ويضع حدا لهذا الخصام والانقسام ، فنزلت الآية الكريمة .

ومما لا ريب فيه ، ان حدوث مثل هذا الاختلاف في صفوف المسلمين وهم ينتصرون لأول مرة في تاريخهم مما قد يجعلهم غير مقدرين لاهمية هذا النصر ، في حين ، ان عدوهم وهو ينهزم لأول مرة هزيمة مرة ، مما قد يجعله أحرص على تحطيم المسلمين والقضاء على دعوتهم باعادة الكرة عليهم بعد ان تراجع عن مواقعه ليستجمع قواه .

ان حدوث مثل هذا الاختلاف في صفوف المسلمين في مثل هذا الظرف الدقيق ، سوف يكون له اثر خطير على مستقبل الاسلام والمسلمين ، بما سوف ينتج عنه من تصديع للجبهة الاسلامية ، وفتن قد تعصف بالمسلمين وتمزقهم شر ممزق ، وتشتت

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٨٥ .

جهودهم في مسارب جانبية وتافهة ، تصرفهم عن غرضهم الذي انتدبوا اليه ، الا وهو العمل على نشر لواء الدعوة الاسلامية ، والذود عن كرامة الانسان المهدورة في ظل جاهلية رعناء .

ومن هنا كانت الحكمة تقتضي أن يتدخل ولي الامر بحزم وقوة ، ليطوّق المشكلة ، ومن ثم يخنق الفتنة في مهدها ، وذلك لا يكون الا بحسم مادة الفساد ومنشأ الانقسام ، وهو ما حدث فعلا حيث ورد النص صريحا قاطعا لا تراجع فيه ولا غموض ، ولا تردد ، (قُلِ الأنفال لله والرَّسُول).

انكم تتنازعون وتتخاصمون ، وها انتم جئتم الآن تحتكمون ، وقد نزل الحكم مبرما غير قابل للاخذ والرد .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (1)

فاتقوا الله فيما حكم ، واتقوا الله فيما قضى . .

وتقوى الله ، انما تكون بالخضوع لحكمه ، والرضوخ لقضائه ، فليست التقوى في الاسلام ، مجرد لقلقة لسان ، او شيئا نظريا فقط ، وانما هي تجسيد عملي ، واستشعار داخلي لعظمة الله وقدرته ، يكون باعثا على الاندفاع للعمل بما يرضيه ومن هنا كانت من أبرز الخصائص التي تؤطّر شخصية الانسان المتقي هي تلك التي تعبر عن نفسها في صيغة عملية .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (2)

فأمر المسلمين هنا بتقوى الله ، دعوة لهم الى تمثل كل هذه الخصائص التي تنتسج منها شخصية الانسان المسلم ، والتي تكون النتيجة الحتمية لتمثلها في لحظات الإنصياع

---

(1) الأحزاب / ٣٦

(٢) البقرة / ١٧٧

لحكم الله فيما حكم ، وقضائه فيما قضى من أمر الأنفال . وحينئذ ، سوف تتلاشى في لحظات أيضا ، تلك الإِحَنُ والحزازات التي نشأت من جراء التخاصم ، والاختلاف حول مِلْكية الانفال .

وبهذا تتهيأ الأرضية الصالحة لعودة النفوس المسلمة ، التي تنازعتها الخلافات والمنازعات فترة وجيزة ، الى ما كانت عليه من صفاء وود ، ومن هنا ورد الامر الإلّهي التالي ، مرتبا على الامر بالتقوى وهو اصلاح ذات البين .

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ

والامر بالإصلاح هنا ، يستشعر منه مدى الخراب الذي لحق بالعلاقة التي كانت قائمة بين المؤمنين قبل معركة بدر واثناءها ، اذ الاصلاح لا يكون الا لما أصابه عطب او طرأ عليه خلل ، ولكن عطب وخلل كل شيء بحسبه . فالخلل في الآلة عادة ، يكون ناشئاً عن تعطّل جزء فيها ، لا تعود الى تأدية ما صممت له من عمل ، إلا بإبدال ذلك الجزء المعطوب أو اصلاحه .

ومن الواضح ، ان الخلل الذي طرأ على علاقات المسلمين في تلك الفترة ، انما كان ناشئا عن تعطيل لجانب مهم من جوانب النفس المؤمنة ، وهو التقوى ، وغفلة عن الغرض العظيم الذي خرجوا من أجل تحقيقه في بدر ، ذلك الغرض ، الذي لم يكن من مقولة المادة ولا عرضا دنيوياً .

ومن هنا كـان الحكـم بانتزاع ملكية الأنفال ، وحصرها في الله والرسول ، كفيلاً برد المسلمين الى صوابهم . وهزة قصِد منها تذكيرهم بما غفلوا عنه من غرض أُنيطَ بهم تحقيقه . وكان امرهم بالتقوى كفيلا بدوره ان يعيد للنفس المسلمة المقوم الخطير الذي افتقدته لحظة من لحظات الضعف الإنساني .

ثم يجيء الأمر الثالث:

وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرسوله

فيما امرتم به ، من التقوى واصلاح ذات البين ، بل في كل ما تنوون وما تفعلون . فاطاعة الله ورسوله في هذا الذي امرتم ، وفي جميع ما تصدرون عنه من قول أو عمل ، هي المحكّ الذى يختبر عليه ايمانكم .

إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

شبهة وردّها

وهنا قد يحاول بعض المغرضين ، أن يتخذوا من اختلاف المسلمين على ملكية الغنائم في بدر ، مطعنا ومغمزا ، يحطون به من مقام هذه العُصْبَـة المؤمنة وغرضهم من وراء ذلك ، التشكيك في قدرة الاسلام ، على صوغ نفسيّات رجاله ، وبناء شخصيات اتباعه ؟!

والتشكيك في قدرة الاسلام على صوغ نفسيات رجاله وشخصياتهم ، تبدو سخافته ، بمجرد تصور اولئك العمالقة من الناس ، الذين جعل منهم الاسلام قمما شامخة ، تحاول البشرية ان تضعها هدفاً لتطلعاتها ، في حركتها الدائبة الى أعلى على مر العصور والاجيال .

ومن يلتفت الى مثل هذا التشكيك ، وهو يرى كيف ان المسلمين قد استطاعوا في برهة وجيزة ، أن يدوّخوا العالم المعروف آنذاك ، ويطأوا بأقدامهم ارض أوروبا ، وأقصى المشرق ، بعد أن كانوا قبل اطلالة الاسلام على دنياهم حفنة عبيد ، لا يحيون الا لساعتهم ، ولا يغضبون الا لغرائزهم ألّا تجد ما يشبعها وَيَسُدّ جوعتها .

وهل صاروا الى ما صاروا اليه من مجد وعزة ، وعظمة ، بغير تلك الروح ، التي نفخها الاسلام فيهم ، فأحالهم الى مخلوقات جديدة ذات تطلعات وطموحات ؟

تلك الروح التي صاغهم الاسلام على اساس منها ، كانت هي التفسير الوحيد لما آلت اليه حال المسلمين ،،وما صاروا اليه .

هذا ، اضافة الى أنا نؤمن بان التنازع والاختلاف على ملكية الغنائم ، لم يصدر إلا عن فئة قليلة من المسلمين ، ولم يكن صفة عامة كي ينفذ منها المتشككون ليطعنوا في قدرة الاسلام على طبع اتباعه باخلاقه ومثله ، ومثل هذه الفئة التي يستهويها بريق المادة الزائفة ، فيجعلها تنسى ما ينبغي لها ان تكون عليه من تَرفّع واباء ، مثل هذه الفئة لا تنفك عنها امة ، ولا تسلم منها دعوة .

تفسير وتوجيه

والواقع ان اختلاف المسلمين على ملكية الغنائم ، قد يبدو من خلال النظرة السطحية ، والملاحظة العابرة ، امراً غير لائق ، ولا مستساغ ، خصوصاًوان النبي

(ص) وشيوخ المهاجرين والانصار ، بين ظهرانيهم .

ولكن الحقيقة ، انه عند النظرة المعمقة ، والتدقيق المحايد ، يمكن ان تبدو لنا وراء هذا الموقف ، بعض الاسباب والمبررات الموضوعية . واهم هذه المبررات والاسباب في نظرنا اثنان :

اولا : ان الظروف النفسية ، والاجتماعية ، التي اكتنفت المسلمين في المدينة ، كانت عاملا من العوامل التي ادت الى التنازع على امتلاك الغنائم .

فالمهاجرون كانوا قد دخلوا يثرب ، مخلفين وراءهم مكة ، وكل ما يملكون فيها من أموال وعقارات . في حين كان منهم الاثرياء والموسرون ، حيث اضطروا الى ان يعيشوا في المدينة ضيوفا على اهلها من المؤمنين ، عيشة لم يكن كثير منهم - في مقاييس المادة - ليرتضيها لنفسه ، فيما لو كان بين أهله وفي ارضه .

ولعل كل واحد من المهاجرين هؤلاء ، كان يرى في كل رجل من مشركي مكة ، سارقا اغتصب منه ارضه ، وماله ، ولذا فهو بهذا الشعور ، كان يرى ان من حقه ان يقتص منه ، وانه احق بماله ومغنمه من غيره .

والأنصار بدورهم ، كانوا في وضع مالي لا يغبطون عليه ، بعد أن نزل بينهم المهاجرون ، ووجدوا انفسهم ملزمين أدبياً بحكم قانون الضيافة ودينياً بحكم اخوة العقيدة ، بأن يقوموا اتجاههم بكل ما توفره لهم ظروفهم الحياتية والمادية ، كي يخففوا عنهم بعض ما يقاسون من فراق الأهل والمال والوطن . . .

ومن هنا ، ناءت كواهلهم بحمل هذا العبء ، وان لم يجهروا بما يعانون . ولم يستشعر إخوانهم المهاجرون في يوم من الأيام ، من أي منهم ، بما يوحي باستثقال أو تذمر او تضجرّ . . .

ومن الواضح ، أن إنساناً يحمل من المسؤوليات المادية والأدبية اضخمها ، كان يرى أن من حقه بدوره أن يتملّك الغنائم لتكون ضماناً لاستمراره في القيام بأعباء مسؤولياته تلك .

ثانيا : ان للغنيمة عن طريق الحرب ، لذة لا يدركها الا اولئك الذين نشأوا تحت ظلال السيوف ، وأسنة الرماح ، العرب ، قبل ان يعزهم الله

بالاسلام ، حتى اصبح عندهم الكسب عن طريق الحرب ، أمراً يطبع حياتهم وسلوكهم بطابعه .

ومن البديهي ، ان الانسان عندما ينشأ وفق سلوك مُعيّن ، ويحيا نمطاً من الحياة مُعَيّن . لا يكون انتزاعه من بيئته ذات الانماط المعينة من السلوك والحياة ، أمراً ميسوراً .

بل لا بد لتحقيق ذلك ، اضافة الى تربية وتنشئة على اصول للحياة جديدة ، وقواعد للسلوك جديدة ، من عنصر زمني طويل الامد ، يكون كفيلا ، اذا انضمت اليه تلك التربية الخلقية والروحية ، بالقضاء على كثير من العادات والانماط ، التي تتعارض مع هذه التربية المستجدة .

ومن الواضح ، ان كثيرا من المسلمين في بدر ، كانوا حديثي عهد بجاهلية ، وان كثيرا منهم ، كان قد قضى شبابه وجانبا من شيخوخته ، في بيئة ابرز صفاتها الغزو والكسب عن طريق الحروب ، ولذا كان من الطبيعي ، ان تثور عند بعضهم في تلك اللحظات ، رواسبهم النفسية وعاداتهم القبلية حيث ادت بهم الى التنازع على ملكية الغنائم في بدر .

دعوى نسخ هذه الآية ومناقشتها :

وقد روي[1] عن مجاهد ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، انهم يقولون بان آية الانفال هذه ، قد نسخت بآية الخمْس ، من هذه السورة ، وهي قوله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ . . » الآية .

وهذا شيء لا يمكن المساعدة عليه ، لان النسخ هنا . يتوقف على ثبوت أمرين :

الأول : وجود دليل يدل على النسخ ، اذ انه بالإجماع لا يكون الا بدليل ولا دليل هنا عليه .

الثاني : إثبات التنافي بين الآية السابقة والآية اللاحقة ، بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال ، ومن الواضح ، أنه لا تنافي بين آية الخمس المتأخرة ، وقوله تعالى : « قُلِ الأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » الا بالإجمال والتفصيل ، اذ ان آية الانفال ، لم تبيّن

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١١٦/١٥ كما يراجع تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٧٤/٥

الا أن ملكية الغنائم في الاصل ، انما هي لِلّه والرسول ، من دون تعرض لبيان مصارفها ، فجاءت آية الخمس لِتُفصِّل هذه المصارف ، وان الرسول يقسم اربعة اخماسها على المسلمين بعد اقتطاع الخمس المفروض ، ليوزعه على الاصناف الستة ، كما سنوضحه عند تعرضنا لتفسير الآية ـ في محله ـ انشاء الله .

وعلى كل ، فقد امتثل المسلمون ما امروا به ، ورضخوا في امر الغنائم لحكم الله ورسوله ، وهذا شيء لا بد منه بل لا يمكنهم ـ بحكم ايمانهم ـ ان يصدروا عن غيره ، ومع هذا ، فليس الرضوخ والقبول لهذا الحكم بالشيء السهل ، ليس هينا ان يقاتل الانسان الاعداء ، ويعرض نفسه بذلك للقتل ، ثم تنتزع منه بكلمة واحدة ، كل مكاسبه المادية ، التي كان يرى ان من حقه الاحتفاظ بها لنفسه ، لأنها تسببت عن جهوده وتضحيته الشخصية ، بل كان لا بد لبعض المسلمين ، من ان يستشعروا في انفسهم شيئا من المظلومية ، وهضم الحقوق .

ولعل ما حدّث به سعد بن ابي وقاص ـ وكان قد اشترك في بدر مع المسلمين في قتال المشركين ـ يؤكد لنا هذه الحقيقة التي عرضناها . قال سعد : « قُتِلَ أخي عُمَير يوم بدر ، فقتلت سعيد بن العاص بن امية ، واخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فجئت به الى النبي (ص) واستوهبته منه ، فقال : هذا ليس لي ولا لك ، اذهب فاطرحه في القبض ، فطرحته ورجعت وبي ما لا يعلمه الا الله ، من قتل اخي ، واخذ سلبي ، وقلت : عسى أن يعطي هذا لمن لم يبل بلائي »[1] .

وقد كان الله سبحانه ، يعلم هذا من ذلك البعض ، ولذا كان مقتضى الحكمة ان يزال هذا الشعور ، لتتخلص النفوس من كل ما يمكن ان يُنَغِّص عليها الحياة ، لتشعر بعدها بلذة النصر العظيم ، الذي صنعه المسلمون بتأييد الله سبحانه على قوى الشر والظلام .

وليس اجدى وأنفع ، في مقام تحقيق هذا الغرض ، من الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، تخاطبان عقل المؤمن وقلبه ، فتجلوان الغشاوة المادية ، التي تمنع الانسان في بعض المواقف ، من الرؤية الصحيحة ، فتغيم امام بصيرته المفاهيم التي يعتنقها ويؤمن بها .

---

(١) الطبري تاريخ ١٣/٣٧٣

ومن هنا ، طالعنا موكب جليل من الآيات الكريمة ، تقطر كلماتها بلسما ، كان قمينا بأن يعيد الى النفوس القلقة هدوءها ، واطمئنانها ، وكان افتتاح هذه الايات بذكر بعض صفات المؤمنين .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قلّ أن يذكر المؤمنون في القرآن ، دون ان يقترن ذكرهم ، بذكر شيء من صفاتهم المميزة لهم .

وهذه الصفات ، قد تطول ، كما هو الحال في مطلع سورة « المؤمنون » وقد تقصر كما في كثير من السور ، وقد تكون بين بين ، كما في هذه الآية التي بين أيدينا من سورة « الانفال » . حيث تضمنت خمس خصال حصرتها في المؤمن بلفظ (إنما) التي هي اقوى ادوات الحصر ، كما قيل .

وهذه الخصال هي . الوجل لذكر الله ، ازدياد الايمان عند استماع اياته ، توكلهم على ربهم ، اقامتهم للصلاة ، إنفاقهم مما رزقهم الله . . .

الخصلة الاولى

وهي وجل القلوب ، والوجل ، هو الخوف والفزع ، أو هو استشعار الخوف .

ولا ريب في ان الإنسان اذا آمن بالله وتصوّر جبروته ، وقدرته التي تعجز امامها كل قدرة .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (٢)

---

(١) الانعام / ٦١

(٢) فاطر / ٤١

وتصوّر علمه الذي أحاط به بكل شيء .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [1]

وتصور أنه يعلم ما توسوس به نفسه ، وهو اقرب اليه من حبل الوريد . وأدرك شدة العذاب الذي ينتظره في الآخرة ، إذا ما خرج على حدٍّ من حدود الله ، أو عصى امرا من اوامره ، أو نهيا من نواهيه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[2]

لا ريب في ان الانسان بحكم ايمانه ، إذا ذُكِرَ اللهُ امامه ، فسوف يتصوره سبحانه بصفاته هذه ، ثم يتصور ما هو مطلوب منه اتجاهه ، وما سوف يلاقيه من عذاب ، اذا لم يؤدِّ هذا المطلوب ، فسوف يأخذه الوجل ، والخوف ، فيندفع الى امتثال اوامر ربه ، والانزجار عند نواهيه ، من دون تأخير أو تهاون .

فالوجل ، كما يحصل من تصور ما توعد الله سبحانه به مخالفي أحكامه من عذاب ، كذلك يحصل من تصور ما وصف به سبحانه نفسه ، من صفات القدرة ، والجبروت والهيمنة ، والعظمة .

توهم ودفع

وقد يتوهم ان هناك منافاة بين هذا الجزء من هذه الاية ، وبين قوله تعالى في سورة الرعد « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »[3] حيث ان ما بين أيدينا ينص على أن

---

(١) الرعد /٨

(٢) الأعراف /٤٠

(٣) الرعد /٢٨

ذكر الله موجب لوجل القلوب ، بينما الاية التي في سورة الرعد ، تنص على انه يكون سببا لاطمئنانها ، فكيف يكون ذكر الله سببا لأمرين متناقضين وهما الوجل والاطمئنان ؟

ويندفع هذا التوهم ، بمجرد الالتفات الى الفرق بين ذكر الله سبحانه ـ الذي هو موضوع الآية التي بين أيدينا ـ بما هو عليه ، من صفات القدرة ، والإحاطة والجبروت ، والقهر والعزة ، حيث يستشعر الانسان أزاءها ضعفه وجهله وفقره ، فيأخذه الخوف والوجل ، عند ما يتصور موقفه بهذه الصفات ، بين يَدَي الله بتلك الصفات ، وبين الإستماع الى ذكره الذي هو القرآن ، والذي هو موضوع الآية التي في سورة الرعد .

وقد ذهب بعض المفسرين[1] ، الى ذكر فارق موضوعي آخر بين الآيتين .

فالذكر الذي يكون سببا لوجل القلوب ، هو آيات الوعيد والعقاب في القران ، بينما الذكر الذي يكون سببا لاطمئنانها هو آيات المغفرة والرحمة والاحسان فيه .

الوجل والاطمئنان من افعال القلب

والوجل ، فعل من افعال القلب ، ولذلك ورد ـ في المواضع التي ورد فيها القرآن ـ مقترنا به ، كما في هذه الآية . وكما في قوله تعالى في سورة « المؤمنون » « والَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتوا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ راجِعُون »[2] .

وكما في قوله تعالى في سورة الحج « وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ آذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »[3] .

كذلك ما يقابله وهو الاطمئنان . كما في قوله تعالى « ألَا بِذِكْرِ ٱللهِ تَطْمَئِنُّ القُلوب » .

وقد ينعكس كل من الوجل والاطمئنان على حواس الانسان ، فيؤثران في سلوكه الخارجي .

---

(١) مجمع البيان للطبرسي /٤/٥١٩

(٢) المؤمنون /٦٢

(٣) الحج /٣٥ ـ ٣٦

الخصلة الثانية

وهي ازدياد الايمان ، عند استماع آيات الله . سواء كانت تلك الآيات متعلقة بالجانب التشريعي ، او الأخلاقي ، او الكوني ، او القصصي .

والتلاوة : هي القراءة

الخلاف حول ازدياد الايمان .

وقد وقع الخلاف بين العلماء ، حول كيفية ازدياد الايمان ، فذهب البعض ، الى ان الايمان هو التصديق بالالوهية ، والرسالة وبما جاءت به من عند الله لأنه اليقين ، وعدم احتمال النقيض ، فاذا نقص عن تلك الدرجة لم يكن تصديقاً ، بل كان شكاً او ظناً وهما غير الايمان المفسر بالتصديق[1] .

مناقشة

والظاهر من هذا الاستدلال ، حصر التصديق باليقين ، وجعل الظن قسما في قباله ، وهو غير دقيق ، اذ ان اليقين احد قسمي التصديق ، والقسم الآخر له هو الظن ، لا ان الظن قسيم للتصديق[2] .

ومهما يكن ، فلا اشكال في ان اليقين هو اعلى قسمي التصديق ، باعتباره مقترنا مع عدم احتمال النقيض .

رأي الشيخ شلتوت في المسألة ومناقشته :

وقد ذهب الاستاذ شلتوت[3] ، الى ان الايمان بمعنى اليقين مما يقبل الزيادة والنقصان من جهات ثلاث .

---

(١) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت /٥٧١

(٢) راجع منطق المظفر ١/١١ ـ ١٢

(٣) تفسير القرآن الكريم لشلتوت /٥٧١ ـ ٥٧٢

من جهة وسيلته ، وهي الادلة ، حيث قال : « وكلما كان الدليل أوضح ، واقرب ، وكلما تكاثرت الادلة ، كان العلم أشد رسوخا في النفس ، وأعمق أثرا في القلب فلا تزلزله الشبهات » .

ومن جهة متعلقه ، وهو القضايا المصدق بها حيث قال : « فانه لا شك ان الايمان بها عن طريق اجمالي ، لا يساوي الايمان بها عن طريق تفصيلي » .

ومن جهة أثره وهو العمل ، حيث قال « فانه لا شك ان تكرار العمل بمقتضى الفكرة ، مما يثبت الفكرة ويزيدها رسوخا في النفس ، وان اهمال العمل بمقتضى الفكرة ، مما يورث ضعف الفكرة في النفس » .

وصاحب هذا الرأي ـ كما يبدو من عنونته لهذا البحث بقوله : « ان التصديق يزيد وينقص » ـ يريد بالتصديق الايمان الذي فسره بدوره باليقين . وعليه ، فمراده بالتصديق في عنوان البحث ، اليقين .

والظاهر ، انه يريد باليقين ـ الذي فسَّر به التصديق ـ اليقين الذي لا يحتمل معه النقيض .

وهذا القسم من اليقين ، هو ما يعبر عنه المناطقة باليقين بالمعنى الأخص ، في قبال اليقين بالمعنى الأعم ، الذي هو مطلق الاعتقاد الجازم .

وقد اخذ[1] في مفهوم اليقين بالمعنى الاخص ـ اضافة الى الاعتقاد بمضمون القضية ـ اعتقاد آخر بأن ذلك المضمون غير ممكن النقض او الانتقاض ، وان هذا الاعتقاد الآخر مما لا يمكن زواله بحال .

مثلا ، أنا اتيقن وجود الله سبحانه ، فمضمون القضية المتيقنة هو وجود الله ، وينضم الى هذا اليقين يقيني باستحالة عدمه ، وهذا اليقين الثاني ، لا يقوى شيء على ازالته من نفسي أبداً .

وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه ، يتبين ان الإيمان بمعنى التصديق الذي استظهرنا انه اليقين بالمعنى الاخص ـ عند شلتوت ـ اما ان يوجد ، وحينئذ لا يمكن زواله بحال ، ولا تقوى أية شبهة على زلزلته ، والا استكشفنا أنه لم يكن ايماناً من اول الامر .

وتحصيل هذا اليقين من طريق اجمالي أو تفصيلي ـ كما ذكره المستدل ـ لا يوجب

---

(١) المنطق للشيخ محمد رضا المظفر ٥/٣

تنويعا في نفس اليقين ، وان كان يوجب تنويعا في سبب حصوله ، وفرق بين نفس اليقين وبين أسبابه الموصلة اليه .

والغريب ، ما ذكره أخيراً ، من أن إهمال العمل بالفكرة مما يسبب ضعف الفكرة في النفس ومحوها ، مع فرضه العمل معلولا للفكرة التي هي الإيمان عنده .

ووجه غرابته ، انه لم يلتزم أحد من القدماء أو المُحْدَثين بأن المعلول يؤثر في علته حدوثا أو بقاء ، أو قوة أو ضعفا ، أو زيادة ، أو نقصانا .

هذا إضافة إلى ان الايمان يقابل الكفر ، فاذا التزم أحد بأن التصديق الذي هو الايمان ـ على الفرض ـ أمر قابل للزيادة والنقصان بالمعنى المذكور ، فلا بد وأن يلتزم في مقابله بأن الكفر ، وهو عدم الايمان والتصديق أمر يقبلهما ، ولا اعتقد بالتزام احد بقابلية العدم لهما أو لشيء منهما . إذ إن العدم مفهوم واحد كما قيل .

اختيار واستدلال

والذي يترجح في نظري ، بالنسبة لمعنى زيادة الايمان في هذه الآية ، الكريمة ، ان الايمان يتعدد بتعدد القضايا المطروحة أمام الانسان ، وكل قضية تستدعي ايمانا خاصا بها .

فوجود الله ، قضية تستدعي ايمانا ، والوحدانية قضية تستدعي ايمانا ، ينضم الى الايمان الحاصل من القضية الأولى ، والنبوة قضية تستدعي ايمانا خاصا بها ايضا ، ينضم الى الايمانين السابقين ، وهكذا . فيكون معنى زيادة الايمان ، ضم ايمان بِقَضِيَّةٍ لاحقة ، الى ايمان حصل بقضية سابقة .

والذي يؤيد هذا ـ في رأيي ـ ان معنى الزيادة : « ضم الشيء الى جنسه » .

وعلى ضوء ما ذكرناه ، يكون معنى قوله تعالى ـ والله العالم ـ « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » واذا قرئت عليهم آيات الله ، اعتقدوا بأنها من عند الله ، وضموا هذا الاعتقاد ، الى ما كانوا قد حصلوا عليه من اعتقاد بالآيات التي سبق وقرأوها مُتَدَبِّرين ، أو قرئت عليهم فَوَعَوْها .

ومما يؤيد ـ ايضا ـ ان المراد بالزيادة المعنى الذي ذكرناه ، قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ »[1] اذ المعوية

---

(١) الفتح/٤

المدلولة لكلمة (مع) تعني انضمام ايمان جديد بمضمون قضية جديدة ، الى ما كانوا قد حصلوا عليه من إيمان بمضامين قضايا سابقة .

وبنفس التقريب المذكور في زيادة الايمان ، نتصور زيادة الكفر ، إذ يكون معناها ، ضم عدم الاذعان والاعتقاد بقضية لاحقة الى عدم اذعان واعتقاد حصل بقضية سابقة ، وهكذا إذ إن الكافرين كانوا كلما قرئت عليهم سورة أو آية ، شككوا فيها ، وكفروا بها ، وضموا هذا التشكيك والكفر الى تشكيكهم وكفرهم بسابقتها .

ولعل ما جاء في أواخر سورة التوبة صريح فيما تصورناه من معنى لزيادة الايمان وكذا زيادة الكفر ، وهو قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [1]

والرجس هو الكفر ، وانما سمي الكفر رجسا بلحاظ وجوب تجنبه كما يجب تجنب الأرجاس والاقذار .

فالآية الكريمة ، جعلت زيادة رجس الكافرين بضم رجس ـ من جنسه ـ الى ما في قلوبهم من رجس موجود فعلا ، وهو ما قلناه في معنى زيادة الكفر . وبمقتضى مقابلة زيادة ايمان المؤمنين في الآية لزيادة كفر الكافرين ، تحقق زيادة ايمان المؤمنين بضم ايمان من جنسه الى ما في قلوبهم من ايمان موجود فعلا .

الخصلة الثالثة

التوكّل ، مصدر وَكَلَ

والتوكل ، هو « اظهار العجز ، والاعتماد على غيرك »[2] .

ولا اشكال ، في ان المؤمن ، عندما تتلى عليه آيات الله ، ويتبين من خلالها عظمته ، وقدرته ، واحاطته ، وتدبيره .

عندما يتلى عليه قوله تعالى :

---

(١) التوبة ١٢٥ ـ ١٢٦

(٢) مختار الصحاح للرازي

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(1)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾(2)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾(3)

عندما تتلى على المؤمن هذه الآيات ، ويستشعر معها ضعفه وجهله وفقره وعجزه ، وبالتالي ، اشتراك كل بني جلدته معه في ذلك ، يدرك تمام الادراك ، ان الله سبحانه هو وحده الذي ينبغي أن يتوجه اليه ، ويعتمد عليه في كل شأن من شؤونه ، دون غيره من مخلوقاته ، التي لا يختلف مخلوق منها في ضعفه وعجزه وفقره عن مخلوق آخر .

وليس معنى التوكل ، الاتكالية المحضة ، التي تنتج التسيب والضياع ، فإن هذا ليس من الايمان في شيء .

ليس من الايمان في شيء ، أن يعدل الانسان عن سنة الله في الخلق ، من جعله لكل شيء سببا ، وربطه بين الاسباب ومسبباتها ، فان في هذا إبطالا لسنّة من سنن الله ، ولن تجد لسنّة الله تبديلا .

وليس معنى قولنا هذا ، انه لا يجوز للانسان ان يلجأ الى اخيه الانسان ، لإنجاز بعض شؤونه واموره ، فهذا شيء لا يمكن المحيص عنه ، ولكن يجب ان يكون ذلك الالتجاء ، بشعور انه سبب من جملة الاسباب التي قيّضها الله تعالى له ، فيرجع اللجوء اليه مع هذا الشعور ، الى اللجوء اليه سبحانه ، لئلا يخرج في حقيقته عن خصلة التوكل .

الخصلة الرابعة

إقامة الصلاة

وليس المراد بإقامة الصلاة ، اداءها كيفما اتفق ، بل لا بد من ادائها متوفرة على

---

(1) الانعام /18

(2) فاطر /44

(3) الروم : 25 - 26

الخضوع والخشوع ، كما أمر بها النبي (ص) والائمة المعصومون (ع) .

والخضوع ، انما يكون في الشكل والصورة ، ويتحقق بالإتيان بأجزائها من قيام ، وتكبير ، وقراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، وتسليم ، بمنتهى الوقار والهدوء .

ومن هنا اشترط الفقهاء الطمأنينة في كل فعل من افعال الصلاة ، لا أن يؤ تى بها نقراً كنقر الغراب .

والخشوع ، انما يكون في المضمون والمحتوى ، وذلك بأن يتفكر المصلي في المعاني التي تمر عليه ، اثناء القراءة الواجبة فيها ، او الاذكار كذلك ، لا أن يدرج القراءة والاذكار ، بنحوٍ لا تعدو كونها مجرد لقلقة لسان ، لا يستفيد منها عقله ، ولا تنتعش بها روحه . ومن هنا وردت بعض الروايات القائلة بأن ليس للانسان من صلاته الا بمقدار ما اقبل عليه منها[1] .

بل ينبغي ان تكون صلاة المؤمن ، معراجا له بكل معنى .

تكون رياضة لجسمه ، وغذاءا لعقله ، وسمواً لروحه ، وهي بهذا فقط ، يمكن ان تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما ذكر سبحانه في مكان آخر من كتابه العزيز .

الخصلة الخامسة

الانفاق مما رزقهم الله .

والانفاق هنا عام ، يشمل الواجب كالزكاة والخمس وغيرهما من العبادات المالية . والمندوب ، كالصدقة .

والانفاق ، يحقق في الواقع ، هدفين ساميين :

احدهما : فردي ، يرجع الى شخص المنفق ، وهو تخليص نفسه من الشح والبخل اللذين يعتبران آفتين من الآفات ، التي اذا ابتلي بها الانسان ، نغصت عليه حياته ، واهدرت كرامته ، وجعلته هدفا لاستهزاء الناس وسخريتهم .

وثانيهما : اجتماعي ، وهو مؤ اساة الفقراء ، وسد خلة المحتاجين ، والعمل بهذا

---

(١) يراجع في ذلك كتاب وسائل الشيعة للحر العاملي المجلد الثالث / الباب ٨ و ٩ ص/ ٢٠ وما بعدها .

الانفاق على رفع شقائهم ، وتعاستهم ، والتخفيف من ضغط الحياة بثقلها عليهم . فيأمَنَ المجتمع الانساني ، من التمزق ، والتناحر الطبقي ، الذي يكون عادة ، وليد تكدس الثروات في ايدي فئة قليلة منه ، مع ارتكاس الفئة الاخرى ، التي تمثل غالبيته ، في بؤرة الحرمان .

وعندئذ يوجد المجتمع الصالح ، المتماسك الذي تربط بين افراده وشائج الإيثار والتعاطف ، والحب .

والتعبير بـ (مما) في الآية الكريمة ، يُشْعر بأن هؤلاء المؤمنين انما ينفقون بعض ما عندهم ، ويحتفظون بالبعض الاخر ، لينفقوه على شؤونهم واحتياجاتهم .

ونحـــن ، لسنا مقيَّدين بحصر متعلق الانفاق بالمال ، بل يمكن تعميمه ليشمل كل ما يعود على الامة او الفرد ، بالخير العميم ، كالعلم وغيره .

هذه هي الخصال ، التي يكون من اجتمعت فيه ، هو المؤمن ، الذي يستحق وصف الايمان بحق ، وعندها يكون اهلا لاحتلال المكانة اللائقة عند الله . والمراتب الرفيعة ، مراتب القرب من رحمته ، ومغفرته ، حيث يظلله الله بظله ، يوم لا ظل الا ظلّه .

ونتيجة كل ذلك ، الجنة ، وما جعل الله فيها من الخيرات والنعم .

وقد ورد في القران الكريم ، ما يفيد ، بان المراد بالرزق الكريم : الجنة . كقوله سبحانه في سورة الحج

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١)

فالاية الكريمة ، لما كانت في مقام بيان جزاء كل من الفريقين المتقابلين ، المؤمنين والكافرين ، وتصريحها بأن جزاء الكافرين النار ، كان ـ بمقتضى المقابلة بين الجزاءين ـ جزاء المؤمنين الجنة . التي عبر عنها في الآية بالرزق الكريم .

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝ ﴾

لقد ذكرنا فيما سبق ، أن الحكم برد الأنفال والغنائم الى الله والرسول ، وان رضخ له المسلمون وخضعوا . الا ان ذلك لا ينافي ان يكون بعضهم ، قد وَجَدَ في

---

(١) الحج /٥١

نفسه وَحَرَد ، لأن هذا الحكم ، لم يَجْرِ على طِبق ما كان يشتهي ويرغب ، من ان تكون هذه المكاسب المادية ملكا له لتصوره انه احق بها .

وعليه ، فيكون قوله تعالى « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » معطوفاً على قوله سبحانه « قل الانفال لله والرسول » ومرتبطا به .

ويكون المعنى والله العالم ، ان ما حكمنا به من رد الانفال لله والرسول ، لم يرض بعض المؤمنين ممن معك ، بل كان ذلك البعض له كارها ، ككراهيته لخروجك من المدينة - بيتك - لملاقاة المشركين ومحاربتهم . مع ان خروجك ، انما كان بأمرنا لك به .

والذي يبدو ، ان تشبيه كراهة بعضهم الخروج لملاقاة المشركين ، عندما أمرهم النبي (ص) به ، بكراهة بعضهم الحكم بانتزاع ملكية الغنائم منهم ، من جهتين :

الأولى : ان الحكم في كلا الموردين ، كان من قبل الله سبحانه . والله لا يحكم الا بالحق .

الثانية : ان هذا الحق ، لما كان مخالفا لما يشتهي هذا البعض ويرغب ، ومصادما مع مصلحته المادية ، كان مكروها من قبله .

ولا شك ، في ان الانسان ، كما يكره ان يحرم مما يراه ثمرة مجهوده الشخصي ، كما كان الحال بالنسبة للانفال ، كذلك يكره ان ينتزع من حياة الهدوء والاطمئنان التي يرفل بحللها - كما كان الحال بالنسبة للمسلمين في المدينة - ليلقى في أتون الحرب والقتال ، اما طلبا للسلامة ، وحبا للراحة ، او لعدم استعداد لحرب وقتال .

فوجه التشبيه - اذن - هذان الامران . وليس وجه التشبيه هو الجدال اذ لَمْ يَرْوِ أحد أبداً ، ان احدا من المسلمين جادل النبي (ص) في شأن الغنائم بعد نزول الحكم المعروف فيها .

والكراهية ، كيف نفساني ، لا يمكن الحكم بثبوته ، إلا إذا أبرزه صاحبه الى الخارج بمُبرزٍ ماً .

وقد اخبر سبحانه بما في نفوس بعض المسلمين ، من كراهية الخروج مع النبي (ص) من المدينة ، وان لم تستتبع هذه الكراهية تخلفا عن الركب . ولم يذكر

المؤرخون والمفسرون ، ان أحدا من المسلمين ، قد اظهر كراهيته لهذا الخروج بشكل أو بآخر . اللهم الا ما روي[1] ، من ان بعضهم قد ثقل عندما نَدَبَهُم النبي (ص) للخروج الى عير قريش التي فيها أموالهم ، في حين خَفَّ الباقون لفعل ما ندبوا اليه . والتثاقل : هو التباطؤ واظهار ثقل ما أمِروا به على نفوسهم . وربما كان مبعثه كراهيتهم للخروج ، كما اخبر سبحانه .

نعم ، انما أبرز بعضهم هذه الكراهية ، واعلن عنها ، بعد خروج النبي (ص) بأصحابه من المدينة ، ووصول الانباء اليهم ، عن خروج جيش قريش من مكة ، لحماية عيرهم والدفاع عنها ، عندما بلغهم خبر خروج المسلمين بقيادته (ص) للتصدي لها ، بحيث وصلت الجرأة عند ذلك البعض ، الى حد الجدال ، واللجاج في الخصام مع النبي (ص) عندما استشارهم في قتال العدو . . .

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

والجدل والجدال لغةً : شدة الخصومة . وقد ورد في القرآن في سورة البقرة :

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ﴾[2]

وقد فسر العلماء الجدال في الآية بأن يقول الإنسان : اي والله ، أوْ لا والله[3]. وهذا هو عين التعبير الذي جاء فيما رواه بعض[4] المفسرين ، عن ابي أيوب الأنصاري قال : « قال رسول الله (ص) ونحن بالمدينة : إني أُخبرت عن عير أبي سفيان ، انها مقبلة ، فهل لكم ان نخرج قبل هذه العير ، لعل الله ان يغنمناها ، فقلنا نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوما أو يومين ، قال : ما ترون في قتال القوم ، انهم قد اخبروا بخروجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكنا اردنا العير . ثم قال : ما ترون في قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك » الخ .

وعلى هذا ، فالمقصود بالحق الذي وقع الجدال فيه بين النبي (ص) وبعض المسلمين ، كما في الآية الكريمة ، هو قتال المشركين .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٢/١١٦

(٢) البقرة /١٩٧

(٣) يراجع مجمع البيان للطبرسي ١/٢٩٤ والميزان للطباطبائي ٢/٧٩

(٤) رواه الحافظ في تفسيره

استفادة من النص وتعليق

ويستفاد من النص التأريخي المتقدم ، المروي عن ابي ايوب الانصاري ، ان من عارض في القتال من المسلمين ، قد علّل معارضته تلك بأمرين :

الاول : انهم لم يخرجوا الا لطلب العير .

الثاني : انهم لا طاقة لهم بقتال العدو .

وهذا المنطق المشوب برائحة الطين ، والمغلّف بضعف الانسان امام حطام الدنيا اولا ، لا يصدر الا عن نفوس ، كان همها ، ان تحصل على المكاسب السهلة اللينة ، دون ان يكلفها ذلك بذلا ولا عطاءً .

وهذا المنطق المتخاذل ثانيا . لا يصدر الا عن قلوب ، احدثت فيها الدعوة الى قتال العدو ، وَجَلاً ، ارتعدت له فرائص أصحابها حتى بَدَوا « كأنما يُسَاقُونَ إلىَ ٱلمَوتِ وَهُمْ يَنظُرُوْن » .

فما عليك ، اذا اردت ان تتصور حال هؤلاء ، في اللحظة التي اصبح فيها قرار القتال نافذا ، ولا محيص لهم عن الرضوخ له ، الا ان تتأمل في دقة التعبير في الآية الكريمة « كأنما يُسَاقُونَ إلىَ ٱلمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُون » إنك اذا تأملت في دقة هذا التعبير ، فسوف تنعكس في ذهنك صورة مشهد يتجسم امامك حيا نابضاً بالحركة ، مشهد رهط ينقلون اقدامهم ببطء شديد ، وما كانوا بفاعلين لولا حثهم على السير من خلفهم ، وهو معنى السَّوْق ، ولكن نحو ماذا ؟ نحو الموت الذي يتمثل امام اعينهم ، كلما دنوا خطوة من جيش المشركين .

ولكن الذي يُهَوِّن من قيمة المنطق المتخاذل المقيت هذا ، فيجعله كأنْ لَمْ يكن ، انه ما كان صادرا إلا عن جماعة صغيرة من المسلمين ، ضاعت معارضتهم وسط صيحات الإستبشار بلقاء العدو ، وقتاله ، واصوات كهزيم الرعد ، يتسابق اصحابها في اعلان استعدادهم لبذل نفوسهم رخيصة ، في سبيل اعلاء كلمة الله في الارض ، وكبت الباطل المتمثل في مشركي قريش ، والقضاء عليه الى الابد ، ليكون الدين كله لله .

هذه الاصوات ، وتلك الصيحات ، كانت صادرةً عن الغالبية العظمى من

المسلمين . وهذه الغالبية ، هي التي تعبر بحق ، عن المستوى الرفيع ، الذي وصلت اليه النفوس المؤمنة ـ بتربية الاسلام لها ـ من الشعور بعظمة الهدف ، وسمو الغاية ، وقداسة الفكرة . بحيث تحتقر كل قيمة مادية ، قد تقف في سبيل تحقيقهم لذلك الهدف ، ووصولهم لهذه الغاية ، وَصَوِنهم لفكرتهم المقدسة .

هذا الموقف المشرف ، يحدثنا عنه ابن الاثير[1] فيقول: فأقبل رسول الله (ص) على اصحابه وقال : هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها . ثم استشار اصحابه فقال ابو بكر فأحسن ، ثم قال عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ)[2] ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد ، يعني مدينة الحبشة ، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا لهم بخير ، ثم قال رسول الله (ص) أشيروا عَلَيَّ أيها الناس ، وانما يريد الانصار لأنهم كانوا عدد الناس . وخاف الا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة وليس عليهم ان يسير بهم . فقال له سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك ، واعطيناك عهودنا فامض يا رسول الله لما امرت فوالذي بعثك بالحق ، ان استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك ، وما نكره ان تكون تلقى العدو بنا غدا . إنا لَصُبرٌ عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تَقرُّ به عينك . فسر بنا على بركة الله . فسار رسول الله (ص) فقال : أبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين » .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ ﴾

ولقد سار النبي (ص) من وادي (دفران) متوجهاً نحو بدر ، بعد ان نشطه وأدخَلَ عليه السرور ، ما لمسه من اصحابه ، من استعداد للبذل والعطاء . وتحفز

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٠

(٢) المائدة /٢٤

للقاء العدو ، عندما استمزج اراءهم حول قتال المشركين .

سار (ص) ، بعد ان اطلق كلمته تلك « أبشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين » وسار المسلمون معه . وكان رهط ـ نفس ذلك الرهط الذي كره الخروج ابتداءاً من المدينة . ونفس ذلك الرهط ، الذي جادَلَهُ ولجَّ في الخصام في وادي دفران عندما انتدبوا لقتال ، ونفس ذلك الرهط ، الذي كره بعد هذا حكم الله في الأنفال ـ سار هذا الرهط أيضا ، وكلمة الرسول (ص) بوعد الله له احدى الطائفتين تجلجل في الآذان . ومع ذلك ، يحب في قرارة نفسه ، ان يحقق الله وعده ، ولكن في غير ذات الشوكة .

والمراد بالطائفة غير ذات الشوكة ، القافلة التي كانت فيها اموال قريش ، تقابلها الطائفة ذات الشوكة ، وهي جيش قريش ، الذي خرج من مكة ، للدفاع عن القافلة

والشوكة لغة الحدة ، استعيرت هنا من الشوك لحدته .

والوجه في ميل بعض المسلمين للقاء القافلة دون الجيش ، هو انه لم يكن ذلك ليتطلب منهم قتالا ، او جهدا يذكر ، اذ مجموع ما كان معها ثلاثون او اربعون رجلا ، بما فيهم ابو سفيان وعمرو بن العاص .

في حين كان عدد جيش قريش ، يناهز الالف رجل ، وكانت خيلهم مائة فرس[1] .

ولكن الله العالم بما تقتضيه الحكمة ، وما تتطلَّبه المرحلة الحاضرة ، التي يمر بها دينه ، اراد غير الذي ارادوا . وحقق وعده ، بما لا يتناسب مع ما هووا ، فكتب عليهم ان يلاقوا الطائفة ذات الشوكة لانه ـ سبحانه ـ « يريد ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » .

ارادها معركة فاصلة وحاسمة . « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

وهذه الاية ، متعلقة بقوله تعالى « واذ يعدكم الله » الاية . فيكون المعنى ـ والله العالم ـ انما وعدكم سبحانه ، ما وعدكم به من ظفركم بإحدى الطائفتين ، ثم جعلها ذات الشوكة ، ليظهركم وما تتمثلونه من حق ، على المشركين وما يمثلونه من باطل ، ولو كان المجرمون يريدون غير ذلك .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ٢/١١٦ ـ ١١٨

ودابر كل شيء مؤخره، والتعبير هنا بقطع دابر الكافرين، كناية عن انه يريد ان يستأصلهم، ويأتي عليهم. وبذلك يطمس معالمهم، وآثارهم الفكرية والاجتماعية الفاسدة.

وكلمات الله، التي بهايريد ان يظهر الحق، ويثبت آثاره هي: ما وعد به، من غلبة رسله، ونصرة من ينصره. وقد ذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (1)

* * *

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن بيّن الله سبحانه، الحالة النفسية التي كان عليها بعض المسلمين عندما انتدبوا لقتال عدو الله وعدوهم. وان الانسان قد يختار في اغلب المواقف لنفسه، معتمدا في اختياره على نظره المحدود، وحساباته الخاضعة لعالم الضرورات. وقد يكون فيما اختاره مفاسد، لايدركها، الا اذا تورّط فيها.

وان الله سبحانه، يختار للإنسان ما فيه خيره وسعادته، لأنه العالم بكل شيء، المحيط بكل شيء، المهيمن على كل شيء، ولا يدرك الانسان ذلك

---

(1) الصافات /١٧٣

الخير، وتلك المصلحة، الا بعد ان تتضح له، ويلمسها لمس اليد. وعندئذ، يوازن بين ما اختاره لنفسه، وما اختاره له الله، فيرى البون الشاسع والعظيم بين الإختيارين.

بعد أن بيّن الله سبحانه هذا كله بعبارة وجيزة، غنية مؤثرة. اخذ يذكرهم ببعض المواقف التي وقفوها، بحكم ما اختاره الله سبحانه لهم، من قتال المشركين، وبعدد النعم التي افاضها عليهم نتيجةً لهذا الاختيار، الذي لم يكن ليلاقي هوى في نفوس بعضهم، ولا رغبة.

واول هذه المواقف، شعورهم بضعف امكاناتهم، ازاء امكانات عدوهم كماً وكيفا. ذلك الشعور، الذي أدى بهم إلى أن يتوجهوا إليه سبحانه يستغيثونه.

« إذْ تَسْتَغِيثون رَبَّكُم »

والإستغاثة، طلب الغوث والمعونة .

او كما قيل : تستجيرون به . والاستجارة : طلب الخلاص . وقيـل ، تستنصرونه على عدوكم .

ولا بأس بالأخذ بأي واحد من هذه المعاني ، لتأدّي المقصود بأي واحد منها .

وقد روُي أن المستغيث كان هو النبي (ص) . قال في مجمع البيان[1] :

« ان النبي (ص) لما نظر الى كثرة عدد المشركين ، وقلة عدد المسلمين ، استقبل القبلة . وقال : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض . فما زال يهتف ماداً يديه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأنزل الله تعالى : اذ تستغيثون ربكم » الآية .

نعمة امدادهم بالملائكة :

ومهما يكن مصدر هذه الاستغاثة ، فماذا كانت نتيجتها ؟ كانت نتيجتها الاستجابة العملية السريعة ، التي يتمثل فيها العطف الالهي ، والتأييد الرباني :

---

(١) للشيخ الطبرسي ٥٢٥/٤. كما رواه أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب.

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾

والردف : التابع

والمردِف : المقدم الذي اردف غيره ، اي جعله تابعاً له في الركوب . وفي معنى « مردفين » اقوال :[2] .

منها : مع كل مَلَك مَلَكٌ ردفا له . وقد ذهب اليه ابن عباس . ومن هنا ذهب الجبائي الى ان الملائكة كانوا الفين[3] .

ومنها : وهو ما ذهب اليه السدي ، وقتادة ، انهم متتابعون . اي انهم كانوا الفا كل ملك منهم في اثر الآخر .

ومنها : ان يكون « مردفين » بمعنى رادفين ، والرادف : المتأخر . وعليه يكون المعنى : اني ممدكم ايها المستغيثون ، بألف من الملائكة جاؤوا بعدكم .

الرأي المختار

ونحن ، عند اختيارنا لمعنى من المعاني ، في ارداف الله سبحانه الملائكة يوم بدر ، لا بد وان نلاحظ ما ورد في ذكر قصة الامداد بالملائكة في ذلك اليوم ، في مكان آخر من القرآن الكريم ، وذلك حيث قال سبحانه في سورة آل عمران :

﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ☆ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ☆ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ☆ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[3]

ففي هذه الايات ، تصريح بأن عدد الملائكة الذين امد الله المسلمين بهم يوم بدر، خمسة آلاف ملك، وعليه، فكيف يمكن ان نُوفقَ بينه وبين ما تصرح به الآية

(١) التبيان للشيخ الطوسي ٥/٨٣

(٢) نفس المصدر

(٣) آل عمران /١٢٦

التي بين ايدينا - في سورة الانفال - من انهم كانوا الفا ؟؟

والذي نراه ، انه لا تنافي بين الموردين أبداً . وذلك لأن موضوع كل منهما يختلف عن الآخر. فالآية التي بين أيدينا تخبر بأن الملائكة كانوا ألفاً مردفين ، فإذا قرأنا « مردِفين » بكسر الدال ، كما ذهب اليه الجمهور[1] ، وقد عرفنا سابقا ان المردِف : المقدم الذي جعل غيره تابعا له في الركوب ، يكون المعنى : ان الالف من الملائكة ، قد اردف كل ملك منهم ملكاً اخر ، فيكون المجموع الفي مَلَك . في حين ان التي في سورة آل عمران تخبر ، بأن الملائكة انما كانوا ثلاثة آلاف منزلين لا مردِفين . واذا كان موضوع الآية التي بين أيدينا الملائكة المردِفين ، وموضوع الآيات التي في آل عمران الملائكة المنزلين ، يرتفع ما قد يبدو من تناف بين الموردين . فاذا ضممنا الألفي ملك موضوع حديث هذه الاية مع الثلاثة آلاف ملك المنزلين ، موضوع حديث سورة آل عمران يكون المجموع خمسة آلاف ملك ، وهو ما اجملت ذكره الاية في سورة آل عمران .

﴿ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾

واما اذا قرأنا « مردفين » بفتح الدال ، كما ذهب اليه اهل المدينة ويعقوب[2]، وعرفنا أن المردَف هو المتبوع بغيره، فلا تنافي أيضاً. إذ يكون المعنى : ان الله سبحانه ، قد أمدَّ المسلمين بألف من الملائكة ، وهذا ما نظرت اليه الآية هنا ، متبوعاً بثلاثة الاف من الملائكة منزَلين ، ثم أتم العدد خمسة آلاف ، وهو ما تنظر اليه الآية الواردة في سورة آل عمران .

تعقيب وتنبيه :

بعد هذا كله ، نَبَّه سبحانه المسلمين ، على أن إمدادهم بهذا العدد الضخم من الملائكة ، ليس لأنهم يصنعون النصر ولا انتم . اذ النصر لا يكون بكثرة العدد ، ولا قوة المنتصر ، ولا ضعف المغلوب ، فان هذه الامور ، ما هي إلا أسباب

---

(١) تفسير المنار ٩/٦٠٧

(٢) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٥/٨٤

ظاهرية للنصر ، واما حقيقة النصر ، فمن عند الله العزيز ، الذي لا يذل القادر الذي لا يغلب ، والحكيم فيما يريد ويفعل وَيَعِدْ .

وانما جعله الله بشرى لهم ، ليسرّوا به ويفرحوا بإنجاز الله سبحانه وعده لهم بالنصر . فتطمئن بذلك قلوبهم ، وتسكن ، وتستقر ، بعد ان اخذ منهم الخوف كل مأخذ ، بسبب قلتهم ، وكثرة عدوّهم .

هذا اذا أرجعنا الضمير في لفظي (جعله) و (به) الى نفس الإمداد . ويمكن ارجاع الضمير فيهما ، الى نفس إخبار النبي (ص) المسلمين ، بإمداد الله لهم بذلك وربما يؤيد هذا ، كون البشرى لغة ، الخبر المفرح .

نعمة النعاس

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة ، الى تصفح صورة اخرى من صور نعمه سبحانه على المسلمين يوم بدر .

تلك النعم ، التي ترتبت على اختيار الله لهم ، ما كانت لتترتب ، لو كان ما اختاروه هم لانفسهم .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

حكمة ورحمة

وقد كان لتقدير الله سبحانه لهذا النعاس ، حكمة ورحمة ، ولطف.

فقد كان المسلمون ، يعانون ، عندما نزلوا بدرا ، من الجهد والتعب الشيء الكثير .

ولا عجب ، اذ إنهم قطعوا اغلب المسافة بين المدينة وبدر سيراً على اقدامهم ، حيث لم يكن عندهم سوى سبعين بعيرا ، فكانوا يتعاقبون عليها ، البعير بين الرجلين والثلاثة ، والأربعة . كما لم يكن فيهم غير فارس واحد[1]

هذا فضلا عما كان يعانيه كثير منهم ، من الخوف والقلق ، للقاء المشركين مع ما هم عليه من ضعف ، وما عليه عدوهم من شوكة وقوة .

(١) الكامل لابن الأثير ٢/١١٨

ومع تلك الحال ، كان من العسير ان يخوضوا غمار حرب غير متكافئة . فالاعصاب القلقة المتوفزة ، المنهوكة ، لا تُمكّن صاحبها من التركيز ، وتحمّل المشاق .

ولذا ، بَدَوا أحوج ما يكونون ، الى ما يريح تلك الاعصاب ، ويبعث في تلك القلوب الواجفة السكينة . ويعيد لهذه الاجساد المنهوكة القوة والنشاط .

فكان ان غشاهم ربهم النعاس .

اي جعله يحيط بهم ويلبسهم حتى يغطيهم ، اذ الغشاوة تعني الغطاء . والنعاس ، اسم مصدر لنَعِس . وهو فتور يصيب الحواس دون ان يغلب عليها . قال في المصباح المنير « اول النوم النعاس ، وهو أن يحتاج الإنسان الى النوم . ثم الأسن وهو ثقل النعاس . ثم الترفيق وهو مخالطة النعاس للعين . ثم الكرى وهو أن يكون الانسان بين النائم واليقظان . ثم العَفَق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم . ثم الهجود » . الخ[1] .

وهنا تتجلى حكمة الله سبحانه ، وعظيم رحمته ، ورأفته بالمؤمنين . فالموقف لم يكن ليحتمل غطيط المسلمين في نوم عميق ، يتركون للعدو معه فرصة لِمُباغَتَتِهم وافنائِهم ، قبل ان يستعدوا لمواجهته ، أو يستيقظون منه محطمي الاجسام ، يعتريهم الكسل والخمول .

وهم مع ذلك ، بحاجة ـ كما سبق ـ الى ما يريح أجسامهم وأعصابهم . فاختار لهم الله سبحانه النعاس ، فهو يتكفل بتوفير الراحة المنشودة ، دون ان يفقدوا حواسهم فيفوتهم تحرك العدو !! .

هذا ، مع ان الثابت أن النعاس لم يَغْشَ إلا طائفة من المسلمين آنذاك ، كما تشير اليه الآية الكريمة في سورة آل عمران ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾[2]

وقد روي عن علي عليه السلام وهو يصف المسلمين في تلك الحال : « ولقد

---

(١) باب نعس

(٢) آل عمران /١٥٤

رآيتنا وما فينا الا نائم ، الا رسول الله (ص) يصلي تحت شجرة حتى اصبح »[1] .

ولما كان النعاس فتورا في الحواس ، عبّر عنه سبحانه بالأَمَنَة وهي الأمان ، باعتبار عدم شعور الانسان مع هذا الفتور ، بالخوف .

هذا ما كان من امر النعاس الذي غشي المسلمين يوم بدر ، والحكمة فيه .

نعمة إنزال المطر

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

وأما بالنسبة لنعمة إنزال المطر على المسلمين يوم بدر ، فهذه الآية تنص على ان الغرض منه كان مجموع أمرين :

الاول : التطهير ، وما ترتب عليه من إذهاب رجز الشيطان واطمئنان القلوب .
الثاني : تثبيت الاقدام .

قصة التطهّر وما ترتب عليه

اما قصة التطهر وما ترتب عليه ، فيلقي عليها الأضواء ، ما روي عن ابن عباس ،[2] من ان المسلمين ، باتوا ليلة بدر على غير ماء ، حيث كان المشركون قد سبقوهم اليه . فأصبح بعضهم جُنباً بالاحتلام ، والبعض الآخر مُحْدِثاً ، وأصابهم الظمأ ، فصلى كل منهم بجنابته . فوسوس اليهم الشيطان مشنعا عليهم صلاتهم عن غير طهارة ، مع الجنابة والحدث . فداخلهم من وسوسته من الحزن والتشكيك . فأنزل الله سبحانه عليهم الغيث ، فاغتسلوا وتطهروا . وبذلك اغلق الباب الذي حاول ابليس ان يدخل منه الى قلوب المؤمنين ، فاطمأنت وهدأت .

---

(١) و (٢) ابن الأثير ٢ /١١٨

وبذلك تحقق الغرض الاول من غرضَي انزال المطر يوم بدر « ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم » .

والرجز لغة في الرجس ، ابدلت السين زايا ، كما قيل للاسد أزد . وهو ما ذهب اليه الفراء[١] . والرجز القذر . والمراد برجز الشيطان هنا وسوسته التي ذكرناها للمؤمنين بشأن صلاتهم عن جنابة او حدث .

والربط في الأصل : الشد .

والربط على قلوب المؤمنين هنا ، كناية عن تقويتها ، وتصبيرها ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[٢]

قصة تثبيت اقدام المسلمين والحكمة منها

واما الغرض الثاني من انزال المطر يوم بدر ، فهو تثبيت أقدام المسلمين .

فقد روي : أن المسلمين عندما نزلوا بالعدوة الدنيا من وادي بدر ، كانت تلك العدوة ، عبارة عن أرض رملية لينة ، لا تستقر على سطحها قدم . وقد كان هذا كفيلا بزعزعة قوة المسلمين ، وإرباكهم اثناء القتال . خاصة وانهم سوف يقاتلون راجلين ، اذ لم يكن بينهم سوى فارس واحد ، هو المقداد بن عمرو الكندي . فكان ان بعث الله سبحانه السماء من فوقهم مما ساعد على تلبيد الرمال ، وتثبيتها تحت اقدامهم ، فثبتت بدورها ، وتحويل الأرض الثابتة في العدوة القصوى التي نزل بها المشركون ، ارضا موحلة لا تساعد على ثبات . قال ابن الاثير :[٣]

« ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي ، وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله (ص) واصحابه منه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير ، واصاب قريشا منه ما لم يقدروا على ان يرحلوا معه » .

---

(١) صحاح اللغة للرازي / باب السين

(٢) القصص / ٩

(٣) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢

الخلاف حول اشتراك الملائكة في القتال

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

تنص هذه الاية ، على الاشتراك الفعلي للملائكة في معركة بدر

وقد اختلف المفسرون ، في ماهية هذا الإشتراك . هل هو اشتراك في قتل وقتال ؟ او انه اشتراك اقتصر على اثبات وجود ، لما فيه من تكثير عدد المسلمين في أعين المشركين ، ورفع الروح المعنوية عندهم ، وتقويتها .

وقد ذهب بعض المفسرين الى الاول[1] . وفسر امر الله الملائكة بتثبيت الذين آمنوا ، على انه أمر بالقتال معهم في ذلك اليوم .

روى ابن الاثير فقال[2] : « قال ابو داود المازني : اني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه ، اذ وقع رأسه قبل ان يصل سيفي اليه ، فعرفت انه قتله غيري . وقال سهل بن حنيف : كان احدنا يشير بسيفه الى المشرك ، فيقع رأسه عن جسده قبل ان يصل اليه السيف » .

اختيار واستدلال ونقاش

ونحن ، لا نميل الى هذا الرأي ، القائل ، باشتراك الملائكة في القتال الفعلي الى جانب المسلمين يوم بدر . وذلك لامور :

الاول : ان ما رواه ابن الاثير عن ابي داود المازني أو سهل بن حنيف ، وكذا ما رواه غيره بهذا الصدد ، لا يمكن اخذه اخذ المسلمات ، ولذا لم يعبأ به شيوخ المفسرين.

الثاني : ان اشتراك الملائكة مع المسلمين في القتال الفعلي ، وقتل المشركين ، ينافي سنة الله سبحانه في نشر هذا الدين . وانه اراد له سبحانه ان ينتشر لا بالخوارق والمعجزات وانما بالأسباب العادية . والا كان في مقدوره تعالى ،

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٨٧/٥

(٢) الكامل في التاريخ ١٢٩/٢

ان يخلق الناس مؤمنين من دون حاجة الى قتل وقتال . او كان باستطاعة الملائكة ان تتولى قتال المشركين ، من دون ان يكلف سبحانه المسلمين عناء ذلك .

الثالث : ان العدد الذي قتل من المشركين ، وهو سبعون رجلا ، لا يتناسب مع عدد الملائكة الذين انزلوا مدداً للمسلمين ، والذين بلغوا خمسة آلاف . بل كان يكفي ملك واحد للاجهاز على مجموع السبعين ، بل على المشركين كافة .

الرابع : ان المتصفح لكتب التاريخ والسيرة ، يرى انها تذكر اسماء قتلى بدر من المشركين كما تذكر قاتل كل منهم من المسلمين . وقد روي[1] ان علياً (ع) قتل وحده من السبعين خمسة وثلاثين مشركا ، هذا غير من اسره بنفسه ، وغير من ساعد الاخرين على قتله .

ومع معرفة قاتلي المشركين باسمائهم ، كيف ننسب قتلهم الى الملائكة مع انه لم يسم واحد فقط انه قتل بغير يد انسان من المسلمين . اللهم الا ما روي عن الربيع بن انس انه قال : « **كان الناس يوم بدر ، يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا . بضرب فوق الاعناق ، وعلى البنان ، مثل سمة النار قد احرق به** » .

وهو مما لا يمكن الاطمئنان اليه . اذ لم يرو عن غير الربيع هذا ولو كان لبان ، ولتواتر نقله ، حيث انه من الامور الهامة ، التي تتوافر الدواعي على نقلها بالتواتر .

وبناءاً على صحة ما اخترناه يكون قوله تعالى « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » خطابا للمؤمنين ، وتوجيها لهم ، نحو الطريقة المثلى ، التي تتناسب مع قتال الراجل المسلم ، الفارس الكافر .

اذ هل امام الراجل ، الا ان يضرب ما يقع تحت مرمى سيفه ، وهو البنان : اي مجموع اطراف اصابع الأيدي والأرجل ؟

والمقصود من فوق الاعناق احد أمرين

الاول : الرؤوس .

الثاني : ان تكون الاعناق نفسها هي موضع الضرب المأمور به .

---

(١) راجع الإرشاد للشيخ المفيد

كل تلك النعم ، التي انعم الله بها عليكم ايها المؤمنون ، من استجابته لكم عندما استغثتموه ، بإمدادكم بالملائكة . وجعله النعاس لكم أمانا . وانزاله المطر عليكم طهورا مع ما ترتب عليه ، من اذهاب رجز الشيطان عنكم ، وتطمين قلوبكم . كل هذه النعم ترتبت على ما اختاره سبحانه لكم ،لا على ما اخترتموه لأنفسكم .

وكل ضروب العذاب التي انزلها باعدائكم ، من القائه الرعب في قلوبهم ، وتسليطكم عليهم ، تطيحون منهم الرؤوس ، وتبينون من اكفهم الاصابع ، وتدلون باسركم لصناديدهم كبرياءهم ، وغطرستهم .

كل «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله» وجانبوهما. وبذلك جانبوا الحق الذي امروا باتباعه . وانفصلوا عن الانسانية العابدة ، التي اراد الله لها ان تكون هي المهيمنة ، والمسيطرة ، ليكون الدين كله لله .

«ومن يشاقق الله ورسوله» باتخاذه غير سبيل المؤمنين، فإن الله شديد العقاب . « في الدنيا بما لاقى المشركون على ايدي المسلمين ، وهو ما اشار اليه سبحانه بقوله « ذلكم فذوقوه » مجرد ذوق ، تدركون معه مرارته وقسوته . وسوف تطعمون ما هو أشد وادهى يوم القيامة بكفركم «وإن للكافرين عذاب النار».

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

مع حكم من احكام الجهاد

بعد كل هذه النعم ، التي انعم الله بها على المؤمنين ، والتي كان لها أثرها ، في الشد من عزيمتهم ، واذهاب خوفهم ، وتطمين قلوبهم ، وتثبيت اقدامهم . لم يبق لهم من عذر يعتذرون به، عن مجابهة اعدائهم، على الحالة التي صاروا اليها من الرعب الملقى في قلوبهم ، والبلبلة التي حدثت في صفوفهم ، من جراء ذلك .

بعد كل هذا ، ومع حتمية المعركة وكونها وشيكة الوقوع، يتوجه الله سبحانه اليهم ، بالامر بالثبات في وجه العدو ، وبألا يولّوه الادبار .

والزحف : مصدر زَحَفَ . وجمعه زُحوف .

ويراد به « الدنو قليلا قليلا ، والتزاحف : التداني . وأزْحَفْتُ القوم اذا دنوت لقتالهم » . [١]

والادبار : جمع دبر ، وهو الظهر . [٢]

« والتولية : جعل الشيء يلي غيره » وولاه دبره ، اذا جعله يليه . [٣]

والمتحرف ، هو المائل عن الجهة المقابلة للعدو ، والتي يفيدها لفظ اللقاء ، الى جهة اخرى .

والمتحيز ، التارك مكانه ومركزه الى آخر .

والفئة ، جمعها فئون ، وفئات ، وهي الطائفة .

وباء يبوء بوءاً : بمعنى رجع .

وعلى ضوء فهمنا لأهم مفردات الآيتين ، يكون معناهما هو : ايها المؤمنون ، اذا واجهتم الذين كفروا بالله ورسوله ، وجحدوا نعمه ظاهرها وباطنها ، وقد زحفوا عليكم معتدين محاربين فلا تفروّا منهم منهزمين ، تاركين لهم ظهوركم . بل يجب عليكم الثبات في وجههم ، مقبلين مقاتلين . ومن يولهم يوم القتال ظهره ، الا ان يكون مائلا عن جهة المقابلة لهم ، الى جهة اخرى يرى ان القتال فيها ، اجدى للمسلمين وانكى بالعدو او تاركاً مكانه ومركزه الذي يقاتل منه ، الى مركز آخر من مراكز المعركة ، رأى ان ضغط المشركين على الطائفة التي تتمركز فيه قد اشتد ، ولذا فهي بحاجة اليه ليقاتل معها . او كان ذلك المركز في حد ذاته ، اوسع من مركزه الحالي ، او كان فيه الماء الذي يحتاجه لرفع عطشه ، او غير ذلك مما تقتضيه ضرورات الحرب .

من يولّهم يوم القتال ظهره ، إلا لأحد هذين الامرين ، فقد رجع يصحبه غضب من الله وسخط ، ومكانه الذي سوف يحل فيه في الاخرة جهنم وبئس العاقبة والمصير .

وبهذا تكون الآيتان قد تضمنتا حكماً عظيما من حكام الجهاد في الاسلام هو

(١) تفسير التبيان للطوسي ٩١/٥

(٢) مختار الصحاح للرازي باب دبر

(٣) تفسير مجمع البيان للطبرسي ٥٢٩/٤

وجوب الثبات في وجه العدو ، وحرمة الفرار من الزحف .

الخلاف حول عموم هذا الحكم ورأينا فيه

وقد ذهب[1] الحسن، والضحاك، وقتادة، إلى أن هذا الحكم وهو حرمة الفرار من الزحف ، يختص بمعركة بدر لا يتعداها .

ونحن ، لا نوافق على ما ذهبوا اليه ، بل نرى ان حرمة الفرار من الزحف ، حكم عام لكل معركة أو حرب يخوض المسلمون غمارها ضد الكافرين وذلك لأمور :

الاول : ان سياق الآيات التي سبقت هاتين الآيتين ولحقتهما ، بحكم تأريخها للوقائع والاحداث التي حصلت في معركة بدر ، ووصفها لها ، يشير الى انها نزلت بعد المعركة ، ومقتضى وحدة السياق ، هو كون الآيتين المتضمنتين لحكم للفرار قد نزلتا بعدها كذلك ، فكيف يكون خاصا بمعركة قد انتهت وانقضت ؟

الثاني : على فرض نزول الآيتين يوم بدر ، اثناء المعركة او قبلها ، فمن المعلوم ان المورد لا يخصص الوارد ، بل يبقى الحكم الوارد على عمومه من حيث الدلالة .

الثالث : ان القول بالعموم هو ما دلت عليه النصوص المتضافرة من السنة الشريفة.[2]

والفرار من الزحف ، من الكبائر التي توعّد الله سبحانه عليها النار ، ولا خلاف بين الفقهاء في ذلك.[3]

ولكن الفقهاء قيدوا اطلاق الحكم بوجوب الثبات امام العدو ، وحرمة الفرار

---

(١) تفسير التبيان للطوسي ٥/٩٢

(٢) راجع تفسير التبيان للطوسي / ٥/٩٢ ووسائل الشيعة للحر العاملي / الجهاد باب ٢٧ و ٢٨

(٣) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي - كتاب الجهاد - باب /٢٧ و ٢٨ ونيل الاوطار للشوكاني ٧/٢٦٦ - ٢٦٧ وجواهر الكلام لمحمد حسن النجفي مجلّد ٢١/٥٦ والاقناع للمقدسي ٢/٨ .

بما اذا كان العدو ، ضعف المسلمين ، أو أقل . فلو كان أكثر من الضعف ، جاز الفرار حينئذ.[1]

* * *

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

بعد أن امر الله سبحانه المسلمين بالثبات امام العدو ، لما ينتج عنه من هزيمة المشركين ، وكسر شوكتهم ، وقطع دابرهم ، بالاسر ، او القتل ، ذكر تعالى المسلمين ، بان كل ما حل بالكفار ، من صنوف العذاب ، انما هو بفعل الله سبحانه « فَلَمْ تَقْتُلوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » وما انتم الا اسباب مباشرة لهذا القتل ، بعد ان هيأ سبحانه لكم كل وسائل النصر والغلبة ، وكتب على اعدائكم الهزيمة بالرعب الذي القاه في قلوبهم .

ثم يتوجه سبحانه ، الى نبيه (ص) بالخطاب « ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ الله رَمَى » وذلك اشارة الى ما كان النبي قد فعله بُعَيْدَ ابتداء القتال يوم بدر حيث «أخذ حفنة من التراب ، ورمى بها قريشا ، وقال : شاهت الوجوه . وقال لأصحابه : شدوا عليهم ، فكانت الهزيمة».[2]

فالله سبحانه ، ينفي ان تكون هزيمة المشركين ، التي استتبعت هذا الرمي منه (ص) لحفنة التراب في وجوههم، معلولة لنفس رميه (ص) . حيث لم تصل ذراته الى كل الوجوه ، لقلته ، ولعدم قدرة الرامي لذلك على حد سواء .

وبالجملة ، إسناد القتل الى المسلمين أنفسهم ، وإسناد الرمي الى النبي (ص) انما يصح في حدود كونهم أسباباً ظاهرية ، وفاعلين مباشرين لكل من القتل والرمي ، ولكن الذي اوجد القتل فيهم ، وأفاضه عليهم ، واوجد الرمي فيه (ص) ، انما هو الله سبحانه ، الفاعل ما منه الوجود .

ثم عقب تعالى « وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بلاءً حَسَناً إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » والإبتلاء : الإختبــار . والضمير في «مِنْهُ» يرجع اليه سبحانه . وعليه يكون المعنى : ان الغرض من كل ما فعله الله سبحانه على أيديكم ، من قتل

(١) جواهر الكلام للنجفي ٢١/٥٦ والاقناع للمقدسي ٢/٧ ونيل الاوطار للشوكاني ٧/٢٦٧

(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير /٢/١٢٦ والطبري /٢/٢٨١

الكافرين ، ورميهم ذلك الرمي المعهود ، وما سبقه من اختياره قتالكم المشركين مع كرهكم له ، ان هو الا اختبار للمؤمنين أيشكرونه على قتله ورميه لعدوهم ، اللذين استوجبا هزيمته ، والانعام بالنصر عليهم ام يكفرون ؟ .

ولما كان البلاء بالخير والشر ، اشار سبحانه هنا ، الى ان البلاء هنا انما كان « بلاءً حَسَناً » . .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يسمع استغاثة المشتغيث فيغيثه ، ويعلم ما ينطوي عليه قلبه بعد ذلك من الشكران او الكفران .

« ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلكَافِرِينَ »

قال في مجمع البيان[1] : « ذلكم موضعه رفع . وكذلك : إنَّ اللَّهَ . في موضع رفع . والتقدير : الامر ذلكم ، والامر أن الله » .

و « ذَٰلِكُمْ » اشارة الى بلائه للمؤمنين البلاء الحسن ، في قتله سبحانه المشركين على يدهم ورميه لهم على يد نبيه (ص) ، والى ان الله مضعف كيد الكافرين .

والكيد : المكر . وإضعاف الكيد ، إنما يكون : بإلقاء الرعب في القلوب ، وتفريق الكلمة ، والاطلاع على عورات العدو ، وابطال حيله.[2]

* * *

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

والاستفتاح : طلب الفتح والنصر .

رأي وتفنيد

وقد ذهب البعض[3] ، إلى أن الخطاب في هذه الآية للمؤمنين، وهذا حمل للآية على خلاف ظاهرها . بل هنالك قرائن تمنع من حملها عليه . كقوله تعالى :

﴿ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾

---

(١) للشيخ الطبرسي ٥٣١/٤

(٢) راجع تفسير التبيان للطوسي ٩٥/٥ ومجمع البيان للطبرسي ٥٣١/٤

(٣) انظر التفسير الكبير للرازي ١٤٢/١٥

فإن الخطاب هنا انما كان للمشركين . وبمقتضى وحدة السياق لا بد من ان يكون الخطاب السابق عليه لهم ايضا .

ويوضح لنا أمر الاستفتاح هذا بإيجاز ما رُوي[1] من أن أبا جهل، كان يقول عندما ابتدأت المعركة : « اللهم أقطَعَنا للرحم ، وآتانا بما لم نعرف ، فأحِنْهُ[2] الغداة. فكان هو المستفتح على نفسه».

كما روي[3] إن المشركين قبل أن يخرجوا لِلِقاءِ المسلمين، تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعز الجندين ، واكرم الفئتين ، وخير القبيلتين .

وقد يكون الاستفتاح بمعنى الاحتكام الى الله . من فتح يفتح فتحا القاضي اذا حكم ومن هنا سمي القاضي فتّاحا .

وعلى ضوء ما ذكرنا ، يكون معنى الاية : ايها المشركون ان تطلبوا الفتح والنصر مني على المسلمين ، فقد جاء النصر ، ولكن لا لكم ، بل لمن طلبتم خذلانهم وهزيمتهم .

أو ، إن تحتكموا الي ، فقد جاءكم الحكم ، وهو النصر للمؤمنين والخذلان لكم . فخير لكم في الدنيا ، ان ترتدعوا عما انتم عليه ، من عداوة للمؤمنين ، وقتال لهم ، ما دامت الهزيمة نصيبكم . وخير لكم في الاخرة . ان تتحولوا عن شرككم وكفركم بهذا الدين وتكذيبكم لنبيه . فان لم تفعلوا ، وعدتم الى ما كنتم عليه ، من كفر بهذا الدين ، ومكر بالمؤمنين ، عدنا إلى قتلكم وارعابكم ، ورميكم ، وهزيمتكم ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا وان كثرت ، اذ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ، بما تحمله من مبادىء وقيم ، تستميت في الدفاع عنها . وعدنا الى نصر المؤمنين ، بتأييدهم ، وتثبيت اقدامهم وقلوبهم . واظهارهم عليكم وذلك لان الله مع المؤمنين .

وقد تكون جملة « وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » معطوفة على قوله تعالى « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ » .

* * *

---

(١) انظر الطبري٢/ص /٢٨١ والكامل في التاريخ لابن الاثير ١٢٥/٢

(٢) كناية عن الدعاء عليه بالموت لأنه يقال لمن يموت حان حينه بفتح فسكون .

(٣) الكامل لابن الاثير ١٢٥/٢ وتفسير الرازي ١٤١/١٦ وتفسير الطبرسي ٥٣١/٤ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد هذا العرض الطويل ، للنعم التي انعم بها سبحانه على المسلمين ، والتي مهّدت طريق النصر لهم ، وهزيمة اعدائهم ، تعود الآيات ، حاملة في طياتها ، عدة نداءات إلٰهية موجهة الى جماعة المؤمنين .

النداء الاول : الامر باطاعة الله ورسوله .

وقد كانت هذه الآية ، طليعة هذه النداءات ، متضمنة الأمر بإطاعة الله ورسوله .

واطاعة الله ، انما تكون بالايمان بوحدانيته ، وحاكميته ، والعمل بما انزل من القرآن . واطاعة الرسول انما تكون بتصديقه فيما بلّغ عن الله ، من عقيدة وشريعة . والرسول ، باعتباره قائد الامة وإمامها ، لا يجوز الخروج على ما خططه لها في مسارها ، لئلا تحدث الفوضى في صفوفها ، فتتصدع وتنهار .

النهي عن التولّي عن الرسول (ص)

ومن هنا ، أتى النهي عن التولّي عنه (ص) ، الذي هو عبارة عن العدول عن خطه ، والإعراض عن سبيله ، والخروج عليه .

اتى هذا النهي شديدا ماضياً : « وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ » .

واصل « تَوَلَّوا » « تَتَوَلَّوْا »

ومرجع الضمير في « عنه » هو الرسول (ص) .

ويمكن ان يكون مرجعه نفس الامر بإطاعة الله ورسوله المتقدم .

قلت : اتى هذا النهي شديدا ماضياً . اذ ما هو عذركم في هذا التولي والحال انكم تسمعون آيات الله ، التي تذكّركم بالنعم العظيمة التي انعم بها عليكم ، ابتداءا بما اختاره لكم من قتال المشركين ، وانتهاءاً بالنصر المؤزّر يوم بدر . وتسمعون اوامر نبيه ونواهيه . ومواعظه وارشاداته ؟

ما هو عذركم لو توليتم « وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » كل ذلك ؟

اللهم ، الا ان تكونوا ، لضعف ادراككم ، وفساد عقولكم ، وانحطاطكم في

سُلمٌ الانسانية « كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ » وهذا مما يربأ المؤمن بنفسه عن ان يكونه . بل هذا مما لا يليق بانسان يشعر بكرامة .

* * *

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

والدواب : جمع دابة . وهي لغة كل ما يدب على الارض ومنه الانسان .
والصم : جمع أصم ، وهو من فقد حاسة السمع .
والبكم : جمع أبكم ، وهو من فقد حاسة النطق .

وقد ميز الله سبحانه ، هذا الانسان على بقية انواع الدواب ، بالعقل ، وامره ان يتدبَّر به ، كل ما يسمع ، وكل ما يرى .

وقد اشارت الاية الكريمة هذه ، الى انه ، اذا لم يتدبر ، ولم يتعقل ، فمعنى ذلك ، انه عطل هذا العقل ، وبالتالي ، فَقَدَ ما يميزه عن غيره من انواع الحيوان التي لا تعقل . بل يكون احط منها ، لتفريطه بما قيض له ، في حين ان باقي انواع الحيوان ، يستغل ما قيض له من حواس بشكل غريزي .

ولعله الى نفس هذا المعنى ، يشير قوله تعالى في سورة اخرى ، بصدد وصف الكافرين :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (1)

وهؤلاءِ لمّا شلوا عقولهم عن التدبر والتفكّر ، وعميت قلوبهم عما يكتَنِفهم ويحيط بهم . علم الله ان لا خير يرجى للانسانية منهم «وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ » ولكن ما فائدة اسماعهم ، مع تعطيلهم لعقولهم . وهل يعدو ذلك ، ان يحرك الصوت اوتار السمع عندهم ، ثم يتلاشى على طبلات آذانهم ، فَيَتَوَلَّوْنَ كأن لم يكن صوت ولا كلام « وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ »

سبب نزول هذه الآية

وقد قيل فيمن نزلت فيه هذه الآية أقوال :

---

(١) الاعراف / ١٧٩

احدها : انها نزلت في بني عبد الدار[1]، حيث لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير، وسويد بن حرملة، وكانوا يقولون «نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، وقد قتلوا جميعا بأُحُد، وكانوا أصحاب اللواء».

الثاني : أنها نزلت في المنافقين.[2]

الثالث : أنها نزلت في مشركي قريش[3] «لأنها في سياق الخبر عنهم»

الرابع : أنها نزلت[4] «في قوم كانوا يقولون للنبي (ص) أحْيِ لنا قَصَياً، فإنه كان شيخا مباركا، يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك، فقال الله تعالى، ولو احيا لهم قصياً وسمعوا كلامه، لتولّوا عنه وهم معرضون». وقد نُسب هذا القول إلى الجبائي.

وجهة نظر :

ومن الواضح انه لا تنافي بين القول الأول والرابع لأن القوم الذين كانوا يقولون له (ص) أحْيِ لنا قصياً لا بد وان يكونوا من بني قُصي بل قد يكونون هم بنو عبد الدار إذ إن عبد الدار هو ابن قصي المشهور. كما لا تنافي بين هذين القولين بعد ان جمعنا بينهما وبين القول الثالث، إذ إن بني قصي لم يدخلوا في الاسلام وانما بقوا على شركهم.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

النداء الثاني : الامر بالاستجابة لله وللرسول

هذا هو النداء الثاني لجماعة المؤمنين. وقد تضمن الأمر بإجابة الرسول

---

(١) و (٢) و (٣) الميزان للطباطبائي ٩/٦١ وتفسير الطبرسي ٩/١٣٢ وقد رجح ابن جرير الطبري القول الثالث.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٣٢

(ص) الى كل ما يدعوهم اليه . وما يدعوهم اليه هو الإيمان بالله ، وتصديق رسوله ، والعمل بما جاء به من عند ربه من كتاب ، ونظام ، واحكام .

اذ ان دعوته الى كل هذه الامور ، لا تعدو ان تكون دعوة الى ما فيه حياة لهم ، وسعادة في الدنيا والاخرة .

« إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »

الاسلام هو الحياة

ولكن ، كيف يكون هذا ؟ كيف تكون بالعمل بهذه الامور التي ذكرت حياتهم وسعادتهم ؟

لقد خلق الله سبحانه هذا الانسان ، من قبضة من تراب ، ونفخة من روح .

فالانسان ، ليس جسدا كله ، وليس روحا كله . وانما هو مزيج منهما وخليط .

فقبضة التراب ، تتمثل فيها كل نزوات الجسد ورغباته ، وغرائزه ، وغلظته ، وتمرّغه في عالم الضرورات ، ونفخة الروح تتمثل فيها كل نوازع الإنسان العلوية ، التي تشدّه ابدا الى أعلى ، الى مراتب الكمال الإنساني ، التي ببلوغها يحقق الإنسان فيه معنى الخلافة لله على الارض .

وعلى اساس من هذين الأمرين ، يجب ان يعالج الانسان .

وعلى أساس مراعاة كلا الجانبين فيه ، يجب أن يُنظَّم .

وان أي دين ، أو أي نظام يَدَّعي استهداف سعادة الانسان ورقيّه في تشريعاته وقوانينه ، ثم لا يضع في حسابه ازدواجية الطبيعة الانسانية ، بل يحاول ان ينظّم الإنسان ، من خلال النظرة إليه ، على أنه جسد فقط ، او روح فقط ، فهو كاذب في دعواه . لانه يكون بعمله هذا ، قد اغفل نصف الانسان ، ومزق النصف الآخر ، بحلوله المبتورة المرتجلة .

والاسلام ، من بين كل الاديان والنظم ، سواء كانت أرضيةً عاشها اسلافنا في الماضي ، او نعايشها اليوم ، أو تدعي ارتباطها بالسماء ، الاسلامُ هو الوحيد الذي فَهِمَ الانسان على اساس ازدواجيته ، وعالجه على هذا الاساس . يقول رسول الله (ص) :

(ان لجسدك عليك حقا ، وان لِروحِكَ عليك حقاً ، وان لِزَوْجِكَ عليك حقا) .

وبذلك ، كان في الاسلام إحياءٌ لهذا الانسان ، لأن بالنظر اليه من احدى زاويتيه فقط ، تمزيقا له ، يكون معه القضاء عليه .

اضف الى ذلك ، أن أي جانب وضعت يدك عليه من جوانب الاسلام ، تجد فيه ما يوفّر الحياة السعيدة الكريمة لهذا المخلوق .

فالاسلام في جانبه العقيدي ، الذي دعا الانسان الى اعتناقه ، والذي يتمثل في الربانية الواحدة ، والنبوة ، والمعاد ، يوفر الحياة السعيدة للانسان .

فايمان الانسان بالله الواحد ، سوف يوفر له الحياة المستقرة ، بما يجنبه من الحَيْرة والارتباك ، اللذين يعتريانه حول مصدر هذا الكون ، ومبدئه . فينغّصان عليه حياته . ويحيلانه الى قلق دائم ، وشك مقيم .

واذا آمن بالله كخالق له ، ومنعم عليه، كان بحاجة الى من يَدلُّه على ما هو مطلوب منه نحوه ، من واجبات ، والا فسوف يقع في حيرة من أمره ، فيما يجب عليه ان يفعله ، وفيما يحرم . ومن هنا ، كان ايمانه بالرسول ، رافعا لهذه الحَيْرةِ المميتة .

وايمانه بيوم يجمع فيه الناس ، ليثاب المحسن بالجنة ، ويعاقب المسيء بالنار ، سوف يحدث في نفسه وازعاً عن التعدي على حريات الآخرين ، وحرماتهم ، وحقوقهم ، وبهذا يعيش بنو الانسان آمنين ، من الظلم والظالمين .

كما ان الاسلام في جانبه التشريعي ، الذي دعا الانسان الى الالتزام به ، والذي يتمثل في العبادات والمعاملات باقسامها الاربعة : السياسات ، والاحكام ، والعقود والايقاعات . يوفر ايضا الحياة الحرة السعيدة للانسان .

فالعبادات تنظم علاقته مع ربه ، وتشعره بالثقة بنفسه ، لارتباطه به ، فتهدأ وتطمئن .

والمعاملات ، تنظم العلاقات العامة والخاصة لبني الانسان فيما بينهم بشكل يضمن بقاء النوع الانساني واستمراره .

هذا ، موجزا ، هو الاسلام ، وهو ما يدعو اليه الرسول (ص) . ومن الواضح انها دعوة كريمة للانسان الذي كرمه الله وفضله .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1]

وحَريٌّ بهذه الدعوة ، ان تتلقى القبول . وان تتلقى الاستجابة الظاهرية على اللسان ، والواقعية في أعماق النفوس . لا الرفضَ والصدودَ .

فالاستجابة الظاهرية ، من دون استجابة تتفاعل في اعماق النفس خضوعا وتسليما ، لا تجدي ولا تقبل .

ولا يَظُنَّن أحد انه يفلت من رقابة الله ، فيظهر الايمان ويبطن الكفر ، وكيف يفلت من رقابته ، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه . ويعلم ما يوسوس به صدره ، وهو اقرب اليه من حبل الوريد .

فمن كان كذلك ، فَلْيَتَّقِ الله ربه ، وليبادر الى قرن الاستجابة الظاهرية ، باستجابة واقعية يترجمها الى عمل حقيقي ، وفق ما دعي اليه ، لينقذ نفسه من عذاب الله ، يوم يحشر الخلق جميعا « وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » ليحاسبهم على ما عملوا ، وسوف يكون عقاب هذا الذي اظهر الاستجابة ، وابطن الرفض والصدود ، شديدا ، لانه ورط نفسه في حياة حقيرة ، تتسم بالنفاق والتذبذب ، اللذين لا يرضاهما الله من انسان ، كما لا يرضاهما لنفسه انسان ، اراده الله خليفة له على الارض .

* * *

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

شطرا المسؤولية في الإسلام:

الى جانب المسؤولية الفردية التي تلقى على عاتق الفرد كفرد . في قبال الحرية الفردية التي هي حق من حقوقه ، وضع الاسلام اسس مسؤولية اجتماعية .

وقوام هذه المسؤولية ، العمل على منع أي خروج على مباديء العقيدة ، واحكام الشريعة ، قد يقوم به فرد أو جماعة ، ووجوب الردع الفوري والحاسم لِيَسُدَّ بذلك باباً من ابواب التصدع ، ويقضي على بادرة من بوادر الفساد اللذين

---

(١) الإسراء / ٧٠

قد يؤديان عند التغاضي عنها ، الى انحلال البنية الاجتماعية ، والشخصية الحضارية للامة الاسلامية .

وهذا ، ما يسمى بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، او ما يسمى بالاصطلاح الحديث ، الرقابة الاجتماعية .

ولا يتفاوت افراد الامة ابداً ، في مقام تحمل هذه المسؤولية ، او اداء هذا الواجب . اذ انه من الواجبات الكفائية التي تتعلق بكل فرد ، بحيث لو أخلّت الجماعة بامتثاله ، لعوقب جميع افرادها على هذا الاخلال . وعند القيام به من قبل واحد يسقط عن الباقي .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (1)

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (2)

« مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . (3)

عود الى اجواء الاية

ومن هنا ، جاءت الاية الكريمة ، تحذر جماعة المؤمنين ، من السكوت والتغاضي عن اولئك النفر من الظالمي انفسهم وجماعتهم ، التي يعيشون بين ظهرانيها ، بخروجهم على أحكام الله ، وانتهاكهم لحدوده وحرماته .

لأن هذا الخروج ، وذلك الانتهاك من قبل مثل هذه الفئة المستهترة ، التي تحب ان تشيع الفاحشة بين الامة ، سوف يؤديان الى الفتنة ، وهي الفوضى والارتباك ، وبالتالي الانحلال والاضمحلال للكيان الحضاري والاجتماعي للجماعة ككل .

---

(١) آل عمران /١٠٤

(٢) التوبة /٧١

(٣) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي المجلد /١١/ باب /٣ من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٤٠٣ .

او هي البلية ، كما ذهب اليه الحسن.[1]
او الضلالة ، كما اختاره ابن زيد.[2]
او العذاب ، كما عن الجبائي.[3]

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾

درس وعبرة

وفي بني اسرائيل ، اكبر درس ، وعبرة في هذا المجال حيث حلّت بهم اللعنة ، فاضمحلت دولتهم ، ومزقوا شر ممزق ، من جراء تفشي المنكر فيهم ، دون ان يقف منهم في وجه مرتكبيه من يستنكره او يحاول تغييره .

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ☆ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[4]

وفي مقام تفسير هذه الاية ، وردت في السنة الشريفة احاديث منها ما روي عن علي عليه السلام في حديث طويل : لما جُعِل التفضّل في بني اسرائيل جعل الرجل منهم يرى اخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه ذلك ان يكون أكيله وجليسه وشريبه ، حتى ضرب الله عز وجل قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن . . . الخ[5]

وقد ورد في الحديث «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[6]

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

---

(١) و (٢) و (٣) التبيان للشيخ الطوسي /١١٣/٥

(٤) المائدة /٧٨ ـ ٧٩

(٥) و (٦) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي / ١١ / ٤٠٨ وابن كثير ٣٠٠/٢

تعقيب وتوجيه

وقد عمل الاستعمار الكافر ، بكل ما أوتي من قوة ومكر ، على ان تتفشى المنكرات في الامة الاسلامية ، وتنحل بالتالي اخلاقياتها ، فتتخلى عن دينها القويم ، بما فيه من قيم ومثل ، وتتلاشى شخصيتها وتضمحل ، حتى يحكم قبضته عليها ، ويؤكد سيطرته ، وقد نجح في ذلك الى حد بعيد .

فحري بكل فرد في الامة اليوم ، ان يقف في وجه كل من يرفع عقيرته ـ وما اكثر هؤلاء بيننا ـ داعياً الى التحرر من قيود الدين ، والخروج على شريعة الله ونظامه ، تحت شعارات براقة خداعة ، قد تجوز على كثير من السذج والبسطاء .

حري بكل فرد في الامة المسلمة ، ان يقف في وجه هؤلاء ليمزق الاقنعة عن وجوههم ، وسوف لن يجد تحتها ـ على احسن الاحتمالات ـ الا منحرفا عن جادة الحق والفضيلة ، او محترفا العمالة والذيلية للاستعمار الكافر ، الذي زرع اسرائيل في قلب الامة الاسلامية ، لتصفي حسابات الثأر معها . وتشبع حقدها الدفين على الاسلام والمسلمين .

* * *

﴿ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

تنبيه وتذكير

في هذه الآية الكريمة ، يُذَكِّر الله سبحانه جماعة المؤمنين ، بما كانوا عليه ، قبل أن يؤويَهم ، ويؤيدهم ، وينصُرَهم ، ويغدق عليهم نِعمه ظاهرةً وباطنة ، من الخوف والوَجَل ، بسبب القِلَّة والضعف ، ثم يُلْفِتُ انظارهم إلى ما صاروا إليه ، من قوة ومنعة . وكثرة عُدَّة وعَدَد .

قِلَّةُ المسلمين في مكة واستضعافهم

يذكِّرهم سبحانه ، بما كانوا عليه في مكة ، في بَدْءِ الدعوة الاسلامية . حيث لم

يكونوا ليتجاوزوا بضع عشرات من عبيد وأحرار ، وسط ذلك الحشد الكبير من مشركيها . لا يجرؤ الواحد منهم على أن يجهر بإسلامه . بل لا يجرؤ على أن يُيممَ شطر دار ابن الأرقم ، حيث كان رسول الله (ص) يقرأ القرآن على النَّفْر من أصحابه ، لئلا يُتّهم بالجريمة العظمى ، جريمة خروجه من دين الآباء والأجداد ، وعيبه لآلهتهم ، حتى ولو كان من سادة قريش ووجوهها . فيكون ذلك سبباً لتعرُّضه لأقسى أنواع التعذيب والمهانة .

يحدثناابن هشام في السيرة ، عما كان يجري للنَّفْر ممن أشرقت قلوبهم بنور الإيمان من قِبَلِ عتاة قريش آنذاك فيقول : « ثم إنهم ـ أي المشركين ـ عَدَوا على من أسلم واتبع رسول الله (ص) فوثبت كل قبيلة على مَن فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . مَن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم

. . . .

وكان أمية بن خَلَف ، يخرج بلال بن رباح إذا حَمِيَت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأتي بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللاتَ والعزّى . فيقول وهو في ذلك البلاء : أحدٌ أحد» . [1]

ويصوِّر عبد الله بن الحارث ، الذل والهوان ، اللذين لاقاهما كل مَن آمن بالله ورسوله في تلك الحقبة فيقول: [2]

كل امرئٍ من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهورٍ ومفتون

إنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجي من الذل والمخزاة والهونِ

فلا تقيموا على ذل الحياة وخزي ... في الممات وعيب غير مأمون

النصر الأول للإيمان بمكة

وقد أراد الله سبحانه ، أن تكون ثمرة كل هذا العذاب ، خلافَ ما توقَّعه الظالمون .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١/٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ /٣٥٤

أراد لهذا العذاب ، أن يثمر الصبر . والجلد عليه في ذات الله . وأن تكون ثمرة هذا الصبر وذلك الجلَد ، تجذير الإيمان ، وتعميقه ، والإصرار على إعلاء كلمة السماء ، متمثلاً بالجهر بهذه الكلمة ، في وجوه اولئك الطغاة .

وإيذاناً من الله القاهر . بإسفار الحق ودحض الباطل . وكان تحقيقاً لوعده رسلَه واولياءه بالنصر والغلبة :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ [1]

الإيواء الأول للمؤمنين

والله سبحانه ، بعد أن تحقَقَ للبصيص الضئيل من الإيمان ، أن يتحول إلى جذوة لن يقوى على إطفاءِها كل عتو العتاة وجبروت الجبابرة . ولكي لا يدع لذلك العتو وهذا الجبروت ان يفترسا أجساد المؤمنين ، بعد أن استعصت عليهما أرواحهم وعقولهم ، أذِن لهم بالهجرة بدينهم الى بلاد الحبشة ، بلاد النجاشي . فكانت الهجرة الأولى ، وكان الايواء الأول من الله للمسلمين .

لقد إذِن الله تعالى لهم بالهجرة على لسان رسوله (ص) ، حيث قال لهم (ص)[2]: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد . وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

والحق ، ان لطف الله بعباده المؤمنين ، قد قَيَّض لهم مأوى هو خير مأوى ، ودارا أحسّوا فيها بالدَّعة بعد عناء . والإستقرار بعد بؤس وشقاء .

يحدثنا المهاجرون بدينهم إلى الله عن ذلك، وكان عددهم[3] ثلاثة وثمانين رجلاً عدا النساء والاطفال فيقولون « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خيرَ جار النجاشي ، أمِناً على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه » [4]

---

(١) غافر /٥١

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١/٣٤٤

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١/٣٥٣

(٤) نفس المصدر ص ٣٥٨ وتاريخ الطبري جـ ٢/٢٢١

النصر الثاني للإيمان بالحبشة

ولكن ، هيهات للحقد الأسود ، في قلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة ، أن يخمد أو يستكين .

وهيهات للنفوس المجبولة برائحة الطين ، أن تتحرر من عبودية الغرائز المشبوبة وقيود الحيوانية الهابطة .

وهيهات للأيدي الملطّخةِ بدماء المُسْتَضعفين ، أن تعرف يوماً الطهر ، والبراءة ، والرّحمة .

لقد كانت كل هذه الأمور ، كفيلة بأن تدفع بأصحابها من مشركي مكة ، وطغاتها ، لأن يلاحقوا المؤمنين بالله ، بالكيد والأذى والتآمر ، حتى خارج الحدود ! خاصة ، وانهم استفاقوا بعد فوات الأوان ، ليكتشفوا أن هذه الهجرة ، إنما كانت انطلاقة جبارة لكلمة الله ، خارج حدود الجزيرة العربية . فهي إذن ، ليست هُروبا من جحيم مكة الى جحيم الغربة . وانما هروب من جحيم جاهلية لقوم جفاة عتاة ، الى رحاب عدل ملك في الأرض ، قيّضته لهم عناية رب الأرض والسماء .

ولذا ، فقد ائتمرت قريش أن تبعث فيهم « رجلين من قريش ، جَلدِين ، الى النجاشي ، فيردهم عليهم ، ليفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها ، وأمنوا فيها . فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدَوا إليه هدية »[1]

ولكن ، ماذا كانت النتيجة ؟

ماذا كانت نتيجة هذه المؤامرة من قريش ؟

وماذا أجدت رشوة قريش لبطارقة النجاشي ، ومحاولتها رشوة النجاشي نفسه من أحسن ما يُستطرف من متاع مكة ؟

هنا تتجلىّ رحمة الله ، ويتجلىّ كرمه ، ويتجلىّ صدق وعده بنصر مَنْ ينصره ، النصر الذي تغيض عنده كل مقاييس الأرض وتتلاشى .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٥٦ وما بعدها .

كانت نتيجة كل ما مكروا ، الخذلان والخسران . وشاء الله لكلمته ان تعلو مجلجلةً في آيات قليلة تلاها عليه جعفر بن ابي طالب ، زعيم المهاجرين ، من سورة « كَهيَعَصَ » حيث (بكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته . وبكت أساقفته حتى اخضلّت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم . ثم قال لهما النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة . انطلقا ، فلا والله لا اسْلمهم اليكما ولا يُكادون)[1]

ولم يكتف رسولا قريش بما جرى ، ولم ييأسا ، فعاودا الكرَّة من الغد على النجاشي ، ليمكرا مكراً ، فقالا له : « أيها الملك ، انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسِلْ اليهم فسلهم عما يقولون فيه .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى ؟

فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا ، هو عبد الله ، وروحه ، وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشي بيده الى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : واللهِ ، ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود . فتناخرت بطارقته حوله ، حين قال ما قال . فقال : وإن نخرتم والله . اذهبوا ، فأنتم آمنون بأرضي ، مَن سبّكم غَرِم . ما أحب ان لي جبلاً من ذهب ، وأني آذيتُ رجلاً منكم[2].

ثم أين الرشوة وفعلها الساحر في النفوس الضعيفة ؟

لقد ديست ـ بفضل الله ـ تحت أقدام الحق ، وذلك عندما التفت النجاشي الى من كان عنده من رجاله قائلاً : « ردّوا عليهما هدأياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ اللَّهُ مني الرّشوة حين ردّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة منه . وما أطاعَ الناسَ فيَّ فأُطيعَهم فيه »[3]

وهكذا خذل الله الكفر ورسوليه . فخرجا من عند النجاشي مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءا به .

واقام المؤمنون عنده بخير دار مع خير جار !!!

وكان النصر الثاني من الله للإيمان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ /٣٦٠

(٢) نفس المصدر /٣٦١

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٦٠

الإيواء الثاني للمؤمنين

ثم ابتدأ المؤمنون المهاجرون بالرجوع الى مكة من الحبشة ، بعد أن تناهى اليهم خبر دخول قريش وسائر أهلها في الإسلام[1].

ولكنهم فوجئوا بأن ذاك الذي نُمي اليهم لم يكن صحيحاً . بل صُدِموا بما هو أقسى وأمرّ . صُدِموا بما كان الظالمون قد صنعوه أثناء غيابهم ، حيث عقدوا حلفاً فيما بينهم « على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينحكوا اليهم ولا ينحكوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم »[2]

وحيث تجاوزوا كل حد بتهكمهم بالرسول (ص) ، ومن بقي من أصحابه في مكة . وطرحِ زوجِ أبي لهب الشوك في طريقه . وهمزهم ولمزهم له (ص) كلما مر بهم[3]. واستمرارهم فيما كانوا عليه من تعذيب المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم واستضعافهم « أمر رسول الله (ص) أصحابه من المهاجرين من قومه ومَن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج الى المدينة ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : إن الله عزّ وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها . فخرجوا أرسالاً ـ اي جماعة في إثر جماعة ـ وأقام رسول الله (ص) بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة ، والهجرة الى المدينة »[4]

وهكذا تحقق فضل الله سبحانه للمؤمنين بالإيواء الثاني لهم في المدينة ، بعد هجرتهم اليها .

النصر الثالث للإيمان

ثم كان النصر الأكبر في بدر . ذلك النصر الذي لم يكن ليتحقق ، لو أعمِلت مقاييس الأرض وأهل الارض للنصر والهزيمة . كما سبق وذكرنا .

---

(١) نفس المصدر ٢/٣

(٢) نفس المصدر ١/٣٧٥

(٣) نفس المصدر ١/٣٧٥ وما بعدها

(٤) نفس المصدر ٢/١١١

ومن هنا ، كانت الحكمة في تذكير المؤمنين في هذه الآية الكريمة بهذه النعم .
تذكيرهم بما كانوا ، ولَفْتِهم الى ما صاروا ، ليدركوا الفرق العظيم بين الحالتين . والبوْنَ الشاسع بين الفترتين .
هذا الفرق الذي حدث نتيجةً لما اختاره الله بلطفه لهم . إذ إن الإدراك لهذا الفرق العظيم ، سوف يحدث عندهم العزم على أن لا يتركوا مجالاً لأي ظالم ، أن ينتهك حكماً من أحكام الشريعة ٱلمُحْيِيَه ، يبغي من وراء ذلك هدم تلك الشريعة . وبالتالي يرجعون الى ما كانوا عليه من حال الخوْف والإستضعاف
والمُسْتَضْعَف : من عدَّه الغير ضعيفاً بتحقير حاله .
وآواه : إذا أنزله منزلا . والمأوى : هو كل مكان يأوي اليه شيء ليلاً أو نهاراً

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

سبب نزول هذه الآية

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

الاول : أنها «نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الانصاري[1]. وذلك أن رسول الله (ص) حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله (ص) الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النظير ، على أن يسيروا الى اخوانهم الى اذرعات واريحات من أرض الشام ، فأبى ان يعطيهم رسول الله (ص) ذلك ، إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ . فقالوا ؛ أرسل إلينا ابا لبابة ، وكان مناصحا لهم ، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم . فبعثه رسول الله (ص) فأتاهم فقالوا : ما ترى يا أبا لبابة ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فاشار ابو لبابة بيده إلى حلقه : إنه الذبح فلا تفعلوا . وأتاه جبرائيل فاخبره بذلك . قال ابو لبابة : فو الله ما زالت قدماي عن مكانها حتى عرفت اني قد خنْتُ الله ورسوله ، فنزلت الاية فيه » .

(١) تفسير الميزان للطباطبائي ٩/٦٤

الثاني : ما أورده ابن جرير[1] من «أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرائيل النبي (ص) فقال : ان ابا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال النبي (ص) لأصحابه : ان ابا سفيان بمكان كذا فاخرجوا اليه واكتموا . فكتب رجل من المنافقين الى ابي سفيان : ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم . فأنزل الله عز وجل : لا تخونوا الله والرسول » الاية .

النداء الثالث : النهي عن خيانة الله والرسول .

ومهما يكن من سبب لنزول هذه الاية ، فقد تضمن النداء فيها نهيا جازما وحازما لجماعة المؤمنين ، عن ان يخونوا الله والرسول ، ويخونوا اماناتهم .

ما نفهمه من لفظ الامانات في الآية

والخيانة ، هي الامتناع عن اداء الحق الواجب الاداء .

والامانات ، جمع امانة ، وهي ما استنيب الانسان في حفظه .

والامين ، هو من يؤدي ما اؤتمن عليه ، بحفظه على اكمل وجه ، بحيث لا يتعدى عليه ، ولا يفرط فيه .

وهناك اشياء كثيرة ، اؤتمن الانسان عليها من قِبَلِ الله سبحانه .

اعظم الامانات

فهناك امانة من اعظم الامانات واقدسها ، تلك هي رسالة السماء الى الارض .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾[2]

وحفظه لأعظم الامانات هذه ، انما يكون ، باقامته لاحكامها في نفسه ، وفي اسرته ، وفي المجتمع ككل .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري /١٣/ ٤٨٠

(٢) الاحزاب /٧٢

واقامته للشريعة في نفسه ، يتحقق بان يجعل تصرفاته كلها ، منسجمة مع احكام هذه الشريعة . وان يطبع سلوكه بطابعها المميز. وان لا يتصرف تصرفاً يتنافى مع ما تدعو اليه.

ومما تدعو اليه ، هو تزكية الانسان نفسه ، بمنعها عن التورط فيما يؤدي بها الى التحلل والطغيان والانحراف :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنهَا ☆ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنهَا ☆ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ﴾ (١)

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ☆ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ☆ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (٢)

ومما تدعو اليه . ان يحفظ الانسان نفسه ، فلا يفعل ما يؤدي بها الى التهلكة

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ (٣)

وفي قبال ذلك ، دعت الشريعة الانسان الى ان لا يقهر نفسه ويذلها ، بل يمتّعها بما رزقه الله من الطيبات ، في حدود معقولة لا خطر فيها ولا ضرر .

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤)

وأما إقامته للشريعة في اسرته ، فإنما يتحقق بتطبيق احكامها المتعلقة بالاسرة عليها ، كأحكام الميراث والوصية ، والنفقات ، والزوجية ، كأنْ يؤدي كل من الزوجين ما للاخر عليه من حقوق . الى غير ذلك من الأحكام .

واما اقامته للشريعة في مجتمعه ، فهو ان يطبق الاحكام التي تضمن وقاية هذا المجتمع ، من التفسخ والدمار ، كقيامه بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتكافله وتكاتفه مع ابناء مجتمعه ، وتعاطفه معهم على البر والتقوى ، ومشاركته لهم عمليا ووجدانيا ، في كل ما يمكن ان يحقق السعادة والكرامة لكل فرد في الامة .

---

(١) الشمس /٧ ـ ٨ ـ ٩

(٢) النازعات / ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩

(٣) البقرة /١٩٥

(٤) الاعراف /٣١

العقل امانة

ولو اخذنا العقل الانساني ، لألفنياه امانة مهمة ، اودعها الله هذا الكائن ، وأمره ان يحكّمه في كل ما يعترضه من امور . وان يتدبر به ما يحيط به من مظاهر هذا الكون المترامي ، ويميط اللثام عن كثير من اسراره ، كل ذلك ليحقق الانسان التناسق بين النظام الكوني ونفسه .

هذا العقل ، ليس ملكا للانسان الفرد ، وانما هو ملك للبشرية ككل . ولذا حرّم المالك الحقيقي ـ سبحانه ـ على هذا الانسان ، ان يفسد هذا العقل ، او يزيله بسكر او بغير سكر . واوجب عليه ان يدفع عنه كل ما يمكن ان يلحق به الضرر او الوهن . فإن لم يفعل ، فقد خان الامانة ، وخان نفسه ، بما اوقعها فيه من حرمان ، وسخرية واستهزاء وخان الانسانية ، بماحرمهـا من ثمرات وانجازات محتملة لذلك العقل فيما لو حافظ عليه .

النفس امانة

وهنالك نفس الانسان ، بما اشتملت عليه من جوارح وجوانح ، فهي ليست ملكا له ، وانما لخالق هذا الانسان ، فهو امين عليها ، يتصرف فيها وفق ارادة مالكها الحقيقي .

الكون امانة

وهذا الكون بما فيه ، وبما يزخر من مخلوقات حية وغير حية ، وكنوز وخيرات ، حيث سخرّها سبحانه جميعها لخدمة هذا الانسان ، اكرم مخلوق واعزه ، فجعلها امانة في يده ، ونصبه خليفة عنه ليتصرف فيها .

ومقتضى كون كل هذا امانة عند الانسان ، ان يستغل كل طاقاته وخيراته المذخورة ، وأسراره المودعة فيه ، فيما يريده الذي استخلفه فقط ، وهو اعلاء الحياة الانسانية ، وانماء الحضارة البشرية واغناؤها ، وبالتالي ، الاخذ بيد هذا الكائن الى اعلى مراتب الكمال . فاذا استغل هذا الكون بكل ما فيه لغير صالح

الانسان والحضارة الانسانية ، فمعنى ذلك ، انه قد خان الامانة ، وخان الله الذي استودعه اياها ، وخان الرسول الذي بلَّغه وعَرَّفه ما ينبغي عليه القيام به لحفظها .

فالأمانة بهذا المفهوم الواسع الشامل للانسان والكون والحياة ، هي أمانة الله والرسول ، نُهِيَ الانسان نهياً قاطعاً عن خيانتها ، لما فيها من خيانة لهما ، بل للانسانية جمعاء وتأتي بعدها في المرتبة ، أمانة الانسان لدى الانسان الاخر .

ومن حافظ على الامانة العظمى ، واعطاها حقها من الحفظ والاداء ، فهو قمين بأن يحافظ على جميع الامانات الاخرى ، التي يؤتمن عليها من قبل بني الانسان ، سواء كانت نفساً ، او مالاً ، أو سراً ، أو عرضاً ، أو أي شيء اخر .

ولكن مع ذلك ، مع عظمة هذه الامانة ، وخطورتها ، وقداستها ، باعتبار انتسابها الى الله والرسول ، مع كل ذلك ، قد تشق الخيانة طريقها الى بعض ضعاف النفوس فَيَقْتَرِفونَها .

ولما كانت الأموال والأولاد مظنة هذا الضَّعف ، حذر الله سبحانه الانسان من ذلك ، حذره تحذيراً شديداً من ان تكون علاقته بالاولاد والاموال ، سببا يؤدي به الى خيانة الامانة التي اؤتمن عليها ، بأن يقترف الخيانة بدافع الطمع بالمال ، والجشع اليه . او بدافع البخل على ما كدسه منه عنده ، او يقترفها بتوهم انه بذلك يدفع الاذى عن ذريته واولاده . كما تقدم من فعل أبي لبابة في النص التاريخي الانف الذكر .

ويضرب الله سبحانه في كتابه الكريم مثلا لذلك قوم هود حيث آتاهم من الاموال والاولاد ما شاء وما شاؤوا ولكن غلبت عليهم شموتهم وتملكهم الغرور القاتل الذي اودى بهم وبكل ما اوتوا .

« فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم »[1] .

فماذا كانت النتيجة؟ .

«فكذبوه فأهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين»[2]

لما كان كل من الاولاد والاموال مظنة الضعف الذي قد يؤدي الى الخيانة فقد بيَّن الله سبحانه لهذا الانسان ، ان الاموال والاولاد فتنة .

---

(١) و (٢) سورة الشعراء /١٣١ ـ ١٣٥ / ١٣٩ .

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

والفتنة : هي الابتلاء والاختبار ، فالاموال والاولاد ، المحك الذي يكتشف به مدى تعلق الانسان بالأرض ، وتمرغه في عالم الضرورات . ويثبت من خلاله ، مدى قدرته على التحليق والسمو ، في عالم القيم الانسانية الحقة ، والمثل العليا ، لتحقيق الانسانية الكاملة في نفسه ، والانسانية العابدة ، وبالتالي يفوز برضوان الله ، وبما عنده من الاجر العظيم

« وان الله عنده اجر عظيم » .

* * *

النداء الرابع : التقوى واثرها في حياة المؤمنين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

عقّب الله سبحانه ، النداء السابق للمؤمنين المتضمن للنهي عن خيانة الله والرسول والامانات ، بنداء آخر تضمنته هذه الاية الكريمة ، بَيّن لهم فيه ، انهم اذا اتقوا الله ، بأن التزموا ما امرهم به ، وحافظوا على الامانة التي اودعها لديهم من ان يؤثر في نفوسهم الضعف البشري اتجاه الاموال ، والعصبية الضيقة اتجاه الاولاد ومن هم في منزلتهم ، فيخونونها ومنعوا أنفسهم عن الوقوع فيما منعهم عنه . ان هم فعلوا كل ذلك ، فسوف يشملهم بلطفه ورحمته ، وذلك من جهات ثلاث .

الجهة الاولى

هي : ان يجعل لهم فرقانا

والفرقان : من فرق يفرق ، كل ما فرق به بين امرين .

نعم ، سوف يجعل الله لهم فرقانا بين حياتين ، حياة تحكمها الجاهلية بكل إسفافها وحقارتها ، وحياة يحكمها الايمان بكل ما فيه من سمو ورفعة وتحليق .

حياة يعيش الانسان فيها ، وتعشعش داخله كومة من عبوديات ، وحياة يعيش

الانسان فيها متمتعا بالحرية الجوهرية النابعة من أعماقه ، والمنعكسة على كل من حوله .

وفرقانا بين مقياسين للانسان ، مقياس قوامه ما يملك ، ومقياس قوامه التقوى .

مقياس ينظر الى العنصر والنسب ، ومقياس لا يقيم وزنا لهما ولا حسابا .

وقد ذهب مجاهد[1]، إلى أن الفرقان هو المخرج في الدنيا والآخرة.

وقال السدي[2]: الفرقان هو النجاة.

وذهب الفراء[3] إلى أنه الفتح والنصر والعز.

الجهة الثانية

هي : تكفير السيئات

والتكفير معناه الستر ، والسيئات جمع سيئة ، وهي في اللغة الخطيئة . وقد قيل بأن المراد بها هنا الصغير من الذنوب ، وهو ما لم يتوعد الله سبحانه بالنار عليه . ومن الواضح ان ستر السيئات كما يكون في الدنيا ، بألا يكشفها الله امام الناس في هذه الحياة ، كذلك يكون في الآخرة ، حيث لا يفضحه بإظهارها امام الخلائق يوم يقف بين يديه .

الجهة الثالثة

غفران الذنوب

والذنوب ، جمع ذَنْب ، وجمع الجمع : ذنوبات . والذنب في اللغة : الجرم . وقد قيل بأن المقصود بها هنا الكبير من الذنوب ، وهو ما توعد الله سبحانه بالنار عليه .

وغَفَر غَفْراً وغُفْراناً ومغفرةً الذنب : عفا عنه .

هذه هي الجهات الثلاث ، التي تترتب على تقوى الله ، جعل الفرقان وتكفير

---

(١) و (٢) و (٣) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ١٠٧/٥

السيئات ، وغفران الذنوب ، وهي جهات لم تكن لتقتصر المصلحة المستبطنة فيها على الحياة الدنيا للانسان فقط ، او الحياة الاخرى له فقط ، وانما كانت شاملة لكلتا الحياتين ، تمشيا مع منطق الاسلام وتأكيدا لنظرته الى شقّي هذا الانسان ، المادي منه والروحي .

وفي هذا ما فيه ، من مدى سعة فضل الله على عباده ، واحسانه لهم ورأفته بهم . « والله ذو الفضل العظيم » .

* * *

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد هذه الجولة الروحية النافعة ، مع أوصاف المؤمنين ، وسلسلة النعم الطويلة التي ذكّرهم الله سبحانه ، بإغداقها عليهم ، نتيجة لما اختاره لهم ، من قتال العدو ، وتتويجها بالنصر المؤزّر الذي حازه المسلمون في بدر . ثم النداءات الالهية الكريمة المتضمنة لوصايا السماء وتوجيهاتها لجماعة المؤمنين .

بعد هذه الجولة الروحية المفيدة ، مع كل ما ذكر ، تنقلنا الآيات الكريمة في جولة جديدة ، لتطلعنا في الجانب الآخر ، على الصورة المعبرة ، عما كانت تنطوي عليه قلوب اعداء الله ، من خبث ومكر ، وحقد ، ولجاج في حرب الله ورسوله . واغراق في العناد للحق ، والحسد لأهله .

وكانت هذه الاية ، فاتحة الجولة الجديدة .

والمكر : هو الخديعة والاحتيال ، والمكر نظير الغدر . الا ان الغدر مأخوذ فيه ترك الوفاء بعهد قائم فعلا . والمكر قد يكون ابتداءً من دون سبق عهد عليه .

وفي هذه الآية ، يذكّر الله سبحانه ، نبيه (ص) بما كان من أمر المشركين ، عندما صدع بالحق . حيث اتبع هؤلاء كل الاساليب ، وسلكوا كل السبل ، ليقضوا على الدعوة المحمدية في مهدها .

وقد ادى بهم تفكيرهم ، الى ان أنجع وسيلة للقضاء عليها ، هي التخلص من حامل لواء تلك الدعوة ، محمد (ص) وهذا مما لم يكن باستطاعتهم تنفيذه في حياة عمه أبي طالب (رض) .

وقد ذكرت الآية الكريمة ثلاثة اتجاهات تدارسها المشركون في كيفية ذلك التخلص .

الاول : ان يجرحوه جراحة، لا يقوم معها ابدا. وهومعنى قوله تعالى «ليثبتوك» وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، بأن معناه: ليثبتوك في الوثاق او الحبس. والمعنى الاول للإثبات ـ في نظري ـ اوجه وانسب بحال المشركين، حيث كانوا يريدون القضاء على الدعوة، في شخص حاملها، فيأمنون جانبه إلى الأبد. ومن الواضح أنهم لا يأمنون مع حبسه (ص)، من أن يواصل دعوته من وراء جدران سجنه، وهو المؤيَّد من ربه، الأمين الصلب في اداء ما حمل من أمانة.

الثاني : الإخراج من مكة ، ولكن بشكل يكون موته محتوما ، كأن يخرجوه على بعير حتى يهلك ، او يكفيهموه بَعضُ الاعراب ، وهو ما اختاره ابو البختري ، وهشام ، والفراء[1].

الثالث : القتل .

سبب نزول هذه الآية

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أنه « تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم ، اذا اصبح فَأَثِبتوه بالوَثاق ، يريدون النبي (ص) . وقال بعضهم بل اقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه (ص) . فبات علي عليه السلام على فراش رسول الله (ص) . وخرج النبي . فلما اصبحوا ثاروا اليه . فلما رأوا عليا ، رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : اين صاحبك ؟ قال : لا ادري . فأخذوا يضربونه ليدلهم عليه فلم يبح لهم بشيء وقد حبسوه فترة ثم اطلقوه ليقتفوا اثر رسول الله (ص) فاقتصوا اثره الخ » .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »

مكر الله ، ما معناه ؟

ومن الملاحظ ، ان الآية أسندت المكر الى الله سبحانه ، كما أسندته الى

---

(١) التبيان للطوسي ١٠٩/٥

المشركين . مع انه سبحانه منزّه عن المكر بمعناه اللغوي المتقدم ، لِغِناه عنه ، وحاجة المشركين اليه . بل الذي يصدر عنه خصوص مجازاته لهم على ما مكروا ويمكرون .

وعليه ، فالمكر الذي اسند اليه سبحانه ، يراد ، به الجزاء على مكرهم ، كما أسند الاستهزاء إليه في قوله عزّ من قائل «أَللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»[1] وأريد منه مجازاته لبني اسرائيل ، على استهزائهم بالمؤمنين .

ومن هنا يكون معنى قوله تعالى : « ويمكر الله » اي يجازيهم الله على مكرهم ، بإحباط مؤامراتهم ، وافشال مخططاتهم ، ورد كيدهم في نحورهم ، وهو شديد في مجازاته هذه لهم ، وهو خير الماكرين .

كيف يكون الله خير الماكرين ؟

وقد قيل في كيفية ذلك عدة وجوه :

الاول : « ان يكون المراد اقوى الماكرين ، فوضع خير موضع أقوى ، لِيُنَبِّهَ بذلك على أن كل مكر يبطل في مقابلة فعل الله » .

الثاني : « ان يكون المراد من قوله خير الماكرين ، ليس هو التفضيل ، بل المراد انه في نفسه خير . كما يقال : الثريد خير من الله » .

الثالث : « ان يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيرا » .

الرأي المختار

وكأنَّ هؤلاء ، لما لم يتعقلوا ان يكون مكر المشركين خيرا في نفسه ، اذ كيف يمكن ان يكون ما يدبرونه في الخفاء ، من كيد لله ورسوله ، وتآمر على حامل لواء الامانة العظمى ، كيف يكون هذا كله خيرا ، حتى يكون مكر الله اكثر خيرا منه ، ظنا منهم بأن التفضيل انما كان بلحاظ المكر ، عندما لم يتعقّلوا ذلك ، ساقوا هذه الوجوه ، بما فيها من تمحّلات وتأويلات ، ونفي للتفضيل في الآية الكريمة .

---

(١) البقرة /١٥

ونحن لا نستسيغ شيئا من الوجوه المذكورة ، وذلك لأن التفضيل في الآية ، ليس بلحاظ المكر ، وانما هو بلحاظ الماكرين ، بمعنى المجازين على المكر .

ولا اشكال في ان المجازاة على المكر من قبل اي انسان صدرت ، تكون خيرا في نفسها ، ولكنها بحكم محدودية الانسان المجازي من حيث التفكير والزمان والمكان وجهله بكثير من الحقائق ، سوف تأتي ناقصة وغير مطابقة لمقتضى الحال . ومن هنا تتأتى المفاضلة بين مجازاة انسان لإنسان آخر على مكره ومجازاة خالق هذا الإنسان على ذلك المكر. فيصح أن يقال : بأن مجازاته سبحانه أكثر خيراً من تلك . إذ أن الخالق بلحاظ كونه عقلاً مطلقاً، لا يَحدُّه زمان ولا مكان . ولا يخفى عليه شيء . سوف تأتي مجازاته تامة شاملة، وحاوية لكل عناصر النجاح ومقاييس الفوز، بحيث لا يتصور معها الفشل بحال. وفي خيبتهم فيما دبَّروه، على ما بذلوا فيه من ذكاء، ودهاء، أكبر شاهد على مدى كمال تدبير الله، ودقة مجازاته.

* * *

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

تمهيـــد

لقد اطل الاسلام على جزيرة العرب ، في وقت كان أهلها ، قطيعاً تتحكم فيه فئة قليلة ، ممن جمعوا في أيديهم الجاه والمال ، والقوة ، فراحوا بهذه الامور الثلاثة يتصرفون في كل المقدرات والامكانات ، وما يتناسب مع مصالحهم الشخصية والقبلية .

كانت هناك الطبقة المتحكمة في قريش ، ممن ترى لنفسها الصدارة والزعامة على كل القبائل .

وكانت هنالك طبقة الأحبار والرهبان ، من اليهود والنصارى ، ممن احتكروا لأنفسهم حق فهم التوراة والانجيل ، وادَّعوا أحَقيتهم في التكلم باسم السماء .

لقد جمعت الطبقة الاولى في يدها زعامة الارض ، بينما قبضت الثانية على زمام زعامة الأرض والسماء .

وجاء الاسلام . . . .

وهو رسالة تحرير وتطوير ، وبعث للقوى المذخورة في الانسانية. تلك القوى ،

التي حاولت كلتا الطبقتين ان تستغلها لصالحها ، فعملتا على قهرها وتذويبها .

جاء الاسلام ....

فأشعر الناس انهم بشر لهم الحق في الحرية والنور . وانهم مغلولون مقيدون ، لهم الحق في الانعتاق من القيود والاغلال ، وافهمهم ان هؤلاء الذين يدَّعون لأنفسهم حق الزعامة والسيادة ، ما هم الا كبقية مخلوقات الله ، لا فضل لهم على غيرهم يكون لهم به مثل هذا الحق . وان المال أو الجاه ، أو العنصر أو الدم ، لا يمكن ان تكون مجتمعة أو منفردة ، مقياسا للتمايز والتفاضل ، وانما المقياس لذلك هو مقدار ما يؤديه الفرد للانسانية من خدمات . وان المقياس العملي العام لكل التصرفات انما هو تقوى الله ورضوانه .

كما أفهمهم أن لا واسطة بين الله وعباده، وان هؤلاء الاحبار والرهبان الذين يدّعون انهم أبناء الله واحباؤه والناطقون باسمه ، ما هم الا طُغْمة فاسدة ، يكذبون على الله . ويشترون بآياته ثمنا قليلا ، ويأكلون اموال الناس بالباطل والاثم والعدوان .

وبهذا الموقف ، كان الاسلام صيحةَ هدم للكيانات المبنية بجماجم البائسين وأشلائهم ، المجبولة بدموع المظلومين ودمائهم . الموشاة بالاكاذيب والاضاليل والخرافات التي كان ينسجها المتشدقون باسم السماء .

وقد شعر المنتفعون ، والمصلحيون ، بالخطر الماحق والزاحف ، المتمثل في الدعوة الجديدة ، في الاسلام .

ولذا كان من الطبيعي ان يتحرك هؤلاء تحركاً سريعاً وشرساً ، ليوقفوا هذا الزحف ، وليدرءوا هذا الخطر حفاظاً على مصالحهم من ان تضرب ومكاسبهم من ان تسلب ، وزعامتهم من ان تتلاشى .

وقد اتبعوا في سبيل تحقيق هدفهم هذا ، اسلوبين اثنين .

الاول : اسلوب الحرب الفكرية .

الثاني : اسلوب الحرب المادية .

الحرب الفكرية

وأعني بالحرب الفكرية ، تلك الحملات التشويهية والتشكيكية التي نظمها

الكفار ، والتي كان يقصد من ورائها ، احداث البلبلة الفكرية لدى الانسان العادي ، حيث تؤدي به الى تأرجح الصورة أمامه ، فتمنعه من الرؤية الواضحة ، وبالتالي من الاقتناع والاختيار .

ما استهدفته هذه الحرب

وقد استهدفت هذه الحملات التشويهية والتشكيكية ، ثلاثة امور خطيرة :

الاول : القيادة الاسلامية متمثلة في شخص النبي الاعظم (ص) .

الثاني : العقيدة .

الثالث : معجزة الاسلام الخالدة ، القرآن .

الحرب الفكرية واستهدافها لشخص النبي (ص)

اما بالنسبة لشخص النبي (ص) ، فقد حكى القرآن الكريم ضُروبَ النعوت والصفات ، التي كان المشركون يلصقونها به (ص) . ومختلف التُهم التي كانوا يرمونه بها . فقد اتهموه بالكذب والسحر :

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [1]

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [2]

﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [3]

ورموه بالجنون :

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [4]

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [5]

---

(١) ص /٤
(٢) يونس /٣
(٣) القمر /٢٦
(٤) الحجر /٧
(٥) الدخان /١٥

وحدة الاسلوب مع اختلاف الزمان والمكان

والعجيب أن يتشابه الاسلوب في كل زمان ومكان ، فيكون التكذيب ديدن جميع الأمم السابقة بالنسبة لانبيائها ، فقد اتبعه قوم نوح :

« كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » [1]
وقوم عاد : « كَذَّبَتْ عادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ » [2]
وقوم ثمود : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ » [3]
وقوط لوط : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ » [4]
واصحاب الايكة ، وهم قوم شعيب « كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ » [5]

والأعجب من هذا ، ان ينهجوا نفس النهج في تشويه شخص كل رسول قائد ، فيرمونه بالسحر والجنون :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ [6]
﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [7]
وفي موسى :
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [8]

الحرب الفكرية واستهدافها للعقيدة

اما فيما يتعلق بالعقيدة ، فقد انصبت عليها الحملات التشكيكية متمثلة في اصولها الكبرى : الوحدانية والنبوة والمعاد .

---

(١) الشعراء /١٠٥
(٢) الشعراء /١٢٣
(٣) الشعراء /١٤١
(٤) الشعراء /١٦٠
(٥) الشعراء /١٧٦
(٦) القمر /١٠
(٧) الأعراف /٦٧
(٨) غافر /٢٤ ـ ٢٥

فبالنسبة للنبوة مثلا نرى المشركين ، قد اتبعوا اسلوب التشكيك فيها :

أولاً : بإلقاء شبهة انه لماذا يرسل الله نبياً من البشر ، مع ان من الافضل ان يرسل ملكا من الملائكة وهو في مقدوره ؟

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١)

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٢)

ثانيا : ببث الشك حول دعوى النبوة من قبل النبي (ص) بالذات ، وذلك بأن الله لو اراد ان يرسل نبيا لاختار شخصا له من الجاه والمال والعظمة ، ما يكون معه أهلاً للزعامة والقيادة . وهذا ما ليس متوفرا في محمد بن عبد الله ، وهو اليتيم الفقير .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣)

ثالثا : بإلقاء طلباتهم التعجيزية على النبي (ص)مما لا ارتباط له بما يدعوهم إليه من قريب ولا من بعيد .

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٤)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ (٥)

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ (٦)

---

(١) الاسراء /٩٥
(٢) المؤمنون /٢٥
(٣) الزخرف /٣٢
(٤) الحجر /٨
(٥) البقرة /١١٩
(٦) الاسراء /٩١ـ ٩٤

التوحيد وحملات التشكيك

واما بالنسبة للتوحيد ، فقد عمل المشركون للتشكيك فيها على خطين :

الاول : استغلال عاطفة التعلق بتراث الآباء والأجداد ، ليثيروا الناس ضد عقيدة التوحيد :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾[1]

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾[2]

الثاني : استغلال سذاجة بعض الناس بتصويرهم لهم ان آلهة متعددة يعبدونها خير لهم من آله واحد ، مع اثارة شكوكهم بأسلوب اشفاقي حول امكان جمع هذه الآلهة الكثيرة في واحد :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[3]

الحرب الفكرية واستهدافها للقرآن

واما القرآن ، فقد تعرض لأعنف حملة تشكيكية من قبل المشركين ، وقد اتخذت تلك الحملة صورا متعددة .

فمرة يقولون بأنه من وضع محمد وتأليفه ، وليس للسماء به ادنى ارتباط .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[4]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[5]

واخرى يقولون بأن محمدا قد تعلّمه من الأحبار والرهبان :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[6]

---

(١) سباء /٤٤
(٢) الانبياء /٣٧
(٣) ص /٦
(٤) السجده /٤
(٥) الطور /٣٤
(٦) النحل /١٠٤

عود الى اجواء الآية

وهنالك اسلوب آخر اتبعه المشركون للتشكيك في القرآن واعجازه وهو ما تحدثنا عنه الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فادعاؤهم القدرة على مجاراة القرآن ، والإتيان بمثله ، اسلوب يقصد منه الحط من قيمته كمعجزة ، لا يستطيع احد من البشر أن يجاريه ، ويضفي عليه صبغة بشرية ، تنزع عنه صفة القداسة .

ومن هنا جاء الوحي قاطعاً في تحدي هؤلاء المشركين أن يثبتوا مدعاهم في الإتيان ، لا بقرآن آخر، بل بعشر سور مثله .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ (١)

بل شدد القرآن في تحديه لهؤلاء ، في اثبات ما يدّعونه، وذلك بالاتيان بسورة واحدة مثله فقط

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (٢)

وبهذا التحدي ، انكشف كذب ما ادعوه ، اذ لم يأتوا بما يضارع هذا القرآن ، بل لم يأتوا الا بما هو سخيف مضحك ، ولذا لن يكون ذا جدوى ، ان يتشدقوا بعد ذلك « لو نشاء لقلنا مثل هذا » .

بل لن يكون ذا جدوى ان يرددوا مزاعمهم « ان هذا الا اساطير الاولين » .

والاساطير : جمع اسطورة وهي الباطل .

وقيل « الأساطير » جمع أسْطُر ، وأسْطُر جمع سَطْر ، فتكون على هذا جمع جمع لسطر، وزيدت الياء لِلمدّ .

---

(١) هود / ١٤

(٢) يونس / ٣٩

ولم يقتصر التشكيك بالقرآن على المشركين في الصدر الاول للاسلام ، بل تعداهم الى كل حاقد ، ولذا كان المستشرقون ولا يزالون ، يحاولون النيل من هذا القرآن ، متوخين من وراء ذلك نفس ما توخاه المشركون من وراء حملاتهم التشكيكية آنذاك ، الا وهو زلزلة عقيدة المسلمين بقرآنهم ، وبالتالي بالاسلام ككل .

اذ ان القرآن هو القاعدة التي يرتكز عليها الاسلام في تشريعاته واصوله واحكامه .

فهذا جولد تسيهر[1] ، وهو من المستشرقين الحاقدين على الاسلام ، نراه يقول في سياق كلامه عن القرآن : **« ومن العسير ان نستخلص من القرآن نفسه مذهبا عقيديا موحدا متجانسا وخاليا من التناقضات » ويقول « كان وحي محمد حق في حياته معرضا لحكم النقاد ، الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادي في تعاليمه موقع ملاحظات اخرى »** .

وما على المسلمين، الا ان يحذروا من هذه الاساليب، التي سن المشركون من قريش وغيرها، في بدء الدعوة الشريفة قواعدها، ثم اتبعها كل الحاقدين على الاسلام من مستشرقين وغيرهم بهدف النيل منه. وما على المسلمين الا ان يصمدوا في وجه هذه الحملات التشكيكية، كما صمد النبي (ص) والعصبة المؤمنة في وجهها حتى كتب لها الموت والفناء.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) في كتابه المعرّب العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٧٨ ـ ٧٩.

عندما يطغى الحقد على انسان، يعميه عن ابسط قواعد السلوك، التي يكون فيها خيره وصالحه، ويفقده السيطرة على اعصابه، فتراه مخلوقا مهتز الشخصية، لايعقل ما يصدر عنه من قول او فعل.

والمشركون بعد ان ادعوا دعواهم، التي رموا من ورائها الى تحطيم الاسلام بالتشكيك بدستوره ومعجزة نبيه، القرآن، لم يتحقق شيء مما رموا اليه، بسبب التحدي القاطع والحازم، بأن يقيموا الحجة على صحة دعواهم تلك، وعجزهم وخذلانهم ازاء هذا التحدي. كل ذلك ادى بهم الى حالة من الاضطراب العصبي، والارتباك الفكري، حملتهم على التفوه بما لايصدر عن انسان ممتلك لوعيه وإدراكه، بأن طلبوا لأنفسهم العذاب.

« واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم » .

فهل يتصور ان يرضى انسان عاقل ، يفكر ويدرك ويعي ، لنفسه العذاب ؟ وأي عذاب ؟

« فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »

فمجرد تصور ان يكون النازل من السماء بدل هذا الماء المعهود حجارة ، يوضح شدة ذلك العذاب المستنزل وقسوته .

أمطرت ومطرت والفرق بينهما

والفرق بين التعبير بأمطرت السماء ومطرت ، ان التعبير بالاول ، لا يكون إلا للدلالة على ان النازل عذاب ، بينما التعبير بالثاني لا يكون الا للدلالة على ان النازل رحمة .

إستيضاح وتوضيح

قد يقول قائل : لما كانت مظنة نزول المطر منحصرة بالسماء ، فان ذكر السماء في قوله تعالى **« فأمطر علينا حجارة من السماء »** يبدو لَغْوِياً وبلا فائدة .

والحقيقة ، ان هذا الكلام ، وهو انحصار مظنة نزول المطر بالسماء انما يكون بالنسبة للمطر المطلق ، في حين ان المطر هنا مطر مضاف لا مطلق ، اذ هو مطر الحجارة ، ولما امكن ان يكون مطر الحجارة هذا من امكنة متعددة : كسطوح المنازل ، ورؤوس الجبال ، وغير ذلك من الاماكن العالية ، اتضحت الفائدة من ذكر السماء في الآية الكريمة ، « لان الحجارة اذا نزلت من السماء كانت اشد نكاية واكثر ضرراً».

وقد قيل ، بأن فائدة ذلك هي « أنه لما كانت الحجارة المسوّمة للعذاب وهي السِّجّيل ، معهودة النزول من السماء ، ذكر السماء اشارة الى ارادة المعهود من الحجارة ، كأنه قال : فأمطر علينا حجارة من سجّيل، فوضع قوله من السماء ، موضع قوله « من سجّيل».

هذا هو التفسير الأول لاستنزال المشركين العذاب على انفسهم .

التفسير الثاني : ان يكون ذلك منهم . اسلوبا من اساليب التضليل ، فهم يعرفون ، ان كلمة الله قد سبقت بألاّ يعذبهم بعذاب من سبقهم من الامم ، كالجراد والدم والقمل ، والصاعقة ، والخسف ، والطوفان ، واسقاط الكسف من السماء ، وذلك تعظيما لخاتم الانبياء ، وتكريما ، بعد ان بعثه الله رحمة للبشرية ، فلا يمكن ان يكون سببا بوجوده للانتقام والتعذيب .

وحين يطلبون انزال العذاب بهم ، معلقين ذلك على شرط ان يكون ما يدعو اليه محمد هو الحق .

« ان كان هذا هو الحق من عندك » .

ثم لا يقع ما يطلبون ، فسوف لا يكون ذلك ، في اعتقاد السذج والبسطاء ، الا لعدم تحقق الشرط ، وهو احقية القرآن والدعوة الاسلامية ككل . فيدخلون الشك بذلك الى النفوس والعقول .

ولكن الله سبحانه ، كشف زيف ما تمخضت عنه مقدماتهم الفاسدة التي رتبوها ، واحبط مما هدفوا اليه من تشكيك الناس ، وتشويه الدعوة ، فبيّن ان الله وان لم ينزل بهم ما طلبوه من العذاب ، ولكن لا لأحقيتهم هم ، وبطلان ما ادعى محمد (ص) . ولا لأنهم يستحقون بقاءاً وعطفاً . بل بسبب وجود محمد (ص) بينهم رحمة :

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ »

ومعنى « وانت فيهم » وانت حي فيهم .

وقيل ، بأن معنى ذلك ، نفي العذاب عنهم ما دام النبي (ص) بين ظهرانيهم في مكة ، وعليه فيكون قوله تعالى : «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» إشارة إلى نفي العذاب عنهم ، بعد خروجه من بينهم الى المدينة ، بسبب دخول بعضهم في الاسلام ، واستغفارهم لما بدر منهم من كيد للنبي والمسلمين .

وقيل ، - كما في الدر المنثور - بانهم لما استنزلوا الله العذاب على انفسهم ان كان ما يدعو اليه محمد الحق ، رجعوا فندموا على ذلك ، فقال بعضهم : غفرانك اللهم ، فانزل الله سبحانه

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

وقيل، بأن في قوله تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » استدعاءاً الى الاستغفار . اي انهم لو استغفروا لم يعذبوا . وهو قول قتادة ومجاهد[1]

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾

بعد ان اخبر الله سبحانه . عن حال المشركين ، واستنزالهم العذاب الاليم منه عليهم . وبعد ان اخبر سبحانه انهم لن يجابوا الى ما طلبوا . ثم بيّن السبب في عدم اجابته لهم ، وهو وجود النبي (ص) بينهم رحمة ، والاستغفار الصادر عن بعضهم لما بدر منهم من كفر وعناد .

بعد هذا كله ، جاءت هذه الاية ، لتؤكد لهم . ان عدم انزال ما طلبوه من عذاب بهم ، لا لأنهم اهل للشفقة ، اومستحقون للرحمة والعطف ، بل بالعكس ، فيهم كل مقتضيات استحقاق العذاب والعقاب .

اذ كفى مقتضيا لتعذيبهم صدهم عن المسجد الحرام . وتعذيبهم من تمكن من دخول مكة ، اذا لم يكن له فيها من يحميه ويمنعه .

ومنعهم هذا ليس له من وجه حق ، الا ما تصوره لهم عقولهم ، من انهم اولياء البيت واصحابه ، يمنعون من يشاؤون عنه ، ويدعون من يشاؤون .

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي جـ ١١٣/٥

﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾

وكيف يكونون اولياء بيت الله ، وهم يتلبسون بأعظم انواع الظلم على الاطلاق ، وهو الشرك بالله ، ومحاربة رسوله والمؤمنين ؟

كيف يؤتمنون على بيت الله ، مع انهم بشركهم ، خانوا اعظم امانات الله سبحانه ، وهي توحيده وعبادته ؟

فليس لهم من حق في ولاية البيت الحرام . بل الحق في توليه ، منحصر في المتقين لله ، الذين يؤمنون به ، ويعبدونه ، ويقيمون حدوده ، ويعظمون شعائره .

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

كيف يكونون ولاة بيت الله الحرام ، وهم لم يقيموا له حرمة ، لا بصدّهم المؤمنين عنه فقط ، بل بطوافهم به عراة الاجسام ، نساءا ورجالا ، على اصوات هي خليط من المكاء والتصدية ؟ والمكاء : الصفير ، يقال : مكا يمكو مكاءاً ، اذا صفّر بفيه .

والتَّصْدِية : التصفيق . يقال : صدى يصدىَ تصدية ، اذا صفَّق بيديه .

سبب نزول هذه الآية

وقد روي عن ابن عباس[1] ، في سبب نزول هذه الآية « **ان رسول الله (ص) كان اذا قام الى الصلاة وهو بمكة ، كان يصلي قائما بين الحجر والركن اليماني ، فيجيء رجلان من بني سهم ، يقوم احدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، ويصيح احدهما كما تصيح المكاء ، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ، ليفسدا عليه صلاته** » . . .

وذهب سعيد بن جبير ، الى ان التصدية هنا ، الصد عن البيت الحرام .

وقد اطلق لفظ الصلاة على فعلهم هذا من تصفير وتصفيق ، لأنهم كانوا يعتبرون فعلهم هذا صلاة لهم ودعاءاً . ولذا أخبر الله سبحانه ، ان صلاة المشركين عند بيته

---

(١) يراجع الدر المنثور عند تعرضه لتفسير هذه الآية .

الحرام ، لم تكن الا لهوا ولعبا ، وتصفيرا وتصفيقا ، ومن كان هذا حاله مع الله وبيته الحرام ، فهو مستحق للعذاب والعقاب .

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لقد تقدم منا القول ، بان المشركين عندما أحسّوا بالخطر الذي يهدد مراكزهم ، ومصالحهم ، متمثلا في رسالة الاسلام . تحركوا بكل شراستهم وقوتهم ليصدوا هذا الخطر ، فشنوا حربا على هذا الدين ، وهذه الرسالة .

وقلنا ، بأن حربهم تلك ، اتخذت اسلوبين اثنين . اسلوب الحرب الفكرية . واسلوب الحرب المادية .

وقد تحدثنا عن اول الاسلوبين ، حسب ما استوحيناه من الآيات الكريمة المتقدمة .

الحرب المادية وسبب نزول هاتين الآيتين

وقد جاءت هاتان الآيتان ، لتحدثانا عن ثاني الأسلوبين ، وهو الحرب المادية التي شنها المشركون ، وكل النفعيين على الاسلام .

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية وما بعدها[1] ، انه لما اصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فَلُّهُم الى مكة ، ورجع ابو سفيان بِعِيرِه ، مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة ابن ابي جهل وصفوان بن امية ، في رجال من قريش الى من كان معه تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، ان محمدا قد وَتَرَكُم ، وقتل خياركم ، فاعينونا بهذا المال على

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣/٦٤

حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرا . ففعلوا ففيهم - كما ذكر ابن عباس - انزل الله : إن الذين كفروا ينفقون اموالهم الخ .

وقد اخبرت الآية الكريمة ، ان الذين كفروا ، بدل ان ينفقوا اموالهم ، التي رزقهم الله فيما يرضيه ، تأدية لحق شكره - تراهم ينفقونها ليمنعوا الناس عن سبيله الذي اختطه للبشرية ، لتصل بسلوكه الى سعادتها وكرامتها ، وهو الاسلام .

ولكنهم سوف ينفقونها - كما حدث في غزوة أحُد ، حيث استأجر أبو سفيان وحده ألفين من الاحابيش من كنانة[1] ، ليقاتلوا المسلمين - ثم لن يحصلوا على ما أمّلوا ، لأن الدائرة سوف تدور عليهم ، وسوف يُغلبون . وبهذا يكون انفاقهم لأموالهم في هذا السبيل حسرة عليهم .

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾

والحسرة : التلهف الشديد على الشيء الفائت .

نعم ، سوف تكون اموالهم تلك التي انفقوها في سبيل محاربة الله ورسوله والمؤمنين عليهم حسرة ، يتلهفون على فواتها ، وتكون سببا لتنغيص حياتهم الدنيا . مع ما سوف يلاقونه فيها ، من ذل وهوان ، بسبب هزيمتهم ، زيادة على خسرانهم لأموالهم .

﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

ولن يقتصر الأمر على هذا العذاب الدنيوي ، الذي هو الحسرة والهزيمة . بل سوف يكون لهم في الآخرة ما هو أشد وأنكى من العذاب الدائم ، في نار جهنم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

والحشر : الجمع . ومنه (يوم الحشر) أي يوم القيامة ، وقد عبّر عنه في القرآن الكريم ، بيوم الجمع[2] .

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي /٥/١١٨

(٢) التغابن / ١٠

كل هذا الذي ذكر ، من انفاق الذين كفروا اموالهم في سبيل الطاغوت ، والصّد عن دين الله ، وحرب اوليائه ، وما سوف يكوّن عليه حالهم من حسرة وخزي وهزيمة في الدنيا . وجمع الى العذاب الاليم الدائم بنار جهنم في الاخرة . كل ذلك ، ليميز الله الخبيث من الطيب . والخبيث هو الرديء ، والمقصود به هنا الكافر . والطيّب، هو الجيد ، والمقصود به هنا المؤمن .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

وليس الغرض من فعل الله سبحانه كل ذلك بالكافرين ، هو انه يجهل من هو المؤمن ومن هو الكافر ، فيريد ان يرفع جهله بهذه الامور ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . فهو العليم بكل شيء . المحيط بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وانما الغرض من ذلك في نظري ، هو ان يجعل مائزاً بين جزاء الكافرين ، وهو الحسرة ، والهزيمة ، والحشر الى جهنم ، الى غير ذلك من مخيف الامور ، التي توجب عند تصورها من قبل الانسان ، تجنيب نفسه لها وذلك بتجنب السبيل الذي ادى اليها وهو سبيل الكفر . وبين جزاء المؤمنين ، وهو السرور والنصر ، وادخالهم الجنة ، الى غير ذلك من الامور ، التي توجب عند تصورها من قبل الانسان ، رغبة اكيدة ، وميلا شديدا لسلوك السبيل الذي يؤدي اليها وهو سبيل الايمان ، وبهذا يتميز خط الايمان عن خط الكفر . مع ما يترتب على هذا التميز من وضوح في الرؤية امام ذلك الانسان الذي يريد ان يسلك ابتداءاً احد السبيلين .

وبهذا ، لن يسلك سبيل الخبيث ، بحكم انجذاب الشيء الى شبيهه ، الا من فسدت سريرته وخبثت طينته .

﴿ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

ثم بعد عملية الجمع بين الخبثاء ، بحكم انجذاب الشيء الى شبيهه ـ كما ذكرنا ـ يركم الله سبحانه هذا الجمع ، بأن يلقي بعضه فوق بعض في نار جهنم .

﴿ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّم ﴾

ومعنى رَكَمَهُ : إذا جمعه ثم ألقى بعضه فوق بعض .

﴿ وَأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾

وأي خسران أعظم من هذا الخسران ؟

خسران الأموال ، وخسران الأنفس .

خسران الدنيا ، وخسران الآخرة . . . !؟

* * *

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

عرض وتمهيد :

خلق الله سبحانه هذا الانسان ، واراده خليفة له على الارض وزوده بكل الامكانات والقدرات ، التي تعينه على تحقيق الغرض الذي اوجد من اجل تحقيقه . وقد بلغ من لطفه به انه جعله دائما تحت رعاية السماء ، توجهه ، وتسدد خطاه ، وتأخذ بيده نحو ما فيه خيره وسعادته .

ومن هنا ، تتابع موكب الانبياء والرسل ، كل نبي أو رسول ، كان يواصل المهمة العظمى ، من حيث انتهى من سبقه .

ونحن ، اذا راجعنا تاريخ الانبياء والنبوات، كما قصها علينا القرآن العظيم ، نجد هنالك قاسما مشتركا بينها في الاسلوب .

إذ ان الدعوة عند كل نبي ، كانت تمر بمرحلتين اثنتين :

١ ـ مرحلة الدعوة باللسان والبيان .

٢ ـ مرحلة المعاملة بالمثل ، ومواجهة التحدي بالتحدي .

جولة مع التأريخ

ونحن لو استقرينا أبرز المواقف التي وقفها أبرز الانبياء امام طغاة اقوامهم

وجبابرتها ، سوف لن نجد ولو واحدا منهم فقط ، ابتدأ دعوته بالمجابهة والتحدي ، بل كانوا جميعا لا يتحولون الى هذه المرحلة ، الا بعد ان يؤدوا المرحلة الاولى كاملة ، وييأسوا من جدوى الاستمرار فيها ، ازاء اصرار الكافرين على كفرهم وحربهم لرسالة الله الى البشرية .

نستطيع ان نستعرض معا ، نموذجا من النماذج التي اوردها القرآن ، لنؤيد ما ذهبنا اليه .

فبالنسبة الى موسى (ع) ، عندما ارسل الى فرعون ليدعوه الى الله ، وينقذ بني اسرائيل من عبوديته وبطشه . ويعيد اليهم كراماتهم وحرياتهم هذا موسى . بكل شجاعته ورباطة جأشه يقف بين يدي فرعون ، بكل طيشه ، ونزقه ، وجبروته ، لتبدأ محاورة هادئة بينهما ، يثبتها لنا القرآن .

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (١)

هكذا رد موسى (ع) على اسئلة فرعون بكل هدوء ووضوح ، مؤديا واجبه كنبي مرسل الى قوم . وغرضه الاول والاخير ، هو ارجاعهم الى ما ينبغي ان يكونوا عليه كبشر . وينقذهم من الهوة التي تردوا فيها ، والتي لا تتناسب مع انسانيتهم ابدا . وهدايتهم الى صراط الحق والخير .

وبهذا تنتهي المرحلة الاولى ، من مرحلتي دعوته . مرحلة الدعوة بالبيان واللسان .

ولكن بعد أن اربكت اجوبة موسى الواضحة والهادئة ، والمتمشية مع فطرة الانسان ، والمقنعة لعقله وفكره ، بعد ان اربكت فرعون ، واحرجته امام عِلْيَةِ القوم من ملئه ، جعلته ـ ككل عاجز تعييه الحيلة والوسيلة ـ يرجع الى غطرسته

---

(١) طه /٤٩ ـ ٥٥

وطيشه ونزقه ، فينتقل الى مرحلة مهاجمة موسى ، والتشكيك في اقواله ودعواه . مرحلة التحدي . فاتهم موسى بالسحر ، وتحداه في ان يجعل بينه وبينه موعدا .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ (١)

وقد اكتشف موسى (ع) ، بانتقال فرعون فجأة من مرحلة الأستجواب الهادىء المعقول ، الى مرحلة التحدي السافر والتشكيك الرخيص ، اكتشف ان هذا الطاغية لم ولن يفيد معه بعد ذلك بيان ولا لسان . وما دام قد أرادها معركة مجابهة على رؤوس الاشهاد ، قبل التحدي ، وقابله بتحد مثله .

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ (٢)

وبهذا ابتدأت المرحلة الثانية من مرحلتي دعوة موسى (ع) .

وهكذا ، كان موقف ابراهيم (ع) ، في دعوته لقومه ، حيث ابتدأهم بمرحلة البيان وباللسان ثم انتقل بعدها الى المرحلة الثانية ، مرحلة التحدي الصلب والمهاجمة المكشوفة ، فحطم الأصنام .

ومحمد (ص) لم يكن بدعاً من الانبياء ، كما ان رسالته لم تكن بدعاً من الرسالات ، فكان لا بد وان يتبع في دعوة قومه الى ما ارسل به ، نفس المرحلتين اللتين اتبعهما من سبقه من رسل ، مرحلة البيان باللسان ، ومرحلة مقابلة التحدي بالتحدي .

عود على بدء

وقد جاءت هاتان الآيتـان الكريمتان ، لتصورا هاتين المرحلتين بوضوح . فيأمر الله سبحانه في الآية الاولى نبيه (ص) ان يدعو الكافرين الى الانتهاء عن كيد المؤمنين ، وحرب الاسلام ماديا ومعنويا . وان يرجعوا الى الله مولاهم الحق .

سبحانك اللهم ما اعظمك ، وارحمك بعبادك .

هذه الشرذمة التي كادت هذا الكيد ، وصدت عن سماع كلمة الحق هذا

---

(١) طه/ ٥٦ ـ ٥٨

(٢) طه / ٥٩

الصدود ، واغمضت عيونها عن اشراقة النور ، وحاربت رسالة السماء هذه الحرب الشرسة ، بدافع من حقدها وجهلها .

هذه ، بعد كل جرائمها ، امر الله سبحانه رسوله ، ان يدعوها الى سلوك صراط الله ، ومراجعة حساباتها . فتدرك ان لا طاقة لها بحرب الله ورسوله والمؤمنين . فترجع عما هي عليه من غيٍّ ، والله عند ذلك يغفر لها ما قد سلف . فما يفعل الله بعذابها ان هي آمنت واتقت .

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾

والا ، اذا استمرت هذه الشرذمة في حربها لله ورسوله ولدعوته ، واصرت على عنادها . وتمادت في غيها ، فلتحذر سنة الله في الامم الاولى التي سبقتها ، حيث كان العذاب الاليم ، والدمار الكامل ، والاستئصال في الدنيا ، والخزي في جهنم يوم القيامة .

﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

والسنة : السيرة والطريقة .

بعد ان يأمر الله سبحانه نبيه ان يدعو هؤلاء المشركين ، الى تغيير مواقفهم العدائية من رسالته ورسوله، مرغّباً لهم بمغفرة ، ورضوان وتجاوز . ومخوِّفاً من عذاب اليم اصاب من سبقهم من امم . بعد هذا تنتهي مرحلة البيان باللسان . وحيث لم يستجيبوا لهذه الدعوة الكريمة ، التي تهدف الى خيرهم ، وخير الانسانية . تأتي الآية الاخرى ، لتنقل المسلمين الى الموقف الثاني ، الى المرحلة الثانية ، الى مجابهة هؤلاء الكافرين وقتالهم .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾

ولكن ، ما هي اهداف هذا القتال؟ .

﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾

اهداف القتال في الاسلام

وهنا ، لا بد وان نقف بإيجاز ، على فلسفة الاسلام في الحرب ، لنرى هل هي

بالنسبة اليه وسيلة ، أو غاية . حيث يذهب بعض الحاقدين على هذا الدين من مستشرقين وغير مستشرقين ، الى اتهام الاسلام بأنه قام على القهر والغلبة ، وانتشر بواسطة السيف . وان غزوات المسلمين لم يكن الغرض منها الا السلب والنهب والاستيلاء .

ولكي ندرك عمق نظرة الاسلام الى الحرب ، لا بد لنا من فهم طبيعة هذا الدين ، وابعاده .

لقد كان الانسان، عندما أطل الاسلام على دنيانا هذه، يرسف في عبوديات كثيرة، غلته عن السمو، وخنقت في روحه امكانات الابداع.

والاسلام ، وهو خاتمة رسالات السماء الى الارض ، جاء ليحرر هذا الانسان من عبودياته تلك ، وليرتفع به عن مهابط الحيوان ، التي مرغت وجهه بالطين ولفت روحه بسجف الذل والجهل والهوان .

ولذا كان الاسلام المخلص والمنقذ ، لا لفئة معينة من الناس او لفترة محدودة من الزمان . وانما كان دعوة موجهة الى البشرية ، لا يحده زمان ولا عصر ولا مكان .

واذا كان هدف الاسلام تخليص البشرية مما تعانيه من شقاء ، كان له الحق كل الحق ، في ان يمارس نشاطه وتحركه ، في سبيل تحقيق الهدف الذي انزله الله سبحانه من اجل تحقيقه . على امتداد رقعة الارض ، وبصورة تستوعب كل بني الانسان .

ولكن ، هنالك ، في كل زمان ومكان ، من تعميه مصلحياته ، وأنانياته عن الاذعان للحق ، ويمنعه خبثه وجهله من الاستماع الى رنة صوته ، او احتمال اشراقة نوره ، ولذا ، يهب ليدفع ما يراه مهددا لمصالحه تلك . وليحطم ذلك الوتر ، الذي عزف له لحنا يتنافى مع ما الفته اذناه من لحن ، يستجيش فيه دائما رائحة الطين وغرائز الحيوان ، وليطفىء ذلك النور ، الذي اضاء ما حوله ، فكشف له عن مستنقعات آسنة يعيش فيها حشرة تغتذي العفن ، ولا تألف الا الظلام .

وقد حاول الاسلام ان يمد لهذا المخلوق جسر الخلاص ، ويرفعه من الوهدة التي تردّى فيها ، الى ذرى سامقة ، تليق به كانسان . ويمزق عن عينيه الحجب التي لفّته ، فغلّفت معها عقله وروحه .

نعم ، كان الاسلام كفيلا ، بأن يفعل كل ذلك لهذا الانسان ، لولا ان حالت بينه وبينه هذه الفئة من الاصنام التي حدست بما سيكون عليه حالها ان تركت للمارد ان ينطلق من عقال ، عقال تسلطها وجبروتها بما تملك من جاه ومال وسلطان .

فهل يتخلى الاسلام يا ترى . عن دوره الذي خلق من اجله ، وهو تخليص الانسان ، فيترك الاصنام ؟ والجواب ، ان لا تخلي ولا استخذاء . ولذا حينما شعر رسول الانسانية ، ان هذه الطواغيت ، تقف بين الناس وبين اشراقة النور . وانه لم ولن ينفع معها اسلوب الحكمة والموعظة والبيان . لم يجد بداً من ان يحطم الأصنام، ويدمر الطواغيت ، ليحيا الانسان بإرجاع حريته وكرامته اليه ، وارجاعه الى مركزه القيادي الذي اراد الله له ان يكون فيه ، وبذلك يتحقق الهدف الذي اطل على الدنيا من اجل تحقيقه .

ومن هنا أُذن للمؤمنين بالقتال . فكانت الحرب ، وكان القتال .

وبهذا يتبين ، ان الحرب في الاسلام لم تكن غاية في حد ذاتها ، وانما كانت وسيلة لا محيص عنها ، لغاية سامية نبيلة .

والآية الكريمة ، تشير الى هذا المعنى ، حيث تعلل الامر بقتال المشركين بشيئين اثنين .

﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾

اجل ، ان الدعوة الى الاسلام ، سوف توحد القلوب ، وتجمع الطاقات لتوجهها نحو هدف واحد ، هو رضوان الله سبحانه . وتنقذ العقول والنفوس من التمزق بين ارباب متعددين .

واذا ما تركت هذه الاصنام ، لتحول بين الناس وبين اعتناق الاسلام ، فسوف يستمر الشرك، وتتعدد النحل، وتتنوع تبعاً لذلك الميول والاتجاهات، والاعتقادات ، فيحدث الصراع ، وتحدث الفتن .

ولذا جاء الأمر جازما ، قاطعا ، ليوفر على البشرية مزيدا من العذاب والشقاء .

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ .

وبعد ذلك ، اذا انتجت الوسيلة ما رسم لها من غاية ، وهي رجوع الطغاة عن كيدهم ، واقلعوا عن صد الناس عن مشرق النور ومنبع الهدى . وانتهوا عن ذلك كله ، فلا حرب . ولكنهم مع ذلك تحت رقابة الله ، وبصره ، لا تخفى عليه مما يعملون خافية .

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

واما اذا لم ينتهوا عما بدأوا به ، ولم يرتدعوا ، فما عليكم ايها المؤمنون ، الا ان تلجّوا في قتالهم . ولا تهنوا ، واعلموا ان النصر سوف يكون لكم عليهم . والخزي والهزيمة سوف تكونان من نصيبهم . وكيف لا تكون هذه هي النتيجة والله مولاكم ، والطاغوت مولاهم . ونعم المولى والنصير مولاكم ونصيركم ، وبئس المولى والنصير مولاهم ونصيرهم .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

* * *

﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾

تُسَمىً هذه الآية بآية الخمس . في سورة الأنفال .

حكم إلهي وحكمة بالغة

بعد أن بيّن الله سبحانه ، حكم الغنائم في مطلع هذه السورة المباركة بصورة إجمالية ، وأنها لله والرسول .

وبعد هذه الجولة الروحية الطويلة ، من تذكير المسلمين بنِعَم الله المتابعة عليهم . وبيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من خصال . وتذكير المسلمين أيضاً ، بكيد الكافرين لهم ، وأساليبهم في هذا الكيد . وكيف انه تعالى لم يتركهم وحدهم في ميدان الصراع مع المشركين .

بعد هذه الجولة الطويلة ، في عالم التوجيه الروحي ، والتي كانت الحكمة البالغة منها ، الرجوع بالنفوس المؤمنة التي ضَعُفَت أمام إغراء الغنائم ، وبريق الذهب . وإعادتها الى جادة الحق والإيمان . وإزالة ما يكون قد أحدثه الحكم بانتزاع ملكية الأنفال من أيدي المؤمنين ، وجعلها له سبحانه ولرسوله، من نفور واضطراب نفسيين .

بعد هذا كله ، جاءت الآية المباركة لتبيّن بالتفصيل ، مصارف هذه الغنائم ، فقسمتها الى خمسة أقسام . جعلت أربعةً منها للمسلمين ، فكان ذلك موجباً

لتأثرهم . وندمهم على ما استشعروه من غمط للحقوق ، عندما انتُزعت الغنائم منهم باديء ذي بدء . وادركوا الحكمة السامية من وراء ذلك . وانها انما كانت ترمي الى ما ذكرنا من تصفية نفوسهم من شوائب المادة ، ليكون جهادهم لعدوهم ، وخروجهم من ديارهم ، ذا غرض يسمو على كل القِيمِ المادية الحقيرة ، ويَخْلُصُ لِلّه وإعلاء كلمته في الارض .

المراد بالغنيمة في اللغة

وعندما نراجع كلمات اللغويين في معنى الغنيمة ، نجد أنهم ينقسمون في تعريفها الى فريقين .

فريق يأخذ في مفهومها ، عدم بذل جهد أو مشقة ، كما في القاموس ، حيث يقول في تعريفها « الغُنْم بالضم ، والمغنم والغنيمة، ما يظفر به الانسان وينالـه ويصيبه من غير مشقة »[1] .

وفريق آخر ، يذهب الى إطلاق الغنيمة والمغنم ، على كل ما يحصل عليه الانسان من مكاسب وأرباح ، من دون تقييده بشيء . وذلك كما في الراغب الأصبهاني حيث يقول « والغُنْم بالضم فالسكون ، إصابته والظفر به ، ثم استُعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم »[2] .

ومن ذلك يظهر ، إن المقصود بالغنمية في اللغة ، هو كل ما يكسبه الإنسان ويربحه من أي طريق كان . بمشقة او بغير مشقة ، في حرب او في سلم ، من دون تقييد .

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي مادة غنم .

(٢) غريب القرآن مادة غنم . كما يراجع معجم الفاظ القرآن الكريم الموضوع من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة حرف الغين . ومختصر مختار الصحاح لعبد القادر الرازي باب الميم فصل الغين . وغيرها .

المراد بالغنيمة في الآية الكريمة

وقد اجمع المفسِّرون[1] ، على ان المراد بالغنيمة في الآية الكريمة بحكم سياقها هو ذلك الذي يظفر به المسلمون بعد قتال الكفار من أموال وسلاح وأسرى . وأنه يجب فيه الخمس لمن ذكرته الآية ، ويملك المسلمون الأخماس الأربعة الباقية .

خلاف الفقهاء حول خصوص الحكم في الآية وعمومه

وقد اختلفت كلمات فقهاء الإسلام ، حول خصوص الحكم الوارد في الآية ـ وهو وجوب الخمس ـ فيما ظفر به المسلمون مجتمعين او منفردين من الكافرين بواسطة القتال والحرب . أو أن وجوبه عام في كل ما يربحه المسلم من المشرك أو غيره ، في حالتي السلم والحرب ؟

رأي جمهور الفقهاء

ذهب جمهور الفقهاء من الأحناف ، والشافعية ، والمالكية ، والحنابلة ، الى تخصيص الحكم ، وهو وجوب اخراج الخمس ، بخصوص الغنائم التي يظفر بها المسلمون من الكفار بعد قتال ، مع خلاف بينهم في الأرض المفتوحة عنوة[2] . ، وذلك بعد أن بنوا على أن الغنيمة مأخوذ في مفهومها أن تكون بعد حرب وقتال .

جاء في الدر المختار ورد المحتار عليه للأحناف « الغنيمة ما نيل من الكفار عنوةً والحرب قائمة فتخمس وباقيها للغانمين »[3]

وجاء في المغني والشرح الكبير للحنابلة « والغنيمة ما أخذ بالقهر والقتال من الكفار »[4] .

---

(١) راجع تفسير الميزان للطباطبائي١ ـ ٨٩وتفسير الرازي ١٦٤/١٥ وما بعدها وتفسير المنار لرضا ٦/١٠ وما بعدها .

(٢) يراجع البداية والنهاية لابن رشد ٤١٢/١ وما بعدها وكفاية الطالب للشاذلي وحاشية العدوى ٧/٢ وما بعدها . والدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ٢٢٩/٣ ـ

(٣) لابن عابدين ٢٢٨/٣

(٤) لابن قدامة ٢٩٧/٧ وما بعدها . كما يراجع للمالكية بداية المجتهد لابن رشد ٤٠١/١ وما بعدها . ورسالة ابن ابي زيد القيرواني وحاشية العلامة العدوي عليه ٧/٢ .

رأي فقهاء الزيدية

واكثر فقهاء الزيديه[1] ، وإن ذهبوا الى نفس ما ذهب اليه . جمهور الفقهاء ممن ذكرنا من ان الغنيمة ، هي كل ما ظفر به المسلمون بقتال من المشركين او بقهر . ولكنهم في نفس الوقت لم يخصّصوا هذا الحكم ـ وهو وجوب اخراج الخمس بغنائم الحرب ، بل جعلوه فيها وفي نوعين آخرين :[2] .

الاول : ما أُخذ من ظاهر البر والبحر أو استُخرج من باطنهما .

الثاني : الخراج والمعاملة وما يؤخذ من أهل الذمة .

رأي فقهاء الامامية الإثني عشرية

واما فقهاء الامامية الاثني عشرية ، وبعض فقهاء الزيدية[3] ، فقد ذهبوا ، الى ان الخمس واجب في كل فائدة مكتسبة ، سواء اكتُسبت برأس مال كأرباح التجارات ، أو بغيره كما يستفاد من دار الحرب او ما يحصل من حيازة المباحات[4] .

هذا اضافة الى عدة امور اخرى هي[5] .

١ ـ المعادن .

٢ ـ الكنوز .

٣ ـ ما يُخرج من البحر بالغوص .

٤ ـ ما يفضل عن مؤونة السنة على الاقتصاد له ولعياله من أرباح التجارات والصناعات والزراعات .

٥ ـ الأرض التي اشتراها الذمي من مسلم.

٦ ـ الحلال الذي اختلط بالحرام ولا يعرف مقداره ولا صاحبه .

---

(١) البحر الزخار لابن المرتضى ٤٠٦/٦

(٢) نفس المصدر ٢٠٩/٣ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٢١٤/٣ .

(٤) جواهر الكلام على شرائع الاسلام للشيخ محمد حسن ١٤٧/٢١ .

(٥) نفس المصدر ١٣/١٦ وما بعدها .

اختيار واستدلال

ونحن نختار ما ذهب اليه فقهاء الامامية وبعض فقهاء الزيدية ، من أن الخمس يجب في كل فائدة يستفيدها الانسان في حياته ، لا فرق في ذلك بين ان تأتي عن طريق الحرب والقتال مع الكافرين ، أوْلا عن طريق قتال أصلاً ، من كافر او غيره . وذلك لعدة أمور :

أولاً : لأن لفظ الغنيمة في اللغة ، هو مطلق الفائدة والكسب من دون تقييد .

ثانياً : ان هنالك نصوصا كثيرة وردت بطرق متعددة ، مُبيِّنةً بوضوح ، موارد وجوب الخمس وموضوعه . وانه اضافة الى مكتسبات الحرب مع الكافرين وكل مكتسب ، ما ذكرناه آنفاً ، من الأمور الستة .
وذلك كقوله صلى الله عليه وآله وسلم عندما سُئِل عن الخمس فقال : « في الرِّكاز الخمس » والركاز ، هو الكنز الدفين ، والمعادن .
وكذلك ما ورد في الاحاديث الشريفة ، من وجوب تخميس كل ما استخرج من البحر كاللؤلؤ والعنبر وغيرهما ، الى آخر تلك الروايات[1] .

ثالثا : ان الحكم بوجوب اخراج الخمس في الآية ، وان كان وارداً في مورد خاص وهو غنائم بدر ، إلا أن المعلوم والمتفق عليه بين العلماء في علم أصول الفقه ، ان المورد لا يُخَصِّص الوارد بحال .

رابعا : ان الذهاب الى قصر وجوب اخراج الخمس ، على خصوص غنائم دار الحرب ، لا ينسجم مع خلود الاسلام وبقائه من ناحية عملية ، واستمرار الدولة الإسلامية زمن قيامها ، في تحمّل الأعباء الضخمة ، التي تترتب عليها اتجاه الأمة في الداخل والخارج وذلك من وجوه عدَّة اهمها :

---

(١) راجع في كل ذلك كتاب وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة للحر العاملي، المجلد السادس/ كتاب الخمس ، فصل ابواب ما يجب فيه الخمس . وكتاب البحر الزخار لمحمد بن المرتضى وجواهر الاخبار والآثار المطبوع بهامشه لمحمد بن يحيى الصعيدي الجزء /٣/٢١١ وما بعدها .

١ ـ ان الحروب قد اغلقت اكثر ابوابها ، وانحصرت ، وانحسر ظلها ، فانحسر بذلك ما قد يترتب عليها ، في حال انتصار المسلمين من غنائم .
٢ ـ ان نتائج هذه الحروب ، ليست مضمونة الى جانب المسلمين في كثير من الاحيان ، بل بالعكس ، فقد تكون نتائجها في غير صالحهم ، فتكون الغنائم من نصيب اعداء الاسلام .
وفي كلتا الحالتين ، تكون النتيجة ـ على القول بالتخصيص ـ نضوب موارد الدولة الاسلامية ، او تقصيرها عن تغطية اعباء الامة ومصارفها كما سبق وقلت .
ولذا كان الحكم بعموم وجوب الخمس في كل فائدة يحصل عليها مسلم . كما تقدم عرضه ، مع ادلته ، انسب للاقتصاد الاسلامي ، وأليق بوضع الامة المسلمة .

الأصناف المستحقة للخمس

وقد اختلفت كلمات الفقهاء هنا ، في كيفية قسمة الخمس ، تبعاً لاختلاف انظارهم واجتهاداتهم بالنسبة للأصناف التي تستحقه .
ويمكن حصر هذه الأقوال في قولين رئيسيين :

القول الأول : انه يقسَّم على خمسة أسهم .
وقد اختار هذا القول : جمهور الاحناف[1] .
والشافعي[2] . والحنابلة[3] .
وقد جعل اصحاب هذا القول ، سهم الله وسهم رسوله (ص) سهما واحدا .

حجة هذا القول :
واحتج من ذهب الى ذلك بأمرين :

(١) الدر المختار ورد المحتار عليه لابن عابدين ٣/٣٢٦ .
(٢) اعانة الطالبين للسيد البكري الدمياطي ٢/٢٠٦ .
(٣) المغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ٧/٣٠١ .

الأول : أنه لما كان من غير المعقول ، أن يكون للّه نصيب في الخمس ، حيث إن الأشياء كلّها ملك له سبحانه ، فلا بد وان يُحمل قوله تعالى « لِلَّه خُمُسَه » على بعض الوجوه[1] .

منها : احتمال أن يكون المقصود منه ، افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم ، كما في قوله تعالى « قل الأنفال لله والرسول » .

ومنها : ان إضافة الخمس الى الله ، تحتمل ان تكون ، باعتبار كونه مصروفا الى وجوه القُرَب التي هي لِلَّه تبارك وتعالى .

ومنها : احتمال ان يكون لخلوصه للّه ، بخروجه عن تصرُّف الغانمين ، كقوله تعالى « الملك يومئذ لِلّه » .

الثاني : ما روي عن رسول الله (ص) أنه قال في غنائم خيبر : مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم[2] .

تنبيه

ولا بد من التنبيه هنا ، على ان بعض من يذهب الى هذا القول الاول ، انما يقول بتقسيم الخمس خمسةَ اجزاء في حياة النبي (ص) . أما بعد وفاته (ص) ، فقد ذهب ابو حنيفة ومن تابعه من فقهاء الاحناف[3] ، الى وجوب تقسيمه الى ثلاثة اقسام فقط ، قسم لليتامى ، وقسم للمساكين ، وقسم لابناء السبيل . واسقطوا سهم رسول الله (ص) بسبب موته ، وسهم ذوي القربى .

القول الثاني[4]

وهو ما ذهب اليه فقهاء الامامية الإثني عَشَرِيَّة بالاجماع ، وفقهاء الزيدية . وطاووس ، وابو العالية .

(١) يراجع في ذلك كله بدائع الصنائع للكاساني ١٢٤/٧ وتفسير الرازي ١٦٦/١٥

(٢) الرازي في تفسيره ١٦٥/١٥

(٣) يراجع بدائع الصنائع للكاساني ١٢٥/٧ والرازي في تفسيره ١٦٥/١٥

(٤) يراجع جواهر الكلام للشيخ محمد حسن ٣٤/١٦ وما بعدها . والبحر الزخار لابن المرتضى ٢٢٤/٣ .

والخمس على رأي هؤلاء ، يُقَسَّم ستة أقسام لا خمسة ولا اقل ولا اكثر سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذوي القربى ، والثلاثة الباقية للاصناف الثلاثة اليتامى ، والمساكين ، وابناء السبيل .

اختيار واستدلال ونقاش

ونحن نختار في هذه المسألة ، هذا القول الثاني ، وهو وجوب تفسيم الخمس الى ستة اقسام وذلك لعدة امور :

الأول : ان الآية الكريمة ظاهرة في أن الخمس يقسَّم على ستة لا خمسة . ولا اقل . وظاهر القرآن ـ كما هو مقرر في محله من علم اصول الفقه[1] حجة ، لا يصار الى غيرها الا بدليل يَصْرف ذلك الظاهر عما هو ظاهر فيه .

ومن الغريب حقاً ، ان ابن قدامة المقدسي[2] ، يشنُّ حرباً شعواء على ابي حنيفة ، الذي يقسّم الخمس الى ثلاثة اقسام فقط ، متهماً اياه بأنه يخالف ظاهر الآية الكريمة ، في حين نراه يقع في نفس الخطأ ، عندما يقسّم الخمس إلى خمسة أقسام مخالفاً بذلك هذا الظاهر أيضاً؟ .

الثاني : ان ما ذكروه في توجيه الآية الكريمة ، ونصوا عليه ، كما بدا ذلك واضحا من كلماتهم التي اوردناها ، كتعبيراتهم بلفظ (يحتمل) في كل وجه من الوجوه الموردة ، ولفظ (احتمال) . ان هذه الوجوه ، ما هي الا احتمالات وتخمينات وتكهنات . ومثل هذا محرم في تناول كلمات الله من غير دليل ، وقول بغير علم .

الثالث : ان كون هذه الوجوه احتمالات ، يسقطها عن الدليلية ، انسجاما مع القاعدة الاصولية « عند الاحتمال يبطل الاستدلال » .

الرابع : ان الأصل الذي بنوا عليه ما ذهبوا اليه ، وهو عدم تعقُّلهم ملكية الله

---

(١) راجع كفاية الاصول للمحقق الخراساني المطبوع مع حقائق الاصول للسيد محسن الحكيم المجلد الثاني /٨٣ وما بعدها .

(٢) يراجع المغني والشرح الكبير ٣٠١/٧

لجزء من الخمس ، باعتبار ان له ملك السموات والأرض ، غريب حقاً ، اذ كيف يمكننا ان نتصور ان يملك الله السموات والارض ومن فيهن ، وما بينهن ، ولا نتصور قابليته للملكية قبضة من المال !؟؟
ومن الواضح ، ان الذي يقول من الفقهاء ، بملكية الله سبحانه لجزء من الخمس ، لا يدّعي ان الله بحاجة اليه لشراء خبز وحطب وماء وكسوة ، لانه تعالى منزّه عن هذا كله . وانما يرى انه سبحانه ، المالك الجوهري والحقيقي ، تركه لوليّ الأمر . الذي هو النبي (ص) والخلفاء من بعده ، ليصرفوه في سبيل اعلاء كلمة الله في الارض ، ولينفقوه فيما يؤدي الى هذا السبيل ، وعلى هذا يحمل ما ورد في السنة الشريفة ، من فعله (ص) عن ابي العالية ، حيث « كان يجاء بالغنيمة ، فيعزل منها الخمس ، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله ، فما قبض عليه من شيء ، جعله للكعبة ، فهو الذي يسمّى للّه » .

وليس ذلك ، الا لما قلناه ، اذ ان الكعبة من شعائر الله ، كالصفا والمروة وغيرهما . وعندئذٍ يمكننا ان نلغي خصوصية الملكية في هذا الفعل ، لنتعدّى منها الى كل ما صح ان يكون شعيرة من شعائر الله ، او اعلاءاً لشعيرةٍ من شعائره . او خدمة لمصلحة من مصالح عقيدته .

الخامس : ان ما ذكروه من الأمور الآنفة ، كوجوه وتوجيهات لقوله تعالى «لله خُمُسَه » ما هي إلّا استحسانات لا يمكن الركون او المصير اليها ، لان الاستحسان ، بناءً على تعريفه[1] بأنه اعمال نظر ، استنادا الى انقداحات نفسية لا يمكن التعبير عنها ، يجيز لاي شخص أن يفتي بما يراه حسنا في نظره . وعندئذ ، يؤول الامر الى وجود احكام متعارضة ، من دون قيود او ضوابط . وهذا مما لا يمكن قبوله او القول به . ولعلّه لذلك قال الإمام الشافعي « من استحسن فقد شرّع »[2] .

---

(١) مصادر التشريع فيما لا نص فيه لعبد الوهاب خلّاف /٥٨

(٢) فلسفة التشريع في الاسلام للاستاذ صبحي المحمصاني /١٧٤

السادس : ان ما استدلوا به من فعل النبي (ص) ، يوم فتح خيبر ، في حديث عن سعيد ، من ان النبي (ص) اخذ وبرةً من بعير ثم قال : لا يحل لي مما افاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود فيكم . فلا يمكن الاطمئنان اليه ، ولا الاستدلال به لعدة وجوه ، اهمها :

أولا : عدم ثبوت صحة سند الحديث ، بل غموض هذا السند . اذ انهم يروونه عن شخص مهمل ، فيقولون : رواه سعيد[1] . فمن هو سعيد هذا يا ترى ؟ هل هو سعيد بن المسيّب ؟او سعيد بن جبير؟ او سعيد آخر غيرهما ؟ . ومع غموض حال الراوي ، وعدم وضوح حال سند الرواية ، حيث تروى في بعض المصادر[2] . مرسلةً ، فكيف يُعمل بها ويُرْكن اليها ؟

ثانيا : ان الرواية ـ مع التنزّل عما تقدم ـ هي مظنونة الصدور ، والآية الكريمة مقطوعة الصدور ، وهي نص في ان الخمس يقسّم على ستة اسهم . فلا يجوز ان نرفع اليد عما هو قطعي بما هو ظنيّ .

ثالثا : على تقدير صحة فعله (ص) يوم خيبر ، كما تقول الرواية ، يرد احتمال انه ، انما فعل ذلك ، في هذه الواقعة بالذات لمصلحة اطلع عليها ، وظروف استثنائية احاطت بها بالخصوص .
او انه « انما فعل ذلك ، لا باعتباره مبلغا للاحكام الشرعية العامة ، وانما بوصفه وليّ الامر ، المسؤول عن تنظيم الحياة للمجتمع ، وتوجيهها توجيها لا يتعارض مع المصلحة العامة التي يُقدِّرها » . ومع الاحتمال يبطل الإستدلال .

خلاصة البحث

وعلى ضوء كل ما تقدم ، يتضح ان الخمس بمقتضى صريح الآية الكريمة ، والسنة الشريفة ، انما يقسّم ستة اقسام ، لا اقل ولا اكثر .

---

(١) راجع الشرح الكبير المطبوع مع المغني لابن قدامة المقدسي الحنبلي ٣٠٢/٧

(٢) راجع تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ١٨/١٠

المستحقون للخمس

وكما وقع الخلاف بين العلماء ، حول خصوص حكم وجوب الخمس في الغنائم ، او عمومه لكل مكسب كما تقدم ، فقد اختلفوا ايضا . في المستحقين لهذا الخمس من الاصناف .

ما نفهمه من الآية

والآية الكريمة ، ظاهرة ـ كما اتضح في المسألة السابقة ـ في ان الخمس يُقَسَّم على ستة أقسام . سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذي القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل .

ومن الواضح، ان سهم الله سبحانه ـ بعد ان ناقشنا فيها تقدم الرأي القائل بعدم تَعَقُّلِه ـ هو تلقائيا للنبي (ص) بالوراثة ، باعتباره ولي الامر الذي لا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض ، وبهذا يجتمع للرسول (ص) سهمان : سهم الله سبحانه ، وسهمه هو بنص الآية .

ويؤيد هذا ويشير اليه ، ما ورد عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) قال : « ان الله تعالى لم يسأل خلقه مما في ايديهم قرضا من حاجة به الى ذلك . وما كان لِلّه من حق فهو لِوَلِيِّه »[1] .

المراد بذي القربى

والمراد بذي القربى في الآية الكريمة ، الامام المعصوم ، باعتباره وليَّ الامر بعد الرسول (ص) .

وعلى هذا ، فالامام المعصوم من نسل علي وفاطمة (ع) ، بلحاظ انحصار قرابة النبي (ص) فيه منهما (ع) يستحق ثلاثة اسهم من الستة ، سهمين بالوراثة ، وهما سهم الله وسهم الرسول . وسهماً بالأصالة .

---

(١) اصول الكافي للشيخ الكليني ١/٥٣٧

وقد وردت في ذلك روايات كثيرة عن أئمة اهل البيت (ع)[1] .

والذي يؤيد ما ذهبنا اليه ، من ان المراد من لفظ « ذي القربى » الوارد في الآية الكريمة هو الامام المعصوم باعتباره ولي الأمر بعد النبي (ص) ، هو وروده بلفظ المفرد .

الأقوال في المسألة

ومع قطع النظر عن الصيغة التي ورد بها اللفظ في الآية الكريمة ، فقد وقع الخلاف بين علماء المسلمين وفقهائهم ، حول المراد بذوي القربى ، بعد اجماعهم على ان المراد بهم بشكل عام ، قرابة النبي (ص) . وذلك على ثلاثة اقوال[2] :

القول الأول ودليله

والقول الأول ، يعتبر ان قرابة النبي (ص) ، هي قريش كلها . وقد استدلوا له بفعله (ص) يوم نزلت عليه الآية الكريمة « وأنذر عشيرتك الأقربين »[3] .

تفنيد

وهذا الرأي مردود من وجهة نظرنا لأمرين :

الأول : ان العشيرة شيء ، والقرابة شيء آخر ، وبمعنى أوضح مفهوم العشيرة اوسع من مفهوم القرابة كما هو واضح ، إذ قد يكون انسان من العشيرة ولا يكون قرابة .

الثاني : ما أخرجه الطبراني وابن مردويه، عن أبي أمامة، قال : لمانزلت، وأنذر

---

(١) راجع وسائل الشيعة الى احكام الشريعة للشيخ الحر العاملي باب ١ من ابواب قسمة الخمس .

(٢) يراجع تفسير القرطبي ١٢/٨

(٣) الشعراء /٢١٤

عشيرتك الأقربين. جمع رسول الله بني هاشم، فأجلسهم على الباب ، وجمع نساءه وأهله ، فاجلسهم في البيت . الخ الرواية[1]

وجهة نظر

والذي يبدو لي ، انه منسجم مع منطوق الآية الكريمة ، ان المراد بالأقربين الفئة القريبة من حيث سهولة المخاطبة والتلاقي ، في مقابل الأبعدين من حيث المكان ، والذين لا يتيسّر اللقاء معهم ، ولا يمكن مخاطبتهم .

القول الثاني ودليله

وهذا القول ، هو عبارة عن تفسير قرابة النبي (ص) ببني هاشم وبني المطلب . حيث اختاره الشافعي ، واحمد ، وقتاده ، وابو ثور ، وغيرهم .

واستدلوا له ، بما ورد عن رسول الله (ص)، من انه قسّم سهم ذوي القربى بين هذين الصنفين ، بني هاشم وبني المطلب ، وقال عندما طالبه البعض من بني عبد شمس وبني نوفل في ذلك ، ولِمَ حَرَمهم ، مع انهم وهم بمنزلة واحدة : « لم يفارقوني في جاهلية ولا اسلام ، وانما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين اصابعه »[2] .

نقاش وتفنيد

والاستدلال بهذه الرواية لهذا القول مردود ، اذ ان اعطاءه (ص) نصيبا لبني المطلب من خمس خيبر ـ على تقدير صحة الحادثة ـ لم يكن الا تَفَضُّلا منه (ص) ، لا بسبب القرابة التي هي موضوع البحث، وإلا لأعطى بني نوفل وبني عبد شمس .

---

(١) يراجع تفسير الميزان للطباطبائي ١٥/٣٣٤

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٣١٢

ويدل على ذلك ، ان جبيراً وعثمان ، جاءا اليه (ص) وبيدهما حجة واحدة ، احتَجاً بها بين يديه (ص) وهي القرابة ، وانهما وبني المطلب بمنزلة واحدة منه (ص) فيها ، حيث قالا : « فما بال اخواننا بني المطلب اعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة » .

والاعتراض على ذلك، بأن في بني نوفل وبني عبد شمس مانعا ، وهو النُّصْرة المعروفة له ولبني هاشم في الشِّعْب، حيث وجدت في بني المطلب، يؤكد معنى التفضل في اعطائه (ص) ، اذ تكون النّصْرةَ سببَ مثل هذا التفضل على بني المطلب في مثل ذلك الإعطاء ، ومانعا من حصوله بالنسبة للآخرين .

ولا اقلّ من احتمال ان يكون اعطاؤه لبني المطلب تفضلا لا استحقاقا . وعند الاحتمال يبطل الاستدلال .

القول الثالث

وهو ان قرابة الرسول (ص) المستحقين للخمس ، هم بنو هاشم خاصة .

واختار هذا القول ، الامامية الاثنا عشرية بالاجماع[1] ، والزيدية[2] ، ومجاهد ، ومالك ، والثوري ، والاوزاعي ، وغيرهم[3] .

اختيار واستدلال

ونحن ـ بعد وضوح فساد القولين السابقين ـ كما بيَّنا ، نختار هذا القول الاخير وذلك لعدة وجوه :

أولا : الروايات الواردة صريحة في ذلك :

منها : ما رواه في الوسائل ، بسند متصل بالامام جعفر بن محمد الصادق

---

(١) يراجع جواهر الكلام للشيخ محمد حسن ١٠٤/١٦ وما بعدها .

(٢) راجع البحر الزخار لابن المرتضى ٢٢٤/٣ وما بعدها .

(٣) تفسير القرطبي ١٢/٨ وما بعدها.

(ع) حيث قال عندما سئل عن آية الخمس : « وخمس يقسّم فيه سهم رسول الله (ص) ، ونحن نقول هو لنا ، والناس يقولون : ليس لكم » . الحديث[1] .

تعليق وتوضيح :

ومن الواضح ، ان الامام الصادق (ع) هو ابن الامام محمد الباقر بن الامام علي ابن الحسين السجاد ، بن الامام الحسين بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم . وعندما نراه يقول في الرواية المتقدمة هولنا ، انما يقصد الهاشميين دون غيرهم .

ومنها : ما أخرجه ابو داوود ، ورواه احمد في مسنده ، عن الامام علي (ع) قال : « اجتمعت انا والعباس وفاطمة ، وزيد بن حارثة عند النبي (ص) فقلت : يا رسول الله ، ان رأيت أن توليني حقنا من هذا الخمس في كتاب الله تعالى ، فأقسمه في حياتك ، كيلا ينازعني احد بعدك فافعلْ . قال : ففعل ذلك ، فقسَّمتُه حياةَ رسول الله (ص) »[2] .

تعقيب وتوضيح :

والمتأمل لهذا الحديث ، يجد التركيز من الامام (ع) امام النبي (ص) على كلمة « حقنا » ، الدالة صراحة على ان الخمس ، انما هو لعلي واهل بيته من الهاشميين خاصة .

وعبارة « كيلا ينازعني احد بعدك » اصرح في الدلالة على ما ذكرت .

ولعله (ع) كان يشعر بأنه بعد وفاة النبي (ص) ، كان في الناس من غير

---

(١) وسائل الشيعة الى احكام الشريعة للشيخ الحر العاملي ٣٦٢/٦ .

(٢) راجع اضافة الى مسندي احمد وداوود . كتاب جواهر الاخبار والآثار المطبوع بهامش البحر الزخار لابن المرتضى ٢٢٤/٣ ـ ونيل الاوطار للشوكاني ٧٤/٨ .

الهاشميين ، من يطمح بِشَرَه ، الى الاستيلاء على هذا الحق ، وهكذا كان .

ثانيا : انه من الثابت عند فقهاء الاسلام ، ان الله سبحانه ، حرَّم على رسوله (ص) واهل بيته (ع) الصدقات ، وهي اموال الزكاة . ومن الواضح ، ان المقصود بأهل بيته : علي وفاطمة واولادهما بنص حديث الكساء[1] ، وغيره من الأحـاديث الصحيحة .

ومن الثابت عندهم ايضا ، انه سبحانه ، انما عوضهم عن ذلك بالخمس ، فيكون الخمس لهم ، ومن انتسب اليهم خاصة .

ثالثا : ان هنا قدرا متيقنا من ذوي القربى ، هو الهاشميون ، وزائدا مشكوكا وهو من عداهم من المطلبيين ، بمعنى انه لم يختلف اثنان من علماء الاسلام ، على كون الهاشميين هم موضوع استحقـاق الخمس . في حين اختلفوا فيمن عداهم ، والقاعدة المجمع عليها هنا بينهم ، هو الاخذ بالقدر المتيقن دون المشكوك .

موقف وتعليق

وقد ذهب ابو بكر وعمر ، بعد وفاة النبي (ص) ، الى حرمان قرابة رسول الله (ص) من سهمهم الذي جعله الله لهم بنص الكتاب الحكيم . وتابعهما على ذلك كثير من فقهاء السنة . مع اجماع المسلمين ، على ان النبي (ص) ، توفي وهو على ما شرعه الله سبحانه ، من ايصاله السهم الى قرابته . « ولم يعهد بتغيير ذلك الى احد »[2] .

ونحن لن نورد هنا ، الا ما اورده بعض فقهاء الحنابلة ، وغيرهم ، تعليقا على هذا الموقف من الخليفتين ومن تابعهما من فقهاء اهل السنة ، كأبي حنيفة وغيره .

يقول في المغني والشرح الكبير[3] : « وما قاله ابو حنيفة ، فمخالف

---

(١) يراجع الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني الباب /١١ ـ الفصل الاول .

(٢) يراجع النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين صفحة /٢٦

(٣) راجع المغني والشرح الكبير عليه لابن قدامة ٣٠١/٧ ـ ٣٠٢ . كما يراجع البحر الزخار لابن المرتضى ٢٢٤/٣ وما بعدها وجواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي ٨٧/١٦ .

لظاهر الآية . فان الله تعالى ، سمىً لرسوله وقرابته شيئا ، وجعل لهما في الخمس حقاً ، كما سمىً للثلاثة الاصناف الباقية . فمن خالف ذلك ، فقد خالف نصَّ الكتاب .

واما حمل ابي بكر وعمر (رض) على سهم ذي القربى في سبيل الله ، فقد ذُكِرَ لأحمد فَسَكت وحرَّك رأسه ، ولم يذهب اليه . ورأى ان قول ابن عباس ومن وافقه ، اولى ، لموافقته لكتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) . فان ابن عباس لما سُئِل عن سهم ذي القربى فقال : انا كنا نزعم انه لنا ، فأبى ذلك علينا قومنا ، ولعله اراد بقول : فأبى ذلك علينا قومنا ، فعل ابي بكر وعمر (رض) ، في حملهما عليه في سبيل الله ، ومن تبعهما على ذلك . ومتى اختلف الصحابة ، وكان قول بعضهم يوافق الكتاب والسنة، كان أولى. وقول ابن عباس موافق للكتاب والسنة» .

المراد باليتامى

واليتيم لغة ، هو كل طفل فقد اباه خاصة .

ولا يقال ، لمن فقد امه من بني الانسان او غيره يتيم ، بل يقال له : عجيّ . حيث يربى بتغذيته بلبن غيرها .

كما يقال لفاقد ابويه معا : لطيم .

ولم يرد اصطلاح خاص للمتشرعة في اليتيم ، ولذا فالمراد به عندهم معناه اللغوي ليس الا .

وعلى هذا ، فالمراد باليتامى في الآية الكريمة ـ وبلحاظ ما تقدم من بحوث ـ خصوص اطفال بني هاشم ، ممن فقدوا آباءهم ، الذين انتسبوا من طرفهم الى هاشم جد النبي (ص) .

المراد بالمساكين

والمسكين لغةً ، هو « المحتاج الذي من شأنه ان تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى »[1] .

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٥٤٣/٤ .

الفرق بين الفقير والمسكين

وقد يفرق بين الفقير والمسكين ، بأن الفقير في اصطلاح الفقهاء ، هو « من لا يملك قوت سنته لنفسه وعائلته ، بالفعل او بالقوة »[1] .

في حين ان المسكين اسوأ حالا من الفقير ، كمن لا يملك قوته اليومي[2] .

ولا بد من التنبيه[3] ، على ان هذا الفرق ، انما يجعل الفقير والمسكين صنفين في باب الزكاة . اما في الخمس فهما صنف واحد .

وبناء عليه ، فالمراد بالمساكين ـ جمع مسكين ـ في الآية الكريمة ـ وبلحاظ ما تقدم من بحوث ايضا ـ خصوص ذوي الحاجة والمسكنة من بني هاشم .

المراد بأبناء السبيل

وابن السبيل[4] ، هو المسافر الذي نفذت نفقته ، او تلفت راحلته ولا يتمكن معه من الرجوع الى بلده ، وان كان غنيا فيه .

وانما قيل له ابن سبيل ، لان السبيل اخرجه الى هذا المستقر ، كما اخرجه أبوه الى مستقره[5] .

وعليه ، فالمراد بأبناء السبيل الوارد بصيغة المفرد في الآية الكريمة ، خصوص المسافرين ، الذين لا يملكون في بلد السفر ، ما يمكّنهم من رجوعهم الى بلدهم الاصلي ، من زادٍ وراحلة ونفقة ، وكانوا ينتسبون الى هاشم جد النبي (ص) بنسب صحيح .

(١) المسائل المنتخبة للامام الخوئي ص/١٧٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع المغني والشرح الكبير عليه لابن قدامة ٣١٣/٧ وجواهر الكلام للشيخ محمد حسن ٣٩٦/١٥ ـ ٣٩٧ .

(٤) المسائل المنتخبة للامام الخوئي ص/١٧٥ .

(٥) راجع مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٥٣٤/٤ .

وقفة اخيرة

ولا بد من التنبيه هنا أخيراً، على أن هذه الأصناف الأخيرة من اليتامى والمساكين وابناء السبيل ، انما يعطون من الخمس بمقدار ما يرفع فقرهم وما زاد يرد الى وليّ الامر يتصرف فيه فيما يعود على الامة الاسلامية بالخير والنفع بحسب ما يراه مناسباً .

***

حكم الأخماس الأربعة الباقية

كان هذا الكلام كله في حكم خمس الغنائم مطلقاً ، فما هو حكم الأربعة أخماس الباقية من غنائم دار الحرب ؟

الظاهر ان حكم الأربعة أخماس الباقية ، مجمع عليه بين فقهاء المسلمين وهو انها ملك للغانمين[١] . وان وجد بينهم اختلاف طفيف في كيفية تقسيمها عليهم .

فبينما نراهم اتفقوا[٢] ، على ان الراجل في المعركة من المسلمين ، يأخذ سهماً واحداً من الغنيمة .

نجدهم قد اختلفوا في حصة الفارس من المقاتلين في الغنيمة .

فذهب الحنابلة[٣] ، والشافعي وابويوسف ومحمد من الاحناف[٤] ، والناصر ويحيى وغيرهما من الزيدية[٥] ، والمالكية[٦] ، الى أن الفارس يسهم له ثلاثة اسهم ، سهم له ، وسهمان لفرسه .

---

(١) راجع البحر الزخار لابن المرتضى ٤٣٦/٦ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة ٣١٢/٧ وشرائع الاسلام للحلي ٣٢٠/١ وبدائع الصنائع للكاساني ١٢٦/٧/ .

(٢) المغني لابن قدامة ٣١٢/٧ وبدائع الصنائع للكاساني ١٢٦/٧ وشرائع الاسلام للحلي ٣٢٤/١ والبحر الزخار لابن المرتضى ٤٣٦/٦ .

(٣) المغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ٣١٢/٧ .

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ١٢٦/٧ .

(٥) البحر الزخار لابن المرتضى ٤٣٧/٦ .

(٦) راجع رسالة ابن ابي زيد القيرواني وحاشية كفاية الطالب عليه ٩/٢ وما بعدها .

في حين ذهب الإمامية[1] ، وأبو حنيفة[2] ، الى انه يسهم له سهمان فقط .
وقد اجمعوا على انه لا يسهم لغير الخيل من الدواب ،وان حكي قول عن احمد[3] ، في ان البعير يسهم له سهم ، جاء في المغني والشرح الكبير[4] « واختار ابو الخطاب انه - اي البعير - لا يسهم له ، وهو قول اكثر الفقهاء . قال ابن المنذر : أجمع كل من احفظ عنه من أهل العلم ان من غزا على بعير فله سهم راجل . كذلك قال الحسن ، ومكحول ، والثوري ، والشافعي ، واصحاب الرأي » .
وجاء في البحر الزخار للزيدية « ولا يُسْهَم لغير الخيل إجماعاً »[5] .
وجاء في شرايع الاسلام للامامية « ولا يسهم للابل والبغال والحمير »[6] .
وجاء في كفاية الطالب للمالكية « واحترز بالفرس عن البعير والبغل والحمار فإنه لا يسهم لها »[7] .
كما ذهب الفقهاء[8] في القول الاقوى ، الى انه لا يسهم للخيل ، إذا كانت هرمةً او ضعيفة لا تقوى بصاحبها على القتال . ولا للصغير الذي لا يصلح للركوب .
واكثر الفقهاء[9] ، على انه لا يسهم للمقاتل على اكثر من فرسين ، وان كان عنده عشرة أفراس . وذلك لان حاجته - على الاكثر - انما تُسَدُّ بالفرس الثاني دون ما زاد .
وهنالك اختلافات طفيفة اخرى بين الفقهاء في هذا الموضوع ، تراجع في مطولات الفقه .

---

(١) راجع شرائع الاسلام للحلي ١/٣٢٤ .
(٢) راجع كشاف القناع ٣/٨٨ وبدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢٦ .
(٣) و (٤) لابن قدامة الحنبلي ١٠/٤٤٨
(٥) لابن المرتضى ٦/٤٣٧ .
(٦) للعلامة الحلي ١/٣٢٤
(٧) لعلي ابي الحسن الشاذلي ٢/٩
(٨) راجع شرائع الاسلام للحلي ١/٣٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ١٠/٤٤٧ وكشاف القناع ٣/٨٢ وحاشية العدوي على رسالة القيرواني ٢/٩ .
(٩) يراجع بدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢٦ وشرائع الاسلام للحلي ١/٣٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ١٠/٤٤٧ .

تفريعات :

الأول : ذهب الفقهاء[1] ، الى انه لا يجوز لاحد من الغانمين التصرف في شيء من الغنائم قبل القسمة والاختصاص . الا ما يضطرون الى تناوله كالطعام وعلف الدابة .

الثاني : ذهب بعض الفقهاء[2] ، الى ان ما لا يصح تملكه للمسلم كالخمر والخنزير ، لا يدخل في الغنيمة ، بل ينبغي إتلافه .

الثالث : ذهب كثير من الفقهاء[3] ، الى انه لا يسهم للنساء والعبيد ، والكفار الذين قاتلوا بإذن الامام الى جانب المسلمين ، بل يرضخ لهم ، والرضخ هو العطاء الذي لا يبلغ سهم من يُعطاه لو كان مستحقاً للسهم .

الرابع : ذهب فقهاء الامامية[4] ، الى ان الطفل حتى ولو لم يحتمل قتالاً يسهم له ، بل ذهبوا الى وجوب الاسهام له لو ولد بعد الحيازة للغنائم وقبل قسمتها .

الخامس : ذهب بعض الفقهاء[5] ، الى عدم جواز تقسيم الامام الغنائم في دار الحرب بل لا بد من تأخيرها الى دار الاسلام . واما مَن قال بالجواز ، فبعضهم[6] جوّزه على كراهية . بينما البعض الاخر[7] . رأى الكراهية في عدم قسمتها في دار الحرب إلا لعذر ، وهذا الاخير في

---

(١) راجع شرائع الاسلام للمحقق الحلي ١ / ٣٢٠ . وبدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢٣ ـ ١٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٢٩ .

(٢) راجع شرائع الاسلام للحلي ١ /٣٢١ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٢٩

(٣) البحر الزخار ٦/٤٣٦ . وشرائع الاسلام ١ /٣٢٤ وحاشية الصعيدي على رسالة ابن ابي زيد القيرواني ٢/ ١٠ .

(٤) شرائع الاسلام للحلي ١/٣٢٤ .

(٥) بدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢١ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨

(٦) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨ .

(٧) شرائع الأسلام للمحقق الحلي ١/٣٢٥ .

نظري هو الرأي الصحيح لاعتضاده بفعل النبي (ص) في أكثر حروبه وغزواته كما وردت به الاخبار[1] .

السادس : كان الكلام المتقدم بالنسبة لوجوب اخراج خمس الغنائم مقتصراً على ما ينقل من ذهب وفضة وأمتعة .

فما هو الحكم بالنسبة لشيئين آخرين :

١ ـ النساء والاطفال وما تابعهم من عبيد . . . والرجال .

٢ ـ ما لا ينقل كالارض والدور والعقارات .

أما بالنسبة للنساء والذراري وعبيدهم ، فقد ذهب الفقهاء ، الى أنهم يُسترقون ، وهم ملك للغانمين خاصة بعد إخراج الخمس[2] .

وأما بالنسبة للرجال ففصّلوا بين ما اذا كانت الحرب قائمة وبين انتهائها فلو أُخذ الرجال اسرى والحرب قائمة يتعين عليهم القتل ما لم يسلموا[3] . والامام مخيّر فيه بين اثنتين : ضرب اعناقهم . او قطع ايديهم وارجلهم من خلاف وتركهم ينزفون .

واما اذا أُخذوا بعد تقضيّ الحرب ، لم يقتلوا ، وكان الامام مخيراً فيهم بين المنّ والفداء والاسترقاق . وهذا الحكم لا يسقط في حقهم حتى ولو أسلموا[4] .

وان زاد بعض الفقهاء ايضا[5] خيار قتل الامام لهم في هذه الحال اذا رأى ذلك .

واما بالنسبة للعقارات والأرضين ، فقد وقع الخلاف فيها بين الفقهاء .

---

(١) راجع جواهر الاخبار والآثار المطبوع بهامش البحر الزخار لمحمد بن يحيى الصعدي ٤٣٨/٦ ـ ـ٤٣٩ كما يراجع سنن البيهقي ٥٦/٩ ـ ٥٧ .

(٢) يراجع شرائع الاسلام للحلي ٣٢٢/١ والمغني لابن قدامة ٤٠٠/١٠ وما بعدها ، والبحر الزخار لابن المرتضى ٤١٣/٦ .

(٣) شرائع الاسلام للحلي ٣١٧/١ .

(٤) نفس المصدر والمغني لابن قدامة ٤٠٠/١٠ وما بعدها .

(٥) المغني والشرح الكبير لابن قدامة ٤٠٠/١٠ وما بعدها .

فالامامية يرون انها للمسلمين قاطبة ، ولا تختص بالغانمين ، وذلك بعد إخراج خمسها ، في قول الكثير منهم[1] .

وقد تمسك هؤلاء على ما ذهبوا اليه . من كون هذه الارض للمسلمين قاطبة ، بالروايات الدالة على وجوب اخراج خمس الغنيمة وتقسيم الباقي على الغانمين ، حيث استفادوا من قرينة وجوب تقسيم الباقي على الغانمين ، ان مورد هذه الروايات هو الغنائم المنقولة فقط .

كما تمسكوا على ما ذهبوا اليه من وجوب اخراج خمس هذه الارض المفتوحة ، بأدلة خمس الغنيمة الشاملة بإطلاقاتها لغير المنقول من الغنائم ايضا .

وان كان بعض فقهاء الإمامية ، ذهبوا الى عدم وجوب الخمس في الاراضي المفتوحة ، مع قولهم بملكية المسلمين قاطبة لها .

ولعل هؤلاء قد استدلوا على ما ذهبوا اليه ، بتقديم اطلاقات ادلة ملكية المسلمين للأرض المفتوحة ، المقتضية لنفي الخمس فيها ، على اطلاقات أدلة خمس الغنيمة ، باعتبار ان ادلة الملكية ، اخص من ادلة خمس الغنيمة ، فتقدم عليها بالتخصيص .

أو باعتبار وقوع التعارض بين إطلاقي الدليلين وتساقطهما عند ذلك ، فيرجع بعد تساقطهما الى الدليل الفوقاني المقتضي لنفي وجوب الخمس .

وفي كلا الشقين مناقشات وتأمل[2] .

والى ما ذهب اليه الامامية ، ذهب فقهاء الزيدية ايضا[3] .

واما ابو حنيفة واصحابه ، فقد ذهبوا الى القول بأن الامام مخير بين ان يقسمها بين

---

(١) شرائع الاسلام للحلي ٣٢٢/١ .

(٢) راجع هذه المناقشات التي اوردها بعمق ودقة السيد محمد باقر الصدر في القسم الثاني من كتابه (اقتصادنا) صفحة ٦٥٠ وما بعدها ، مع رأيه في المسألة وهو عدم وجوب تخميس الارض المفتوحة .

(٣) البحر الزخار لابن المرتضى ٤٤٠/٦ .

الغانمين بعد اخراج خمسها ، وبين ان يتركها في يد اهلها بالخراج وجعلهم ذمة ان كانوا بمحل الذمة بأن كانوا من اهل الكتاب او من مشركي العجم ووضع الجزية على رؤوسهم والخراج على اراضيهم[1] .

وقد نقل صاحب البحر الزخار[2] عن ابي حنيفة واصحابه رأياً آخر وهو أن الامام مُخيَّر بين أن يقسمها، أو يوقفها على المسلمين، أو يجعلها خراجية، أو يزعج أهلها ويسكنها آخرين على خراج. مع نقله عدم وجوب اخراج الخمس منها. . . ؟ .

بينما ذهب عمر ومعاذ وابن المبارك والليث إلى أن النظر فيها للإمام إن شاء قسمها، أو وقفها على المسلمين فقط[3].

واما مالك ، فقد جعل لها وجهاً واحداً ليس إلا ، وهو انها بمجرد الفتح ، تصير وقفاً على المسلمين من غير واقف[4] .

دور الخمس في حياة الأمة

تمهيـد

الحقيقة ، اننا لا نريد ببحث موقع الخمس من الوجهة الاسلامية ، على الصعيدين النفسي والاجتماعي ، وكذلك الاقتصادي ، ان ندّعي ، أنّ هذا البحث سوف يبلور عظمة نظرية الاسلام وعمقها في هذه المجالات ، وشمولها واستيعابها .

ذلك أن هدفاً كهذا ، يقتضينا أن ننظر نظرةً عامةً وشاملة ، الى جميع جوانب هذه النظرية ، حتى تجيء الصورة واضحة ، وبالتالي يكون الحكم صادقاً صحيحاً .

ولكن مع ذلك ، لا نرى مانعاً ـ بعد التنبيه على ما نبهنا عليه ـ من ان نشير ولو اشارة موجزة ، الى ما يمكن ان يؤديه الخمس ، من دور مهم من النواحي النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، في المجتمع الاسلامي ، فيما لو اعتُمِدت الصيغة التي اخترناها من خلال بحوثنا المتقدمة ، حول الآية المشرِّعة له في كتاب الله ، والتي توسِّع في دائرته ، الى ما يعمّ أموراً كثيرة غير غنائم دار الحرب .

---

(١) بدائع الصنائع للكاساني ١١٨/٧ .

(٢) و (٣) و (٤) البحر الزخار لابن المرتضى ٤٤٠/٦ .

والخمس ، وان كان في حد ذاته مما تغلب عليه صفة المال ، الا انه في الشريعة الاسلامية ، عبادة من العبادات التي يشترط فيها قصد التقرب بها الى الله سبحانه ، كالصلاة والصوم وغيرهما من العبادات .

وهذا في الحقيقة ، يؤكد نظرة الاسلام الشمولية . وانه دين يستوعبُ ـ حتى في تلك النواحي التي قد يبدو منها خصوصية ربط العبد بربه ـ شؤون الناس الدنيوية ، وما فيه من سعادة الانسان واستقراره في الحياة على صعيد الفرد والجماعة .

كما يؤكد ، على أن الاسلام في جانبه الاجتماعي ، لا ينفصل أبداً عنه في جانبه الاعتقادي ، الذي يبلور مفاهيمه ، وفقاً لمبدإه الأصيل في تنمية عواطف الانسان ومشاعره النبيلة ، ودفعها في الاتجاه المحتاج اليها لتغيير واقع فاسد قائم ، او تدعيم واقع سليم متحقق بشكل موضوعي .

ففي مقامنا ـ مثلاً ـ الخمس ، عندما يرتبط في صدر الآية الكريمة بالله ورسوله «فأن لله خمسه وللرسول» وفي ذيلها «إن كنتم آمنتم بالله» ، يتحول إلى معتقد ينبثق منه مفهوم العطاء الخيّر لِلّه ، والبذل في سبيله ، فتتفجرُ عند الانسان المؤمن ، مشاعر السخاء ، وعواطف الحب في اللّه بالنسبة لإخوانه في الدين والعقيدة . فينفق مما جعله الله مستخلفاً فيه ، عن نفس راضية وخاطر طيب ، مقروناً بذله ذاك ، بنظرة التعظيم والإجلال لما يبذل ولمن يبذل له .

وبهذا يتضح مدى الدور الكبير والمهم ، الذي يؤديه الخمس كفريضة ، على صعيد الأفراد والجماعات .

فعلى صعيد الأفراد الباذلين بهذه النفسية ، وبهذا التصوّر ، سوف يتخلّصون من عقدة الشحّ ، ومرض البخل ، اللذين قد يحوّلان صاحبهما الى كانز للذهب والفضة في خزائنه ، من دون احساس منه بما يعانيه اخوه الانسان من حرمان وشقاء .

وربما تحول هذا الكنز ، الى نوع من الصّنمية بالنسبة اليه ، يتوجه اليها بالعبادة والتقديس بمعنى من المعاني ، حيث يدفعانه الى الشرك الخفي .

هذا ، إضافة الى ما سوف يشعر به هؤلاء الباذلون ، من لذة امتثالهم لحكم الله في الارض ، واحساسهم المدعمً بالواقع العملي ، بأنهم عناصر فاعلة في بيئتهم ، ولبنات اساسية ونافعة ، بالنسبة للبنية الاجتماعية التي يعيشون ضمنها .

وأما على صعيد الأفراد والجماعات المبذول لها ، فانها بدورها سوف يجعلها هذا البذل المجرد عن المنّ ، والأذى ، تشعر بأنها ليست مخلوقات مسحوقة ، وطبقة دون ، وإنما هي عناصر إنسانية لها الحق في أن تحيا وتعيش في مستوى انسانيتها المكرّمة والمعظمّة. وأنها بدورها تشكّل لبنات ـ جنباً إلى جنب مع العناصر الباذلة ـ في البنية الاجتماعية.

وانها تدخل في صميم تفكير نظام الاسلام الاجتماعي . وفي صميم الواقع الانساني المعاش . لا انها كمّ مهمل من هذه الجوانب .

ولا اشكال في ان هذا الاحساس من قِبَلِ هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات ، سوف يجعلها تنشَدُّ الى أولئك الناس ، الذين أوتوا بَسْطَةً في العيش من الطبقات الثريَّه والمليَّة . وترتبط معها ، لا بروابط المصالح المادية الآنيّة فقط ، وانما بروابط الأخوة في الدين ، والمشاركة في الانسانية .

وبالتالي ، سوف تسدُّ آذانها عن كل دعوات التفرقة والبغضاء ، التي تحاول أن تنفخ نار الحقد في النفوس والقلوب لدى هؤلاء ، مصوِّرة لهم ، أنهم طبقة مسحوقة محرومة ، وان انسحاقها وحرمانها ، ناتجان عن سرقة اولئك المليئين لحقوقها ولقمة عيشها ، كما هو الحال بالنسبة لبعض التيارات الفكرية المعاصرة . والتي تقوم اطروحتها على اساس ذلك .

وبهذا تغلق ابواب الفتنة . وتخرس ابواق الحقد الاعمى . ويعيش المجتمع البشري في سلام ووئام ، كتلةً متراصّةً متكاتفة متكافلة . لا يفرّق بينها فكر او عمل . حيث تغيض الفروق الطبقية الحادة ، التي تكون عادة ، بؤرة خصبة لنمو الدعوات الهدّامة ، والأفكار السوداء الملفوفة بسجف الحقد والكراهية والبغضاء بين بني الانسان.

دور الخمس على الصعيد الاقتصادي للأمة

وقبل أن ندخل في بحث هذه النقطة بالذات بشكل موجز ، لا بد لنا من التذكير ، بما سبق وبيّناه في بحوثنا المتقدمة ، من أن الخمس ـ بناءً على الرأي الصحيح والمختار ـ إنما يجب اضافة الى غنائم دار الحرب في ستة اشياء هي :

ـ المعادن

- الكنوز
- ما يستخرج بالغوص من البحار او الانهار الكبيرة .
- الارض التي انتقلت الى الذمي من مسلم .
- الحلال المختلط بالحرام ولا يعرف مقداره ولا صاحبه .
- ما يفضل عن مؤونة الانسان ومصروفاته من الأرباح في نهاية السنة .

ويتضح الدور العظيم ، الذي يمكن ان تؤديه فريضة الخمس ، للامة الاسلامية على الصعيد الاقتصادي والانمائي ، ومدى مساهمتها بشكل فعال في تغذية خزينتها ، اذا القينا نظرة ، على الارباح الضخمة التي تجنيها بعض الدول الإسلامية كأثمان لبعض هذه الأمور الستة لا كلها، بشكل تقريبي.

فمن المعلوم ، ان المعادن هي عبارة عن عدة ثروات طبيعية مذخورة في الارض ، ورقعة الامة الاسلامية جغرافيا تعتبر بحق ، منجماً ضخماً لكل نوع من انواعها ، وهي : النفط - الغاز - الكبريت - الذهب - الفضة - النحاس - الحديد . الملح - الفوسفات . الى غير ذلك من المعادن .

وكذلك ، ما يستخرج بالغوص من اعماق البحار ، والذي هو من جملة موضوعات وجوب الخمس - خاصة اذا التفتنا الى ان جل الدول الاسلامية ، ان لم يكن كلها ، هي اقطار ساحلية - لا يقل اهمية من الناحية الاقتصادية ، ان من حيث الكم او الكيف عما يستخرج من بطن الارض من معادن . مثل :

اللؤلؤ - المرجان - الياقوت - الاسفنج - العنبر وإن أخذ عن وجه الماء . إلى غير ذلك من انواع .

ونحن لو اخذنا النفط مثلا ، وهو الشريان الحيوي للاقتصاد العالمي ، لوجدنا ان الدول الاسلامية النفطية ، تنتج اكثر الكمية العالمية منه بمفردها ، اذ ان احتياطي البترول في الشرق الاوسط يشكل حوالى ٦٧ ٪ من مجموع احتياطي العالم كله من هذه المادة . كما تعتبر منطقة الخليج بحيرة النفط العالمية . اذ تنتج وحدها حوالى ٦٠٠ مليون طن تقريبا سنويا .

ولو عرفنا بالمداخيل التقريبية لبعض هذه الدول ، من مادة النفط دون اي شيء اخر، لتبدّت لنا معالم الصورة واضحة جلية.

إذ بلغت ايرادات ثلاث دول اسلامية ، لا تعتبر هي الأغزر انتاجاً نفطياً في

المجموعة الاسلامية ، هي ايران والكويت وليبيا ، في سنة واحدة[1] ، مبلغ ستة مليارات وخمسماية مليون ليرة لبنانية ، اي ما يعادل الثلاثة مليارات دولارا .

فكيف اذا وضعنا في حسابنا ، ما تنتجه السعودية ، التي تعتبر اضخم خزان نفط طبيعي في العالم، أو دول الخليج الأخرى، وبقية الدول الاسلامية المنتجة لهذا المعدن . !؟ .

ثم اذا التفتنا الى ما تخزنه اراضي كل الدول الاسلامية من المعادن الاخرى كالذهب ، والحديد ، والكبريت ، والفوسفات ، والملح ، حيث تشتمل هذه الدول على جبال ضخمة وأراض شاسعة، تتكون من مئات المليارات من الأمتار المكعبة الغنية بهذه المواد الحيوية .

ولا يغرب عن البال ، ان غالبية دول الخليج ، وفي طليعتها الكويت ، كان المصدر الرئيسي لاقتصادها الى ما قبل عشرين عاما ، يعتمد على صيد اللؤلؤ ، وغيره من اعماق البحار ، في رحلات طويلة ومنتظمة .

واذا كان هذا هو الحال قبل عشرين عاما ، بوسائل بدائية بالنسبة لهذه الاقطار ، فكم هو ضخم ايراد هذه الصناعة - الغوص - في هذا الوقت ، بعد ان اعتمدت الاساليب الحديثة في الغوص ، وجُهِّزت اساطيل بحرية تجارية للقيام بهذه المهمة .

وقس على هذا بقية الأمور ، التي تعتبر موضوعات لوجوب فريضة الخمس .

والحقيقة ، ان هذه الفريضة ، يمكن ان تكون اداة جبارة في تطوير المجتمع الاسلامي ، والقضاء على البطالة فيه ، بايجاد المشروعات الحيوية التنموية الضخمة ، الى جانب القضاء على الفقر والجهل والمرض فيما لو أحسنت جبايتها ، وتنظيم استغلالها ، مع توزيع مبالغ منها بشكل مدروس ، وموضوعي على من يستحق من ابناء الأمة في حدود الصيغة التي بحثناها سابقاً .

☆ ☆ ☆

---

(١) هذه الاحصاءات موضوعة في اوائل السبعينات تقريباً . وقد وردت في الجزء الثاني من المجلد الاول من القضايا المعاصرة عدد تشرين الثاني /١٩٦٩ .

عود إلى أجواء الآية

بعد هذه الرحلة الطويلة مع آية الخمس في القرآن ، رأينا حكم الغنائم ، الذي أمر الرسول (ص) أن يبلّغه للمسلمين .

خمس منها لله ، والرسول والامام القائم بالأمر بعده (ص) . واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل من قرابة النبي (ص) يجب عليهم ان يدفعوه لمن عيّنته الآية الكريمة ، ان كانوا آمنوا بالله ، وما أنزل على عبده محمد يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، جمع المؤمنين ، وجمع المشركين .

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

وما أنزل على محمد (ص) يوم بدر هو القرآن :

وقد قيل : بأن المراد بما انزله سبحانه يوم بدر : الملائكة . وذلك غير مقبول :

أولاً : لأنه كان ينبغي حينئذ ان يعبّر بـ (مَن أنزلنا) إذ هو ما يناسب الملائكة ، لا بما أنزلنا كما هو الوارد في الآية .

ثانياً : ان الملائكة لم تنزل فقط على النبي (ص) ، بل نزلت مدداً للمسلمين جميعاً ـ بالتقريب المختار لنا من كونه مدداً قصد به رفع معنويات المسلمين ليس الا ـ مع ان ظاهر الآية يشير الى ان الانزال انما كان على خصوص النبي (ص) : « عَلَىٰ عَبْدِنَا » .

والتعبير عن يوم بدر بيوم الفرقان ، له مغزى كبير . فالفرقان لغةً ، كل ما يفرق به بين شيئين ، وقد كان يوم بدر فرقاناً بحق .

لقد كانت بدر فرقاناً بين حياتين للمسلمين

حياة عاشوها قبل بدر ، كئيبة ملؤها الأحزان ، تُنسج خيوطها الآلام ، ويسامون فيها ضروب العذاب .

وحياة ابتدأت مع بدر عاد فيها المغلوب المقهور غالباً وقاهراً .

وعادت فيها للمكبوت المحزون المسرّات والأفراح .

ونعم فيها المؤمنون ـ بفضل الله ـ بالطمأنينة والاستقرار .

ولقد كانت بدر فرقاناً بين مقياسين للحياة :

مقياس قبل بدر ، كانت تقاس به قيمة الانسان بمقدار ما يملك ، ويظلم ويسف الى مهابط الحيوان .

ومقياس بعد بدر غدت تقاس به قيمته ، بمقدار ما يعطي للحياة والأحياء في مجال القيم الانسانية ماديًا ومعنويًا . متوخياً من وراء ذلك رضوان الله ، ومتقرباً اليه .

ولقد كانت بدر فرقاناً بين مقياسين للنصر والهزيمة :

مقياس لهما ، كان لا يضع في الحسبان الا ما يتراءى للعيان من قوة عَدَدية وعُدَدِيّه . فجاءت بدر ، لتنسف هذا المقياس من أساسه . ولتوضح بما لا يقبل الشك ، ان القوى المادية كلها ، لا يمكن أن تحقق للانسان نصراً ، او تلحق به هزيمة ، مهما ضعف ، اذا كان يتسلّح بالإيمان بالله ، ويعتقد بأن النصر بيده يؤتيه من يشاء ، ويقاتل في سبيل إعلاءِ كلمته في الأرض .

واخيراً ، لقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل « يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ » . جمع المؤمنين الممثّل للحق . وجمع المشركين الممثل للباطل .

فكان النصر من عند الله ، للجماعة الممثلة للحق .

« وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

* * *

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

العدوة: بضم العين وكسرها، والضم هو المشهور، هي جانب الوادي، وحافته، والدنيا: صفة للعدوة، مؤنث الأدنى، من دنا يدنو، وهي في الأصل بمعنى الأقرب.

والقصوى: مؤنث الأقصى من قصا يقصو، وهي بمعنى الأبعد.

والمقصود بالركب: عير أبي سفيان وأصحابه.

وهذه الآية الكريمة، جاءت لتعرض صورة لموقع كلٍ من المسلمين والمشركين، قبل أن تبدأ المناوشات بين هؤلاء وأولئك، مقدمة لمعركة بدر، حيث لم يكن يفصل بين الموقعين، إلا جبل احتل المسلمون جانبه مما يلي المدينة، بينما احتل المشركون جانبه الآخر مما يلي مكة. دون أن يعلم أيّ من

الطرفين ما هو مخبأ له في الطرف الآخر.

في حين أن أبا سفيان، اغتنم فرصة انشغال المسلمين بتهيئة أنفسهم لمجابهة عدوهم، واستعداداتهم للقتال، فتحاشى بركبه موقعهم وانحدر نحو مكة، ليسلَم وتسلَم العير.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

تعجّبٌ وتعليق

عجيب أمـر هـذا التـوافق . وغـريب أمر هـذا التوقيت ؟!

لقد خرج المسلمون من المدينة ، لا يبغون قتالا ، بل يريدون الإستيلاء على عير قريش ، ضمن خطة يُقصد من ورائها شنّ حرب اقتصادية على العدو لإضعاف مركزه .

بل كرهوا القتال وجادلوا فيه ، عندما أمروا به .

وقريش كان باستطاعتها ان ترجع من دون قتال . بعد ان تحقّق لها الهدف الذي خرجت من اجله ، ونجت عيرها وتجارتها.

ولكن الله سبحانه اختار للمسلمين ما لم يختاروه . ووضعهم في مركز لم يرغب كثير منهم ان يكونوا فيه . حتى انهم لو تواعدوا على ان يجتمعوا للقاء قريش لأخلفوا وعدهم، بعد ان يطلّعوا على قوة عدوهم ، وضعفهم هم .

في حين ، انهم اجتمعوا الآن ، من دون تواعد على الاجتماع ، وذلك بتقدير منه سبحانه وتسبيب . ليقضي الله ما كان قد قدرّه ، من دحر الباطل واستئصاله ، واظهار الحق وإعلاء كلمته .

فكانت معركة بدر . وكان ما أراده سبحانه .

يقول عمير بن اسحاق : « أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله (ص) واصحابه . فالتقوا ببدر ، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقت السُّقاة ونَهَدَ الناس بعضهم لبعض »[1] .

---

(١) تاريخ الطبري /١٣/٥٦٧

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

كل ذلك لتتم الحجة على مَن مات كافراً فيعاقب باستحقاق .

ولتتم الحجة على مَن بقي حياً من الكافرين فيثوب الى رشده . ويرجع عن غيّه ، وكفره وحربه لله ورسوله والمؤمنين.

في نفس الوقت ، الذي تتم الحجة فيه على مَن ماتَ مؤمناً فيثاب وتتم الحجة فيه على من بقي حياً من المؤمنين ، فيثبت ايمانه . ويتعمق ، ويعلم ان الله سميع عليم .

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

* * *

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) ﴾

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

ثم جاءت هاتان الآيتان الكريمتان ، لتبيّنا كيف ان الله سبحانه ، قد أرى لنبيّه (ص) المشركين في منامه قلّةً ، حيث حدَّث اصحابه بما رأى ، مما بثَّ في نفوسهم الحماس واستشعروا معه الثقة والطمأنينة ، بعدما كانوا يستشعرونه من خوف وضعف وارتباك .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾

لطف إلهي :

وهذا ـ في الحقيقة ـ ان دل على شيء ، فإنما يدل على ذلك اللطف الآلهي بالمؤمنين ، إذ لو أرى نبيّه في منامه المشركين ، على ما كانوا عليه من عدد وعدَّة ، ثم حدَّث اصحابه بما رأى لانعكست النتيجة ، ولزاد شعورهم بالضعف والخوف ، مما سوف يؤدي حتماً الى الهزيمة والفشل . بعد أن يعيق هذا الشعور ، بعض المسلمين

عن أداء واجبهم في مجابهة الاعداء ، مع ما في ذلك من عرقلة تحركات باقي المسلمين وشلّهم عن القتال .

بل قد يؤدي ذلك الى الانقسام والتنازع بينهم ، حيث سوف يحاول البعض من ضِعاف النفوس ، ان يثنوا الآخرين عن مجابهة المشركين :

﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

والمقصود بذات الصدور : القلوب التي تكون في الصدور .

تساؤل وجواب

وهنا ، قد يتساءل البعض ، كيف يمكن أن يُرِيَ الله سبحانه ، نبيَّه المشركين قليلاً ، مع انهم كثير في الواقع ، مع علمه بكثرتهم ؟

بل رُوِيَ أنه كان قد أخبر اصحابه بأنهم ألف او يزيدون . . .

ويتضح جواب هذا التساؤ ل ، اذا وضعنا في حسابنا أن المقياس ليس هو الكثرة العدَديَّة والعُدَدِيَّة . فان المشركين وإن كانوا في الواقع كثيري العدة والعدد ، إلا أنهم لم يكونوا بكثرتهم تلك يحاربون المسلمين الذين يقلّون عنهم بشكل كبير .

بل كانوا في الحقيقة يحاربون الله ، ولذلك سوف لن يكون لكثرتهم تلك ، الا اثر قليل ، هذا اذا لم يكن لهم اثر على الاطلاق .

فالنبي (ص) ، قد رأى بعين بصيرته لا بصره ، قلةَ ما سوف ينتج عن تلك الكثرة المحسوسة من أثر ، فأخبر أصحابه ، فتحمسوا وتشجَّعوا ، وذهب عنهم ضعفهم الذي كانوا يستشعرون .

لطف إلهي آخر :

ولم يقتصر لطف الله بعباده المؤمنين ، أن أرى نبيّه (ص) المشركين قليلاً ، بل تعداه الى إراءته المسلمين للمشركين بالعين الباصرة قلة أيضا عند التقائهم في القتال :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾

فقد روي عن ابن مسعود أنه قال : رأيناهم قليلاً حتى قلت لمن كان الى جانبي : أتراهم سبعين رجلاً ؟ فقال لي : هم نحو المائة . فلما أسرنا رجلاً منهم سألناه كم كانوا ؟ فقال : الفاً .

وقد يكون منشأ رؤ ية المسلمين لهم بهذه القلة بعيونهم ، وجود مانع مادي منع من رؤ ية جزء من جيش المشركين ، كغبار كثيف ، او نشز من الأرض او ماشابه .

ويمكن ان يكون منشاؤه صرف ابصارهم كلّية عن رؤ ية جزء من عدوهم ، وهو ليس على الله ببعيد ، الله القادر على ان يحول بين المرء وقلبه .

رأي وتعليق

وقد قيل ، بأن تقليل المشركين في اعين المسلمين ، لم يكن تقليلاً حسياً مادياً ، وانما كان تقليلاً معنوياً ، بمعنى ان الله سبحانه أراكم - ايها المسلمون - المشركين عند التقائكم بهم قليلا (بما اودع في قلوبكم من الايمان بوعد الله بنصره لكم . وتثبيتكم بملائكته ومن احتقارهم والاستهانة بهم) .

فالتقليل هنا - على هذا - ليس تقليل عدد وعُدَد بل تقليل شأن وأثر مبعثه وعي المؤمنين لحقيقة هؤلاء الاعداء . وخسة الغرض الذي يحاربون من أجله ، الا وهو إعلاء كلمة الطاغوت . وضآلة تفكيرهم وصغار عقولهم وهم يحاربون الله بجبروته وعظمته .

مع ادراك المؤمنين ايضا لحقيقة دورهم ، وانهم انما يحاربون لاعلاء كلمة الله في الارض . وان الله معهم .

كل ذلك يدفعهم الى استصغار شأن اعدائهم والاستهانة بهم . وهو معنى رؤ يتهم لهم قلة .

ولكن هذا المعنى لا يتناسب مع ظاهر الآية الكريمة . حيث ذكرت ان رؤ ية المسلمين للمشركين قلة . انما كانت رؤ ية بواسطة عيونهم .

« فِي أَعْيُنِكُمْ »

التي هي حواس إبصارهم . ولا ينافي هذا ، ما سبق وذكرناه في رؤ ية النبي

(ص) المشركين قلة . وذلك لاختلاف الرؤيتين : رؤية البصيرة هناك باعتبار حصولها في منامه (ص) . ورؤية البصر هنا .

مع لطف إلهي جديد

وفي قبال رؤية المسلمين للمشركين قلة ، رؤية المشركين للمسلمين قلة كذلك .

« وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ »

ولذا روي عن أبي جهل قوله يومئذٍ : إنما اصحاب محمد أكلة جزور . « كأنه يقول : نتغدّاهم ونتعاشهم في يوم واحد ، وكانوا يأكلون في كل يوم جزوراً »[1] والجزور : الناقة .

وإذا كان في تقليل المشركين في عيون المسلمين ، لطف منه سبحانه بالمؤمنين ، ليرفع من معنوياتهم ، ويبثّ في قلوبهم الوجلة السكينة ، وبالتالي يُقْدمون على قتال العدو ، فإن في تقليل المسلمين في أعين المشركين لطفاً آخر ، يقصد منه إغراء المشركين بقتال المسلمين ، لتدورَ الدائرة عليهم ، ويتحطم غرورهم وكبرياؤهم ، وتطوى صفحة مظلمة من صفحات تاريخ الانسان :

« لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا »

ولا رادّ لقضاء الله وقدره ، فهو المبدأ واليه المنتهى . . .

« وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ » .

نُقْلَةٌ بين آيتين

وقد وردت في سورة آل عمران ، في معرض وصف معركة بدر آية ، ربما يتوهم أنها تتنافى مع هذه الآية في سورة الانفال .

حيث ان هذه الآية هنا ، تنصّ على أن الله سبحانه قللّ المسلمين في أعين المشركين :

---

(١) تفسير المنار ١٠/٢٣

«وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنِهِمْ»

بينما الآية الأخرى، في سورة آل عِمران تنص على عكس ذلك وهذه الآية هي :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾[1]

بناءاً على أن الضمير في (يرونهم مثليهم) يرجع الى الفئة المؤمنة . أي ان الفئة الكافرة ترى الفئة المؤمنة ضعفي عددها .

ولكن هذا التوهم يرتفع بمجرد ان نضع في حسابنا ان التنافي لا يتم ، الا اذا اتحد الموقف الذي تتحدث عنه الآيتان وذلك مما لا دليل عليه . اذ قد يكون تقليل المسلمين في اعين المشركين ، سابقاً زماناً على بدء القتال ، وذلك لاغرائهم بقتال المسلمين ، في حين ان تكثير المسلمين في أعينهم انما يكون بعد نشوب المعركة واحتدامها ، لتثبيط همم المشركين والقاء الخوف في قلوبهم فيفشلوا ويمنوا بالهزيمة .

فكل من تقليل المسلمين وتكثيرهم في اعين المشركين ، كان لحكمة في فترتين زمنيتين مختلفتين .

واذا اختلف الزمان فلا تنافي .

درس وعبرة

بعد هذا العرض ، نود ان نقف قليلاً لنرى ، ماذا يمكن أن نستفيده ، من محتوى هذه الآيات بشكل عام على ضوء ما نفهمه من المنطلقات الجوهرية لهذا الدين الحنيف . وما هي دلالة قضاء الله سبحانه في كل ما تضمنته من تفصيلات .

وما هي دلالة ذلك التوقيت الدقيق لتحرّك الفريقين في اتجاهين متقابلين . والذي ادى الى احتلال كل منهما جانباً من جانبي نفس الوادي .

وما هي دلالة إراءة الله سبحانه نبيّه المشركين قلةً .

وما هي دلالة تصرفه تعالى بأبصار الفريقين بشكلين مُتعاكِسَيْن ، بأبصار

---

(١) آية /١٣

المسلمين حتى رأوا المشركين قلة ، وبأبصار المشركين حتى رأوا المسلمين كذلك قبل ابتداء القتال ، وكثرةً بعد احتدامه .

والذي نستخلصه من كل ذلك ، أمر يستحق الإنتباه ، لأنه من المقومات الأساسية في التصور الإسلامي ، ألآ وهو الإيجابية .

ايجابية الله سبحانه ، التي تدخل على أساس منها فقضى بكل ما عَرَضته الآيات الكريمة من أحداث ومواقف ، وبالتالي ليكون ما قضاه دون غيره .

الإيجابية التي تبينّ بجلاء، أن الله في الاسلام، ليس ربّاً سلبياً لا يهمّه من شؤون الخلق والعالم شيء كما تُصوره بعض العقائد ، وليس ربأطاغياً حاقداً على خلقه ، يتربص بهم دائماً الدوائر. وإنما هو إلّه حان عطوف. يرعى الكون والانسان والحياة، ويدير شؤونها كلها بحكمة بالغة ، ودقةٍ متناهية . يسمع أنَّة المظلوم ويجيب المضطر اذا دعاه ويَكشف السوء ، ويقبل التوبة عن عباده ، ولا يرضى ان تمتهن كرامة هذا المخلوق بحال .

وهذه الايجابية لا تقتصر على معركة بدر وحدها . وانما برزت جليَّةً في كل موقف حرج من مواقف المسلمين ، حيث كان سبحانه يتدخل في اللحظة المناسبة ، ليقرر النتيجة التي تضيف صفحة جديدة مشرقةً الى صفحات هذه الدعوة وهذا الدين .

ولتُسجِّل موقفاً جديداً من مواقف الخزي للفئة الكافرة بالله والقيم الإنسانية ، مع ما يتمخض عنه هذا الموقف من هزيمة ، واندحار .

برزت هذه الايجابية، في الصغير الصغير من الأمور.

ويكفينا مثالاً على ذلك ، ما ورد في سورة المجادلة[1] .

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

---

(١) آية ١ ـ و٨.

كما برزت في العظيم الخطير من الأمور المصيرية في حياة البشرية .

يكفينا مثالاً على ذلك ، ما حكاه القرآن الكريم من قصة موسى (ع)[1] :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

بهذه الايجابية ، كانت القدرة الآلهية تقضي في كل شأن من شؤون الحياة والإنسان ، صغر ذلك الشأن او كبر .

والى هذه الايجابية نفسها ، تشير احداث بدر ، التي حكت لنا طرفاً منها الآيات الكريمة المتقدمة .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

النداء الإلهي ودلالاته

حفل القرآن الكريم بالنداءات الإلهية، وتنوّعت تلك النداءات، من

---

(١) القصص /٧ ـ ١٣

حيث الألسنة ومن حيث المنادى.

فقد نودي فيه الأشخاص، بأسمائهم تارة:

« يا عيسى »[1] « يا موسى »[2] « يا داوود »[3] « يا يحيى »[4] وبأوصافهم أخرى:

« يا ايها النبي »[5] « يا أيها الرسول »[6]

كما نوديت الجماعات والطوائف والشعوب فيه:

« يا بني إسرائيل »[7] « يا أهل الكتاب »[8]

وَوُجِّه النداء أيضاً في القرآن الى الناس جميعاً :

« يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله »[9]

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[10]

ثم جاءت هذه الآيات الكريمة بنداء موجه إلى جماعة المؤمنين. وقد تضمن هذا النداء إلى الجماعة المؤمنة عدة نصائح وتوجيهات وأوامر، كفيلة فيها لو عمل المؤمنون بها، والتزموا بمؤداها أن توصلهم إلى النجاح والفلاح.

الأمر الاول : وأول هذه الأوامر الأمر بالثبات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ ﴾

والصمود في ساحة المعركة ، والثبات في وجه العدو ، هو الدعامة القوية التي لا تكشف فقط عن البطولة والشجاعة ، والتفاني في سبيل الذود عما يعتقده الإنسان ويعتنقه ، بل هو الطريق الذي يؤدي دائماً الى النصر المؤزر ، او الموت بعزة وإباء .

الثبات في المجابهات الفِكْرِيَّة

والآية الكريمة ، وان كانت بمناسبة نزولها بعد معركة بدر ، تأمر المسلمين بالثبات

---

(١) المائدة /١١٦
(٢) طه /١١
(٣) ص /٢٦
(٤) مريم /١٢
(٥) الطلاق /١
(٦) المائدة /٤١
(٧) البقرة /٤٠
(٨) آل عمران /٦٥
(٩) فاطر /١٥
(١٠) الاعراف /٣١

والصمود في وجه العدو في الحرب والقتال ، الا اننا يمكننا ان نسرّي الحكم ، وهو وجوب الثبات امام العدو ، حتى ولو كانت المعركة معركة فكرية ، من خلال توسعنا في مفهوم الفئة الى ما يعم الفئة العدوّة المقاتلة للمسلمين ، في ساحات الفكر والعقيدة أيضاً .

وعليه ، فلو كانت هنالك مجموعة تحمل قيماً فكرية تناقض الاسلام في قِيَمِه لوجب التصدّي لها .

ولوجب الثبات في وجهها والصمود امامها ، لمقارعة الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل والبرهان ، حتى آخر لحظة . وذلك لكشف زيف ما تعتنق وفساد ما تعتقد .

شاهد من تاريخ الاسلام

ولعل في قصة المباهلة بين النبي (ص) ونصارى نجران ، اكبر دليل على ضرورة الثبات في أية مجابهة فكرية بين الداعية الى الله واعداء الله . حتى ولو أدىّ ذلك الى تحكيم الله بشكل مظاهرة معلنةٍ لينزل عذابه السريع في الدنيا ، بل في نفس اللحظة بالظالمين الضالين :

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (١)

وعند الوصول الى مثل هذا الموقف ، يكون الانسان قد حقق قمة الصمود والثبات على المبدأ ، وعندها يتقهقر الخصم ، ويصيبه العيّ والفشل ، ويتحقق النصر لكلمة الله في الارض . وهكذا كان .

وما احوج المسلمين في هذا العصر ، الذي كثر فيه المضلّلوُن والمضلُّلون ، الى تبنيّ هذا المبدأ العظيم ، مبدإ الثبات امام الهجمات الظالمة والمتلاحقة على الاسلام وقيمه الفكرية ، لكشف زيفها وبطلانها ، خاصة واننا في الاسلام ، نملك الاصالة والحجة والبرهان والحقّانية الكفيلة كلها بأن تظهر دين الله على الدين كله ولو كره الكافرون .

---

(١) آل عمران /٦١

ولكن تحقيق هذا المبدأ ، يحتاج من المسلمين انفسهم ان يطّلعوا اولاً على ماحواه هذا الدين ، من قيم فكرية معمّقة ومشرقة فيسلحوا أنفسهم بها امام مدّعي العلم والفهم والثقافة. وإلا كانوا كساعٍ إلى الهيجاء بغير سلاح.

الثبات في المعارك الحربية

والثبات في المعارك الحربية ، ليس بأقل أهمية من الثبات في المعارك الفكرية ، فلكل دوره في تحقيق النصر . وكلاهما أمر لا يمكن الاستغناء عنه .

ولذلك نجد الاسلام قد حثّ أتباعه على الثبات في مواجهة العدو . الثبات هكذا بإطلاقه من دون تقييد بنوع خاص من المعارك :

« إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتوا »

وبلحاظ ما للثبات من دخالة اكيدة في قطف ثماره وهي النصر المؤزّر ، نرى الاسلام وقد شرع تشريعاً لا يُمكن مع الحدب على تطبيقه من قبل المسلمين ، الا وان تكون الغلبة لهم على عدوهم في أية مجابهة بينهم وبينه .

هذا التشريع ، هو حرمة الفرار من الزحف .

بل اكثر من هذا ، جعل الاسلام الفرار من الزحف ، من الكبائر التي توعّد الله صاحبها عليها النار ، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١)

وتأكيداً لعنصر الثبات في المواقع الحربية من قِبَل الاسلام نرى أنه قد حَكَمَ بعدم جواز ترك قتال المشركين والكافرين إلاّ بأحد أمور . لو تأملناها مليّاً لوجدنا ان كل واحدة منها تؤدي الى ضمان هذا العنصر المهم من عناصر النصر وهذه الأمور هي :

---

(١) الأنفال /١٥ ـ ١٦

أولاً : ان يطلب الكافر الأمان من المسلم فيؤمنه ، بشرط أن تكون في ذلك مصلحة للمسلمين . كأن يُطمع بدخوله في الاسلام عندما يختلط بأهله . أو يمكن الاستفادة منه في كشف عورات الكافرين ونقاط الضعف عندهم بحكم معرفته بها . أو يكون عيناً للمسلمين على اعدائهم .

الثاني : التسليم والرضا بحكم النبي (ص) او الامام (ع) .

الثالث : الدخول في الاسلام .

الرابع : ان يدفع الكفار الجزية للمسلمين ان كانوا كتابيين ويلتزموا بأحكام الذمة .

الخامس : عقد الهدنة مع الكفار مدة معينة اقصاها عشر سنين بشرط ان يكون فيها مصلحة للاسلام والمسلمين ماديا ومعنويا .

الأمر الثاني : وثاني هذه الاوامر الإلٓهية الاكثار من ذكر الله .

ولا ريب في أن ذكر الله في اي وقت ، مما له اكبر الأثر في حفز الهمم وشحذ العزائم .

ذلك ان الذاكر لله ، يشعر بأنه مرتبط بتلك القوة العظمى في الكون ، والتي لا يغلبها شيء ، ولا تقوى قوة مهما عظمت على أن تقف في وجهها ، فيطمئن قلبه ، وصدق الله العظيم حيث يقول « أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ » .

ولكن الأمر بالإكثار من ذكر الله ساعة لقاء العدو بالخصوص مما يمكن أن يكون له أثر آخر يتعدىّ حدود الانسان الذاكر ليشمل العدو نفسه .

ذلك أن جيش الايمان عند ترديده لذكر الله سبحانه . وزمجرته باسمه تعالى ، ورفع الاصوات عالياً حتى لتكون كهزيم الرعد سائلة منه النصر ، وطالبةً الغوث وشدّ الأزر ، ان هذه الاصوات سوف توقع الارتباك في جيش العدو ، وتخلخل صفوفه ، وتبلبل رؤ يته وبالتالي سوف يكون مصيره الهزيمة والدمار .

وهذا واقع ملموس ، في تلك الحروب التي خاضها المسلمون ضد اعداء الله على امتداد الزمان والمكان ، حتى لا يخلو عصرنا الحاضر منه ، من خلال بعض المعارك التي عشناها بين جيوش المسلمين وجيوش اعدائهم ، في كشمير والجولان وسيناء .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

الأمر الثالث : وثالث هذه الأوامر إطاعة الله ورسوله

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

وما دامت الآيات الكريمة ، في مقام التوجيهات الإلهية لجماعة المؤمنين ، ليأخذوا بأسباب النصر ، ويعملوا بها فينالوه . كان لا بد من ذكر اطاعة الله ورسوله ؛ ذلك أن إطاعتهم هذه لله ولرسوله ، لها مدلولات ضخمة ، وآثار كبرى . . .

إن إطاعة المؤمنين لله ورسوله قبل بدء المعركة ، وأثناءها ، وبعدها ، تعني استسلامهم لأوامر الله ونواهيه ، من خلال رسول الله (ص) ، وذلك يستبطن في حقيقته ، ضرورة الالتفاف بشكل جوهري ؛ حول قيادة واحدة ، بمشاعر واحدة ، تتحكّم فيها شريعة الله وأحكامه .

وبذلك فقط ، يمكن ان يتحصّن المؤمنون ضد التفرّق والتّشتت وبالتالي الضعف والدمار .

وذلك شيء طبيعي . . .

إذ إن نبذ شريعة الله وأحكامه ، معناه اتباع الأهواء والنزعات الفردية ، مع ما يستتبعه من توزّع القيادة وتعدّدها ، فتقع الفوضى ، ويستبدّ الوهن ، وتفتك الإنقسامات . ولعله إلى هذا يشير قوله تعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

وذهاب الريح ، كناية عن تفتت القوة وتلاشيها ، اذ ان الريح تطلق ويراد بها العزّ والدولة . قال عبيد بن الأبرص :

كما حميناك يوم النّعفِ من شَطَبٍ

والفضل للقوم من ريح ومن عدد[1]

وذكر الراغب الأصبهاني « ان الريح في الآية بمعنى الغلبة ، استعارة ، كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبّت عليه ، وتقلعه وتذهب به ، والغلبة على العدو ، يفعل

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٥٤٨/٤

به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها . . . »[1] .

جولة مع الماضي :

نعم . . ان عدم اطاعة الله فيما شرع ، ورسوله فيما بلّغ . يستبطن خطراً أيما خطر ، يتجسّد في تحكيم الأهواء والنزعات ، وتقديم كل شخص مصلحته الفردية ، وخضوعه لعالم الضرورات في لحظة من لحظات الضعف البشري ، عيناً كما حصل لهم في معركة أُحُد كما يحدثنا الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾[2]

الأمر الرابع : ورابع هذه الأوامر الإلٓهية : الأمر بالصبر . . .

﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

والصبر ، هو قمة الصمود في مواجهة الصعاب والشدائد . وباعتبار ان كل الخطوات المتقدمة ، والتي تضمنتها الأوامر الإلٓهية ، إنما ترتكز على قاعدة جوهرية صلبة هي الصبر ، فقد توّجت تلك الأوامر بالأمر به . وبالتالي ، لا يمكن تحقيق أي وجه من وجوه الجهاد الصادق الحق ، من قِبَل أي إنسان يدّعي الإيمان إلا بالصبر ، ومن هنا جعل النبي (ص) الصبر نصف الايمان عندما سئل عنه، والنصف الثاني هو السماحة .

والصبر كما يكون على بلاء الله ، لا بد وان يكون عند نِعَمه .

والصبر على البلاء ليس معناه في الاسلام التخاذل والإستكانة والضعف ، كيف والإسلام يذم أولئك النفر من الناس ، الذين يرتضون البقاء في الذل ، ولا يحاولون تغيير واقعهم الفاسد الى افضل . . . حيث يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ٩/٩٤

(٢) آل عمران /١٥٢

قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١)

وإنما موضع الصبر في الإسلام، هو تلك القضايا والمواقف التي نراها كلما بذل الانسان جهده لحلها وتذليلها ، يعجز ويُغلب ، حتى يستنفد كل ما لديه من طاقة في هذا المجال . وعندئذٍ يكون قد أبرأ ذمته مما هو مطلوب منه وعندئذٍ يسلّم أمره الى الله ويصبر ، لإدراكه بأن حلها بيده ، وقد جاء دوره سبحانه ، ليرفع الغمّة ، ويدفع البلاء .

وعلى هذا المنحى من الفهم ، تُحمَلُ كلمة سيد الشهداء(ع) إبأن نهضته المباركة « فَمَن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق . ومَن ردّ عليّ هذا اصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق » .

واما الصبر عند النعمة ، فمعناه أن يحسن الإنسان المُنْعَمُ عليه من قِبَلِ الله سبحانه ، استغلال تلك النعمة في الوجوه التي يكون لله فيها رضىً .

ولا أقلّ من عدم استغلالها فيما يكون معصية للّه المنعم ، وموجباً لسُخطه وجلبِ نِقمته .

ولا إشكال في ان من اوضح الواجبات التي تترتب على الانسان المنعَم عليه ، هو شكر المنعِم . فان ذلك مما يحكم به العقل ، وتقضي به السيرة العقلائية في كل زمان ومكان . . .

وشكر نِعَمِ الله قولاً وعملاً ، مما لا إشكال ولا ريب في انه يكون موجباً لتواتر النِعَم منه سبحانه . كما أن كفرانها يكون موجباً لمحقها ورفعها . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (٢)

وبهذا المعنى ، ورد الحديث عن أهل بيت العصمة (ع) :

« إن للنِعَمِ أوابدَ كأوابدِ الطير فقيّدوها بالشُكْر »

وفي كلا الحالين ، حال الصبر على النعمة ، وحال الصبر على الفتنة والنقمة ، يكون الإنسان الصابر شديدَ الاتصال بالله ، يضعه نصب عينيه ليشكره على نعمه ،

---

(١) النساء /٩٧.

(٢) ابراهيم /٧

او ليستعينه في دفع او رفع نقمه . ولا ريب في ان الله تعالى ، المطلع على سريرة مثل هذا المخلوق ، العالم بصدقه في صبره في الحالين ، سوف لن يخيّب ظن عبده به ، إذ لا بخل بساحته . ولذا فإنه سوف يكون عند حسن ظن ذلك العبد به ، فلن يتركه او يتخلّ عنه . بل هو معه لا بمقارنة ، في كل خلجة وفي كل نَفَس ، وفي كل لحظة . بل في كل خاطرة . . .

« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ »

* * *

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

نهي بعد سلسلة أوامر

بعد ان انتهت سلسلة الأوامر الإلٓهية الموجَّهة الى جماعة المؤمنين ، والمُوَجِّهةِ لهم نحو ما فيه نصرهم ، وعزتهم ، ومنعتهم . انعطفت الأيات التالية ، الى توجيه أنظارهم ، نحو ما لا يجوز لهم ان يقعوا فيه ، مما يكون سبباً في هلاكهم ، ويجرّهم الى خزي في الدنيا ، وعذاب في الآخرة . كما كان الامر بالنسبة لأعدائهم وأعداء الله . . .

﴿ وَلَا تكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجواْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾

شتّان ما بين هجرة وهجرة ! . . .

هنالك أنواع من هجرة فرد أو جماعة من ديارهم إلى ديار أخرى . ومن أرض إلى أرض . ومن بلاد الى بلاد .

والمفرد لهذه الأنواع كلها والمصنِّف . إنما هو الغرض الذي من أجله حصلت تلك الهجرة ، أو تحصل . ويمكن تصنيف هذه الهجرات في نوعين رئيسين :

وأعظم الهجرات وأكرم ، هي تلك التي تكون الى الله ورسوله . ومن الواضح ، أن الهجرة اليهما ، انما هي بلحاظ ما يرمزان اليه ، من قِيَم الخير المطلق ، والكمال اللامحدود . وإلا فمن البديهي عدم محدودية الله سبحانه في مكان بعينه ، ليكون التوجه الى ذلك المكان هجرة في ذاته .

ومن هنا ، كان الانتقال الى اي مكان في الارض لطلب العلم هجرة في حد ذاته ، وما ذاك ، الا لأنه يقرِّب حامله العامل بمضمونه الى ربه ، ويجعله اكثر خشية منه وخوفاً . ولذا يقول عز شأنه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (١)

وبطريق اولى ، فان هجرة الانسان بدينه من الظالمين ، خوفا من أن يفتنوه ، او يعيدوه في ملة الكفر بعد أن شرح الله صدره للإيمان. ولكي يمارس شعائره بضمير مرتاح ، ونفس مطمئنة دون خوف او تقية ، هي هجرة الى الله ، بل جهاد أيما جهاد ، اذ تكشف عن إخلاص وانقطاع الى الله سبحانه لا يدانيه شيء . . .

وليس من المتعين علينا بهذا الصدد ، ان نفهم الهجرة هنا ، بمعناها الاصطلاحي . بل يمكن ان نعمم مفهوم الهجرة ، الى ما يشمل اي شكل من أشكال الانفصال بين الانسان المؤمن، وبين المجتمع المنحرف الذي يعيش فيه.

ولذا يمكن ان تصدق الهجرة حتى على مجرد اعتزال الانسان للبيئة الكافرة ، حتى ولو لم يضرب في الأرض مبتعداً عنها .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن العديد من الهجرات ـ بهذا المفهوم ـ التي قام بها أشخاص يمثلون كل الاصناف التي يتكوّن منها المجتمع البشري ، انطلاقاً من القمة وانتهاءاً بالقاعدة على امتداد التاريخ . . .

فقد حكى سبحانه عن هجرة ابراهيم عند اعتزاله لقومه الكافرين :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ (٢)

---

(١) فاطر /٢٨

(٢) مريم/٤٨

وعن موسى عندما هاجر من مصر الى مدين :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1]

وعن صالح :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾[2]

وعن أهل الكهف :

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ﴾[3]

وعن عيسى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾[4]

وكذلك عن مريم ، وزكريا ، ونوح ، ولوط ، وهود وغيرهم . . .

الهجرة المضادة

وهناك نوع آخر من الهجرة ، هجرة يكون منشأوها انحراف الفطرة البشرية عن الطريق السّوي . وتغلّفها بأقذار المادية . وتمرغها بأوساخ الحياة الدنيا .

هجرة مضادة ، لأنها هجرة الى الكفر والإلحاد. وهجرة الى الشيطان والطاغوت . . .

---

(١) القصص /٢١

(٢) الأعراف /٢٩

(٣) الكهف /١٦

(٤) آل عمران /٥٢

مقياس واضح

إذن . . . يوجد مقياس واضح ، بين الهجرة التي أرادها الله سبحانه ، وحثّ عليها ، وبين الهجرة التي نهى عنها وحذّر منها . . .

ذلك المقياس هو . . . اللــــه . . .

فكل هجرة تكون إلى الله ، بمعنى أن يكون الهدف منها أمراً ينسجم مع كلمة الله واعلائها في الارض ، وترمي الى الدفاع عن دينه ، وحماية شريعته ، تكون هي الجهاد ، وتكون هي العطاء . . .

في حين ، ان اية هجرة تكون لتحقيق هدف يعاند الخط الإلٓهي ، وليست في صالح المجتمع العابد في الأرض ، ولا في مصلحة الانسانية الصالحة ، فهي هجرة مضادة ، وتكون هجرة الى محاربة الله والصدّ عن سبيله . . .

ولعل قول رسول الله (ص) يوضح هذا المقياس :

« أيمّا رجل هاجر الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . وأيمّا رجل هاجر لدنيا يطلبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه . . . »

عَوْدٌ إلى أجواء الآيات

ويأتي النهي الصريح من الله سبحانه للمؤمنين ، عن ان يكونوا في خروجهم الذي تتحدث عنه سورة الأنفال ، وهو الخروج الى بدر ، او في اي خروج لهم في مستقبل الزمان ، بعقلية وروحية خروج المشركين الى بدر ،ونَفْرهم لملاقاة المسلمين في تلك الوقعة .

عقلية الجاهلية المسفَّة ، لكل ما ترمز اليه من صلف ، وكبرياء أجوفين . يغلّفهما البطر ، ويحدوهما الرياءّ . ويحمل رايتها الشيطان بما ينتقش عليها من الوان الإغراء والوعود الكاذبة ، التي تحجب الرؤ ية الواقعية للأشياء ، حيث تجرف الإنسان بعيداً عما رُسِم له من حدود ، وأوتي من إمكانات . . .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾

والمقصود بالذين خرجوا من ديارهم ، والذين نُهِيَ المؤمنون عن التمثّل بهم في

منطلقات خروجهم ودوافعه ومواصفاته ، المشركون الذين هبوا بقيادة أبي جهل ، ليدافعوا عن العير التي تحمل تجارتهم وأموالهم ، عندما بلغهم خبر خروج المسلمين من يثرب للإستيلاء عليها . . .

مصبّ النهي الإلٓهي

ومن الواضح ، أن مصبّ النهي الإلٓهي للمؤمنين في المقام ، انما هو بلحاظ الدوافع والأهداف التي كانت تدفع وتجذب اولئك العتاة المشركين في خروجهم المذكور .

وهذه الدوافع والأهداف هي بنص الآية الكريمة ثلاثة :

البطر ، والرياء ، والصد عن سبيل الله .

﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

وهذه الدوافع والاهداف ، كلها في نظر الاسلام ، أمراض نفسية ، وجرائم خلقية ، لها آثارها الموضوعية الفاسدة ، لا على صعيد صاحبها فقط ، وانما على صعيد المجتمع الإنساني ككل .

لقد أراد الإسلام أن يوجد المجتمع العابد في الأرض . ولا يُعقل أن يوجد مثل هذا المجتمع ، إلا عندما يتربىّ فيه الفرد والجماعة تربية نفسية وخلقية ، تسمو به عن الإنحطاط والتمرغ في حمأةِ الرذيلة ، والتلوّث بالصفات القبيحة المنفّرة . والإبتعاد عن محامد الأفعال ومكارم الخلال.

البطر مرض نفسي

والبطر لغة عبارة عن الأَشَر والحيرة والدَهَش من قلة احتمال النعمة ، والطغيان بها ، وقلة القيام بحقها . وصرفها إلى غير وجهها .

وقد ذكِر البَطَرُ بهذا المعنى في القرآن المجيد ، في مقام ذم اولئك الذين لم يصبروا على نِعَم الله الكثيرة ، فلم يرعوها حق رعايتها فيقول سبحانه :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [1]

وبطِرَ الحق : تكبّر عنه ولم يقبله ، ولا يراه حقاً .

وبطِرَ الشيء : كرهه من غير أن يستحق الكراهة .

هذه هي الوجوه التي يفسّر بها معنى البطر . وهي كلها ان كشفت عن شيء ، فإنما تكشف عن أن الإنسان البطِر ، هو مخلوق غير سوي التكوين النفسي ، يعاني العُقَد والإنحرافات . ويحسّ في اعماقه بالاتّضاع الذي يحاول ان يعوّض عنه بالتعالي على الحق وأهله ، وتنكّب طريقه ، ومعاداة اتباعه .

والبطَرَ بجميع وجوهه ، قد تجسّد في سلوك أبي جهل وزمرته الحاقدة في بدر . . .

يعكس ذلك ما ينص عليه القرطبي [2] حيث يقول « وكانوا - يعني المشركين - قد خرجوا بالقيان والمغنّيات والمعازف . فلما وردوا الجحفة ، بعث خُفاف الكناني - وكان صديقاً لأبي جهل - بهدايا اليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال . وإن شئت أمددتك بنفسي مع مَن خفّ من قومي . . . » .

ثم يكمل القرطبي ، مصوراً ذلك التعالي الفارغ ، والغرور الأجوف ، والصلف الأحمق ، والتجبر الأخرق الذي يطفح به جواب ابي جهل على عَرْض صديقه خُفاف فيقول : « إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ، فوالله ما لنا بالله من طاقة ، وان كنا نقاتل الناس فواللّه إن بنا على الناس لقوة . والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نردَ بدراً ، فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان . . . » .

والله سبحانه ، في مقام تنبيه المؤمنين إلى شرور هذا المرض النفسي ، البطر ، ينهاهم من أن يقعوا في مخاطره التي من أوضحها البُعد عن الله ، واستيجاب غضبه ونقمته . بل عليهم في المقابل أن يدركوا مدى نِعَم الله عليهم . ويتذكروا باستمرار كيف كانوا ، والى ماذا صاروا بفضل تلك النِعَم المتواترة . ثم يعرفوا مصدرها فيؤدوا حقها ، بشكرها على الوجه المطلوب ، ليكون ذلك الشكر سبباً للمزيد من النِعَم كما وعد رب العزة .

﴿ لِئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

---

(١) القصص /٥٨

(٢) تفسير القرطبي /٨/ ص /٢٥

الرئاء : لغة في الرياء ، وسُهّلت الهمزة الى الياء لسلاسة اللفظ . وهو مصدر راءى .

الرئاء أو الرياء : عبارة عن « فعل لا تدخل فيه النية الخالصة ، ولا يحيط به الإخلاص » .

أو هو «ترك الإخلاص في العمل، بملاحظة غير الله فيه . وهو فعل الشيء لإرادة الغير» . . . والفرق بينه وبين السمعة ، أن الرياء يكون في الفعل، والسمعة تكون في القول . . .

وقد يطلق على تظاهر الإنسان بخلاف ما يبطن[1] .

ومنه قول الشاعر التهاميّ :

ثـوب الريـاء يشفّ عما تحتـه ... فإذا التحفت به فإنكِ عارِ

وقد ورد بالمعنيين في كتاب الله تعالى :

﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2]

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[3]

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[4]

مطابقة الحكم للموضوع

والوجه في انطباق هذا المرض النفسي على المقام الذي تتحدث عنه الآية الكريمة ، هنا في هذه السورة . هو أن أبا جهل وزمرته ، عندما خرجوا بهذا الشكل المسرحي الأجوف ، بقيانهم ومعازفهم وأبّهتهم ، إنما خرجوا للسمعة والمباهاة ،

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني / مادة / رأي

(٢) النساء /١٤٢

(٣) الماعون /٦

(٤) النساء /٣٨.

وليحاربوا الحق والايمان بأسلحة الطغيان والشيطان . دون ان يكون في حسابهم ذرة تفكير .

وتعكس ذلك كله ، كلمة رأس الشرك أبي جهل ، فيما يروي القرطبي عندما قال عند خروجه : « فإن بدراً موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم ، حتى تسمع العرب بمخرجنا فَتَهابُنا أبدَ الدهر . . . »[1] .

الصدّ عن سبيل الله

الصدّ لغة المنع والصرف والدفع .
والسبيل لغة هو الطريق .
وقد أضيف في الآية الكريمة هنا الى لفظ الجلالة .

ومما لا إشكال فيه ، أن الله سبحانه ، لمّا لم يكن جسماً ، استحال عليه التحيّز في مكان . ولذا ليس المراد بسبيله ، المعنى الحسّي للسبيل ، بل كان المراد به كل ما يؤدي الى القرب منه ، ونيل رحمته ورضوانه من أعمال الخير والبرّ ، والتزام جادة الحق والعدل . . . وذلك بامتثال أوامره ، والإنزجار عند زواجره .

ولقد كانت كل هذه القيم متجَسّدة في رسول الله (ص) ، من خلال ما يُبلّغه من رسالة السماء ، التي أنزلَت إليه فاعتنقها مَن كان معه من المؤمنين ، الذين خرجوا الى بدر امتثالاً لأمره ، ليدافعوا عن تلك القيم ضد عتاة قريش ، بقيادة شيطانهم الأكبر أبي جهل . الذين لم يكن همُهم ـ حسب تصوّرهم الأخرق ـ إلا القضاء على الإسلام الحنيف ، بكل ما يرمز اليه ، من خلال القضاء على قوته الوليدة المتمثلة في جيش الايمان ببدر .

ويصوّر هذه العقلية اوضح تصوير الكلمة التي اوردناها آنفاً ـ فيما يروي القرطبي ، والتي صدرت عن أبي جهل عند خروجه الى بدر « والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدراً فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان . . . الخ »[2] .

ولكن المشركين ، بكل صلفهم وغرورهم ، وريائهم وبطرهم . وبكل

---

(١) و (٢) تفسير القرطبي ٨/٢٥

شراستهم في محاربة الله ورسوله والمؤمنين ، لن يكون مصيرهم إلا الخزي والذل والهزيمة في الدنيا ، والويل والثبور في الدرْك الأسفل من النار في الآخرة .

ومردّ ذلك ، الى انهم مهما عظمت قوتهم ، واشتد بأسهم ، واتسعت رقعة امتدادهم المادي والمعنوي ، فإن الله من ورائهم يسمع ويرى . . .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

ومن المعلوم ، ان الله سبحانه ، عندما يحيط بالكافرين ، ذواتهم وأعمالهم ، فإن في ذلك هلاكهم لا محالة .

كما ان فيه فساد اعمالهم وفشلها . وعليه يُنزّل قوله تعالى في سورة البقرة « واللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ »[1] واشباهه .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

موقع الشيطان من واقع المشركين ؟!

الشيطان في اللغة[2] مأخوذ من شَاطَ الشيء يَشيطُ شَيْطاً وشياطة وشيطوطةً ، احترق .

وعلى هذا تكون نونه زايدة ، ووزنه : فَعلان . ومعناه الهالك .

وقيل : هو من شَطَنَ ، فتكون نونه أصلية ، ووزنه فَيْعال . ومعناه : البعيد عن الرحمة .

وكلا التفسيرين ، ينطبق على هذا الكائن .

فيمكن أن يكون مأخوذاً من معنى الإحتراق ، بلحاظ أنه مخلوق من النار ، باعتبار أنه من الجن ، بنص الآية الكريمة :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[3]

والجن، مخلوق من النار بنص القرآن العظيم:

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[4]

---

(١) آية ١٩

(٢) راجع محيط المحيط للبستاني مادة (شاط)

(٣) الكهف / ٥٠ (٤) الحجر / ٢٧

كما لا إشكال في أن هذا الكائن ، مقصيٌ عن رحمة الله ، عندما تمرّد فطُرد ، تلاحقه اللعنة ، كما اخبر رب العزة سبحانه :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [1]

وإبليس ـ مفرد أباليس وأبالسة ـ الذي ورد ذكره في عدة بمواضع في القرآن ، هو علم جنس للشيطان ، الذي يطلق على ابليس وغيره .

وقيل ، بأنه مأخوذ من أبْلَسَ بمعنى : يئِسَ وتَحَيَّر .

« ونحن ، لم نر كائنا من جنس خاص يسمّى شيطاناً ، ولكن الوحي اخبر عنه ، والعقل لا ينفيه ، فوجب التصديق . . . »[2] .

وقد حدثنا القرآن الكريم ، عن بعض خصائص هذا الكائن ، ومجالات عملـه ، ويستفاد من مجموع ما ورد ، انه مخلوق منحرف ، شرير ، يحاول دائبا ان ينشر الضلال والفساد والافساد في الارض ، ولذا فهو متمحض للشر وفي الشر ، ولذا يقول سبحانه عنه :

﴿ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3]

﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ [4]

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[5]

والخلاصة انه لا يمكن ان يأتي منه الا الرذيلة والشر ، ولا يعقل ابداً ان يكون مصدر خيرٍ ورفعة لهذا المخلوق الانساني . ولذا نجد الله سبحانه ، يحذره منه ، ومن ان يتبع خطواته ، مبيّنا له انه عدو منذ غضب الله عليه ، واقصاه عن رحمته ، والى يوم الوقت المعلوم عنده جلّت حكمته . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [6]

---

(١) الحجر ٣٤ ـ ٣٥

(٢) شرح الصحيفة السجادية للشيخ محمد جواد مغنية ص /١٦٤

(٣) النور /٢١

(٤) النساء /٦٠

(٥) البقرة /٢٦٨

(٦) البقرة /١٦٨

وقال سبحانه مخاطباً أبا البشر آدم وزوجه:

﴿ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [1]

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [2]

وسائل شيطانية

والوسائل التي يستخدمها في سبيل الوصول الى هدفه الاكبر ذاك ، عبارة عن التزيين والغش والاحتيال ، والوسوسة والتثبيط والإغواء والاغراء ، واتيان الانسان من الطريق الأوفق بمزاجه ، والأقرب الى تصوراته وأهوائه .

وتحدثنا هذه الآية الكريمة ، عن الاسلوب الذي اتبعه الشيطان مع مشركي قريش عند خروجهم الى بدر لملاقاة جيش الايمان بقيادة رسول الله (ص) ومحاربته .

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾

فأسلوب التزيين إذن ، هو الذي استعمله الشيطان مع هؤلاء القوم . اي تحسين ما ينوونه من اعمال ، وذلك من جهتين :

الأولى : انهم يطمحون الى تدمير الاسلام ، بالقضاء على حَمَلَتِه الذين وردوا الى بدر ، وفي طليعتهم الداعية الأول رسول الله (ص) . وقد حسَّن الشيطان لهم ذلك ، بجعلهم يتوهمون أنهم بمقدورهم تحقيق هذا الحلم القديم بثوب جديد ، وأسلوب جديد . وقد وافق هذا التحسين الشيطاني ، هوىً في نفوسهم الشريرة ، فاندفعوا نحو تحقيقه دون تقدير ولا تدبير . . .

الثانية : ان المشركين ، بحكم انقطاعهم عن الله ، واخراجه عن دائرة تفكيرهم

---

(١) الاعراف /٢٢

(٢) فاطر /٦

السقيم ، وحصرهم انفسهم ضمن دائرة الجسد . وتمرغهم بعالم الضرورات . كان لا بد وان تحكمهم العقَدُ والأمراض النفسية الخطيرة ، التي تحول بينهم وبين الرؤ ية الواضحة ، والنظرة الصالحة البعيدة ، وذلك كالرياء والبطر والحقد ، والنظرة المصلحية الضيقة .

وبسبب تعاميهم عن الحق ، واغلاق عقـولهم دونه ، صح ان يطلق على الصفات الخسيسة التي اتصفوا بها ، والامراض الخطيرة التي عشعشت في اعماق نفوسهم ، فباتت تفعل فيهم فعلها المدمّر ، انها اعمالهم دون غيرهم .

وكان دور الشيطان الرجيم ، انه راح يحسّن لهم هذه الصفات الذميمة ، بتصوير انها خير لهم ، ويصدهم بذلك عن الخير الحقيقي ، الذي جاءت به رسالة السماء ، والمتمثل في الايمان بما يستتبعه من التحلي بالقناعة والاخلاص للّه قولا وعملا ، والتواضع والواقعية ، وكفِّ الاذى عن خلق الله . . . فأتاهم بذلك من الزاوية التي تستهوي نفوسهم الضعيفة .

ومن هذه الزاوية بالذات ، راح يضرب على وتر حسّاس عند العرب ، حيث نفخ فيهم روح الحمية الجاهلية ، وتعهد بأن يكون لهم مجيراً ضد اعدائهم ، ونحن نعلم بما للجوار من نظرة قداسة في نظرهم . والى هذا اشار سبحانه بقوله :

﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾

والمقصود بالناس ، رسول الله (ص) واصحابه .

وجار لكم : يعني مجير لكم ، احفظكم وادفع عنكم ، واغيثكم . « تقول العرب : هو في جواري ، اي في عهدي واماني . . . »[1] .

تعهّد شيطاني حار . . . ولكن ؟!

هكذا كان تزيين الشيطان ، وتزويقه !!!

وهذه عهوده ومواثيقه . . .

ولكن . . . ماذا كانت النتيجة . . . ؟

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني مادة / جَوَرَ

النتيجة لهذا التزيين والتزويق ، ولتلك العهود الشيطانية ، معروفة واضحة للانسان الذي ارتبط بالله ، واتبع هداه ، فاطّلع على حقيقة الشيطان وأساليبه ، ووعى منطلقاته واهدافه ، ودوره الذي اختاره في هذه الحياة . . . ذلك ان الانسان المؤمن ، يدرك ، ان مَنْ خان عهده مع الله وعصاه بتمرّده عليه ، فاستوجب بذلك طرده وإقصاءه . . .

إن مَن كانت حاله خيانة العهد مع الخالق ، لا يُعقل ان يكون له عهد مع المخلوق .

ومن هنا ، يدرك الإنسان المؤمن ، ان تزيين الشيطان للانسان ، ووسوسته وحبائله ، ما هي الا غرور في غرور ، كما اخبر رب العزة سبحانه :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (1)

وُعودٌ . . . ووُعودٌ

والفرق واضح بين وعود الشيطان الكاذبة ، التي لا تخرج عن دائرة الغرور والتغرير ، والأماني الخادعة . وبين الوعود الإلٓهية التي لا سبيل الى تطرّق التشكيك فيها ، أو خُلفِها . . .

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (2)

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ (3)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (4)

﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ (5)

---

(١) النساء /١٢٠ والإسراء /٦٤
(٢) القصص /٦١
(٣) ابراهيم /٤٧
(٤) الحج /٤٧
(٥) مريم /٦١

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [1]

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [2]

نكوصٌ وتنصُّل

نعم . . .

نتيجة هذا التزيين والتزويق ، والتغرير الشيطاني ، نكوص وتراجع ، وتبرّؤ وتنصُّل . . .

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

والنكوص : الرجوع الى الوراء ماشياً القهقرى .

هكذا كان حال الشيطان ، بعد ان تلاقى الجيشان ، جيش الكفر وجيش الايمان في بدر .

تخاذل وهلع وخوف ، بعد جرأة وحماس واقدام !!

وتنصّل وتبرّؤ من كل عهد ووعد وجوار !!

وكل ذلك من الشيطان ـ بناءً على ما عرضناه قبل قليل ـ شيء طبيعي . بعد ان كان دوره مقتصراً على الإغواء والخداع والتمويه . ووظيفته تنتهي بايقاع اتباعه ومريديه في المهلكة والتيه . من دون ان تكون لديه القدرة على الانقاذ ، والدفع ودرء الاخطار . وفي تلك اللحظة التي لا يعود ينفع ندم ، ولا فطنة ولا حذر . . .

هذا اضافة ، الى ان الشيطان ـ بحكم طبيعته الشيطانية ، وانسجاما مع دوره المذكور ـ مخلوق يستطيع ان يرى ما لا يراه الانسان ذو الطبيعة المختلفة . ويدرك حقيقة عجزه أمام إرادة الله وبطشه وتدبيره .

ولقد نظر فرأى امامه رسول الله متضرعا في خيمته الى ربه ، منعطفا اليه . متوسلا بأن ينجز له ما وعده من النصر . ثم نظر فرأى معه رجالا قد محضوا الايمان

---

(١) الروم /٦

(٢) المزّمل /١٨

محضا ومحضهم الايمان محضا ، بهذا الرسول وبما جاء به من عند ربه ، حتى خالط مشاش عظامهم ، ومجاري انفاسهم ، وومضات عقولهم ، فعرف ان هؤلاء ممن انذره الله سبحانه لحظة اقصائه عن رحمته ، بأنه ليس له عليهم سلطان ، ولا له اليهم سبيل :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (١)

فأخذته الرعدة ، وتملّكه الخوف ، وتبرأ مما عمل ويعمل ابو جهل وزمرته ، الحاقدة ، وتراجع ناكصاً على عَقِبيه ، ولسان حاله يقول ما ذكره رب العزة .
والعقب : مؤخر القدم .

للطبري رواية . . . ولنا رأي

ويروي الطبري(٢) رواية عن ابن عباس ، يبدو منها ان الشيطان قد تشكّل يوم بدر ، في صورة رجل كبير تعرفه قريش ، يرافقه جند من الشياطين . وانه قال ما قاله حسب ما ذكرته الآية الكريمة ، مشافهة ومواجهة . وان نكوصه بعد ذلك ، كان بشكل حسيّ ومرئي للمشركين . . .

يقول الطبري :

« جاء إبليس يوم بدر ، في جند من الشياطين ، معه رايته ، في صورة رجل من بني مدلج . والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم . فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطفّ المسلمون ، أخذ رسول الله (ص) قبضة من التراب ، فرمى بها في وجوه المشركين ، فولّوا مدبرين ، واقبل جبريل الى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين ، انتزع ابليس يده فولّى مدبراً هو وشيعته . فقال الرجل : يا سراقة ، تزعم انك لنا جار ؟ قال : اني أرى ما لا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب . وذلك حين رأى الملائكة . . . » .

---

(١) الحجر /٤٢

(٢) الجزء /١٤ ص : ٧

ونحن بملاحظة ما عرضناه سابقاً ، حول الخلاف في كيفية اشتراك الملائكة في معركة بدر اشتراكا فعليا ، او انه مجرد حضور رمزي ، قُصد من ورائه شد ازر المؤمنين ، ورفع معنوياتهم ليس إلا ، وترجيحنا لهذا الرأي الثاني مؤيدا بالنص القرآني :

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾

اضافة الى ما عرضناه هناك ايضا ، من انه برسالة رسول الله (ص) قد ختمت فلسفة نصر الله رسالاته بالمعجزات والخوارق . وابتدأت مرحلة جديدة أراد الله فيها لرسالاته ، ان تنتصر بالاسباب الطبيعية الموجهة بكلمات الله ونداءاته ، وتربية النفوس وتنشئتها على وفق هَدْي قرآنه العظيم ، وسنّة رسوله الكريم . . .

هذا من جهة .

ومن جهة اخرى ، يستشعر القارىء لرواية الطبري ، ان فيها نوعاً من التكلّف بل التطرف .

فإننا ، بعد ان احطنا بوظيفة الشيطان فيما يعود الى الانسان ، لا نرى اية حاجة لتمحّل انه في موقعة بدر ، قد تشكّل في صورة رجل معروف لدى المشركين هو سراقة ، ومخاطبته لهم مشافهة . بل يكفي ـ انسجاما مع دوره ـ ان يوسوس لهم ، ويزين اعمالهم ، ويستثير حيوانيتهم واهواءهم الضالّة ، فيندفعوا نحو تحقيق ما يريد . . .

وما ورد في الآية الكريمة ، مما قد يوهم بأنه خاطب به المشركين : « قال اني بريء الخ » غير تام . لإمكان أن تكون الآية الكريمة ، في مقام حكاية ديدنه وطريقته ، عندما يصل الى تحقيق غرضه بالنسبة الى مَنْ يضلّهم ويغويهم ، في حديثه مع نفسه لا معهم . « ومثل هذا الخطاب ، لا يتوقف على سماع المخاطبين له ، حتى في خطاب الناس بعضهم لبعض . . . »[1] .

ويؤيد هذا ما أشار اليه قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا / ١٠/ ٢٨

(٢) الحشر / ١٦

إضافة الى أن الرواية تنصّ على ان النبي (ص) ، عندما رمى وجوه المشركين بقبضة من تراب ، ولّوا مدبرين ، ولم يبقَ إلا ابليس وجنده . . . !!

عجيب هذا الامر . . . !!! ولماذا يبقى . . . ؟

ألأنه ليس مشركاً ، فلم يؤثر فيه ذلك التراب . . . ؟

أو لأنه لا يرى للنبي قيمة ولا يرهب له جانباً . . . ؟

ثم تنص الرواية ، على ان جبريل عندما اقبل الى ابليس رآه ، وكأن ابليس لم يستطع ان يرى جبريل الا عندما اقبل نحوه . . !!

والغريب في الامر ، ان الرواية تنص ، على ان يد إبليس كانت في يد رجل من المشركين ، فانتزعها منه عندما رأى جبريل .

فأين كان هذا الرجل عندما رمى النبي التراب في وجوه المشركين . . . ؟

ولِمَ لَمْ يُوَلِّ مع مَنْ ولىّ منهم . . . ؟

وكيف نجمع بين بقائه ـ كما تدّعي الرواية ـ وبين فرار المشركين دون استثناء ـ بإطلاق الرواية أيضاً .

ثم ، أخيراً ، هل أن جبريل أشد وطأة على إبليس من رسول الله (ص) ؟

لأجل كل هذه الهنات في رواية الطبري ، لا نطمئن الى الاخذ بها . اضافة الى عدم احتياجنا في فهم الصورة ، الى ارتكاب مثل هذه التمحّلات التي لا يدعمها عقل ولا نقل .

درس وعبرة

بعد هذه الجولة مع الآية الكريمة ، نخرج بدرس واضح ، أراد الله سبحانه للمؤمنين جماعات وفرادى ، ان يعقلـوه . وهو أن الشيطان ، بحكم دوره في هذا الكون ، ووظيفته في هذه الحياة ، يمثل قمة الإنحراف عن طريق الله ، وبؤرة الشر في هذا العالم . ويُعتبر بحق ، المخلوق المخلص لذلك الدور ، ولتلك الوظيفة ، حتى ان واعظا قديما كان يعظ الناس ، فيطلب منهم ان يكونوا في الاخلاص لله ، مثل إبليس في اخلاصه للطاغوت .

ولعل ذلك الواعظ ، كان قد اطلّع على كلمات الامام زين العابدين علي بن الحسين السجاّد (ع) في مقام التعوّذ من الشيطان حيث يقول : « اللهم صلّ على

محمد وآله ، وأمتِعْنا من الهدى بمثل ضلالته » ـ أي ابليس .

ومن هنا ، ينبغي للانسان ، المؤمن ، ان يراقب نفسه باستمرار ، لئلا يأتيه الخبيث من حيث لا يشعر . وان يتمتع بدرجة عالية من الوعي والإدراك ، لئلا يقع في مكائده واحابيله . وان يكون على الدوام ، مستحضراً لِلّهِ في قلبه وعقله ، ملتجئا اليه في كل حالاته . سائلا ربه ان يعيذه منه ويكفيه شره .

ولنختتم هنا ، بكلمات للامام السجّاد (ع) في دعاء له :

« اللهم إنا نعوذ بك من نزغات الشيطان الرجيم ، وكيده ومكائده ، ومن الثقة بأمانية ومواعيده ، وغروره ومصائده . وأن يُطمع نفسَه في اضلالنا عن طاعتك ، , وامتهاننا بمعصيتك . او ان يُحْسِنَ عندنا ما حَسَّنَ لنا . أو أنْ يُثقِلَ علينا ماكرَّه لنا » .

* * *

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾

المنافق : اسم فاعل من نَافَقَ . وهو ذلك الإنسان ، الذي يبدي الإيمان بلسانه ويبطن الكفر .

او هو ذلك الإنسان الذي شهد وعمل ولم يعتقد .

والفرق بينه وبين الفاسق ، ان هذا الاخير . مَنْ شهد واعتقد ولم يعمل .

وهذه الزمرة المنحرفة ، المنافقون ، نظراً لخطورتها على الإيمان وأهله ، بلحاظ خفاء أمرها ، باعتبار اظهارها الإسلام وابطانها الكفر ، كانت تشكّل الرتل الخامس في صفوف المسلمين ، حيث راحت ـ بعدما يئست من هدم الاسلام والقضاء عليه مواجهة ـ تحاول تدميره من الداخل . وذلك بنشر الأراجيف والأباطيل ، وبثّ الإشاعات والأكاذيب ، بقصد خلخلة الجبهة الداخلية للمسلمين ، ونشر صور التشكيك في عقائد المسلمين ، وتشويهها بقصد إيجاد نوع من البلبلة الفكرية في عقولهم .

انطلاقا من موقع الخطورة ، الذي يحتله هؤلاء المنافقون في البنية الاسلامية ، وردت الآيات الكريمة ، في مواضع شتى من كتاب الله ، تحذّر المسلمين منهم .

وتكشف جوانب من لؤمهم وحقدهم . وتلقي الضوء على اساليبهم الخبيثة وطرائقهم الدنيئة . وقرن ذكرهم بذكر المشركين والفاسقين . وحذرهم من التمادي في غيّهم ، وانه سوف يكشف استارهم ، وينقض ما ابرموا ، ويردّ كيدهم الى نحورهم قال سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾(٢)

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(٣)

ولقد ذاق رسول الله (ص) والمسلمون من هذا الرتل ،رتل المنافقين الأمرّين ، في بداية الدعوة المباركة ، خاصة في المدينة ، التي كان يرأسهم فيها عبد الله بن ابي سلول .

وجاءت هذه الآية الكريمة ، لتذكّر رسول الله (ص) والمؤمنين ، بما كان عليه حال هؤلاء المنافقين ، الذين تواجدوا ببدر قُبيل المعركة ، فحاولوا عندما رأوا قلة المسلمين عددا وعُدة ، وكثرة المشركين العددية ، وقوتهم العُددية ، ان يشكّكوا في

---

(١) آل عمران/١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٢) الحشر/١١ ـ ١٢ .

(٣) التوبة/٦٧ ـ ٦٨ .

وعد الله للمؤمنين بالنصر ، واخذوا يصوّرون الأمر على انه مجرد تغريروخداع . بل لا يعدو ان يكون عملية نحر جماعية قام بها مَنْ أخرجهم من ديارهم ، وهو رسول الله (ص) . . .

وقد تابعهم في ذلك بعض ضعاف النفوس والايمان ممن لا خلاقَ لهم ، ولا اخلاص عندهم من المسلمين ، تلك الفئة التي حاولت عرقلة مسيرة الايمان في أولها - كما سبق وبيّنا في مطلع هذه السورة - فراحت تجادل رسول الله (ص) في جدوى الخروج ومنطقيته .

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾

هؤلاء المنافقون ومتابعوهم من ضعاف الايمان ، هم الذين عناهم الله في هذه الآية :

﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ ﴾

ويحتمل ان يكون المراد من الذين في قلوبهم مرض ، المنافقين أنفسهم ، وسيقت الواو هنا ، لتأكيد الصفة لهم ، وبيان انها لا يعقل انفكاكها عنهم ، بلحاظ كون النفاق من شؤون القلب لا غير ، كما يشير اليه قوله تعالى :

﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾[1]

وقد روى الطبري[2] ، ان المقصود بذلك ، فئة من قريش ، اسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم ، وهم : قيس بن الوليد بن المغيرة . وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة . والحارث ابن زمّعة، وعلي بن أمية بن خلف . والعاص بن منبّه بن الحجاج . وكان هؤلاء قد خرجوا مع قريش من مكة . . .

ومهما يكن من أمر هؤلاء المنافقين ، فإنهم انما قالوا مقالتهم تلك ، منبعثين فيها من واقعهم العقيدي المنحرف عن طريق الله ، المؤطر بأطر اهوائهم واوهامهم وأباطيلهم ، المجبول بالطين والتراب ، المختلط برائحة الوحل . فمن الطبيعي

---

(١) التوبة/٧٧.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ص: ١٣ وراجع أيضاً مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٠.

اذن ، ان يسيئوا الظن بالله وبرسوله ، . . هذا الظن السيء ، الذي يعتبر سمة اهل الكفر والا نحراف على امتدادا تاريخ رسالات السماء :

﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (1)

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ (2)

﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (3)

﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (4)

﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (5)

﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ (6)

هذا اذن باستمرار ، واقع اهل الكفر والانحراف ، يقيسون الامور بمقاييسهم الفاسدة ، وينظرون اليها من الزاوية التي ترسمها عقولهم السقيمة ، وافكارهم العوجاء . . .

اما المؤمنون ، اما اهل البصيرة في الدين ، فانهم ينظرون بعين الله ، ويخترقون بنظرتهم تلك الحجب ، ويحطمون حواجز الحس ، باطلاقهم العنان لعقولهم ، آبين ان تكبّلها عادات بيئة ، او مواضعَات بشر . ذلك كله من جراًء ارتباطهم بخالقهم ، الذي يدركون من خلال آثار عظمته ، مدى احاطة قدرته ، وعظيم جبروته . ويوقنون بأنه معهم اينما كانوا ، وكيفما كانوا . وانه يرعاهم ويسدّد خطاهم ما داموا في طريقه سائرين ، ولأوامره مطيعين ، فيسلّمون امرهم اليه ، ويتوكلون عليه .

وكيف لا ، وهو العزيز المنيع الذي لا يذل مَنْ التجأ الى كنفه . الحكيم الذي لا يظلّ مَنْ اتبع هداه . . . وكان سبحانه عند حُسْن ظن عبيده المؤمنين ، فكانت لهم الجنة ، وكان لهم النصر .

---

(1) فصلت/٢٢
(2) فصلت/٢٣
(3) الفتح/١٢ .
(4) الحشر/٢
(5) القصص/٣٩
(6) الكهف/٣٥ .

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

☆ ☆ ☆

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

بعد ان عرض الله سبحانه في الآيات السابقة ، موقف المشركين من رسول الله (ص) والمؤمنين في بدر، وكيف أنهم اتبعوا خطوات الشيطان، فكان ذلك سبباً في خزيهم الدنيوي بعد أن قُتِل صناديدهم، ودُمّرت قوتهم، وفُضحوا بين العرب.

بعد هذا كله ، اراد سبحانه ، ان يلفت انظار المؤمنين ، الى ان الانتقام الإلهي منهم ، وما لحق بهم من عار وخزي ، لن يقتصر على ما حصل لهم في الدنيا . بل ان ذلك الانتقام وهذا الخزي ، سوف يلاحقانهم حين قبض ارواحهم من قَبل الملائكة ، وحتى بعد قبضها ، الى ان يَرِدُوا النار التي أعِدَّت للكافرين . وهو ما يشير اليه قوله تعالى :

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

إن الآية الكريمة ، تنص على أن الملائكة الموكلين بقبض الارواح ، عندما يريدون قبض أرواح الكافرين مطلقاً ، انما يفعلون ذلك مترافقاً مع نوع من التعامل المستبطن للإهانة والتحقير . وذلك بضرب وجوههم وأدبارهم .

والأَدْبار : جمع دُبُر ، وهو نقيض القُبُل ، ومعناه الظَّهر ايضاً .

وإنما خُصَّ الضرب بالوجه والظهر ، أو الأستِ على قول ، لانه يكون أشد تحقيراً وتوهيناً من ضرب غيرهما .

وتقابل هذه الصورة المزرية لقبض ارواح الكفار ، صورة جميلة لقبض ارواح المؤمنين من قِبَل الملائكة . فيها لطف ، وفيها رقة ، وفيها رأفة ورحمة .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

---

(١) الزمر/٢٦ (٢) النحل/٣٢

فما أبعد الشقة بين هذه الصورة المؤطرة بالتكريم ، وبين تلك الصورة المحبوكة بألوان التحقير والتوهين .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾

وقيل ـ وربما كان الأقرب بمقتضى مناسبات الحكم والموضوع ـ ان موضع الفعل المحكي عن الملائكة بالنسبة للكفار ، انما يكون يوم القيامة . اذ ان الضرب بهذا الشكل جذبا ودفعا ، انما هو من شؤون السَّوْق ومقتضياته ، الذي يحدثنا القرآن الكريم ، انه من الصور المتكررة والمألوفة يوم الجزاء. يقول سبحانه :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١)

وعليه ، يكون المقصود بعذاب الحريق ، العذاب بواسطة الاحراق في نار جهنم .

وانما كان كل ذلك التحقير ، وتلك الاهانات عند قبض الارواح ، وعند السَّوق الى جهنم . كما كان هذا العذاب الشديد والعقاب الغليظ ، نتيجة حتمية لتكذيب الكافرين برسالات السماء . وصدّهم عن سبيل الهدى ، وطريق الخير والرشاد ، ومحاربتهم الله وَرُسُلهَ والمؤمنين ، سواء بالفعل او القول . بلا فرق بين ان يكون الفعل المأتي به بالايدي او بالارجل ، او بأي عضو آخر من اعضاء اجسادهم :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾

وانما نسب ما يقوم به الكفار من محادّةٍ لله ولرسله ورسالاته الى خصوص الايدي ، تغليباً ، إذ إن اكثر ما يصدر عن الانسان من افعال حسّية ، انما تتم بواسطتها .

ولا يظنّن ظانّ ، كافراً كان او غيره ، ان في هذا الجزاء الإلٰهي القاسي ، حيفاً او ظلماً . لان الله سبحانه هو العادل المطلق ، الذي لا يجور على مخلوقاته في حكم .

---

(١) الزمر/٧١ ـ ٧٢

وانما هو حصاد ما زرعوا ، ونتاج ما بذروا ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

* * *

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

تمهيد

بعد أن بيّن الله سبحانه في الآيات المتقدمة ، جانباً من عناد مشركي قريش للحق ، وكفرهم به ،ومحاربتهم بكل الوسائل المادية والمعنوية لأهله، مع بيانه عاقبة عنادهم ذاك ، وكفرهم ومحاربتهم . وكيف انها كانت عاقبة مهينة قاسية .

بعد كل ذلك ، أراد سبحانه أن ينبّه جماعة المؤمنين ، في كل زمان ومكان ، الى القواسم المشتركة بين الامم في كل عصر . ويبيّن أن هنالك مقدمات متشابهة . تسعى الى ترتيبها والتصرّف على وفقها ، كل قوى الكفر والانحراف في الارض ، على اختلاف مواطنها ومواطئها ومشاربها .

وبالتالي ، فان لكل مقدمات نتائج تترتب عليها ، بل يستحيل ان تنفك عنها .

وكما المقدمات هي هي ، فالنتائج لا بد وان تكون هي هي ايضا .

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وقد ذكر سبحانه هنا ، نموذجاً من القوى المنحرفة عن طريق الله . . . آل فرعون . . .

والدأب : بتسكين الألف ، وتحريكه بالفتح (دَأْبْ) مصدر دَأَبَ يَدْأَبُ بمعنى العادة والشأن . ومنه قول امريء القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والكاف في ـ كدأب ـ بمعنى مثل . . .

يخبرنا الله سبحانه في هذه الآية ، أن العادة والشأن لدى مشركي قريش ، بالنسبة إلى رسالة السماء التي جاء بها محمد (ص) رسول الله، ومَنْ آمن بها، عيناً مثل شأن آل فرعون ومَنْ تابعهم في مسيرتهم المنحرفة من بني إسرائيل بالنسبة لموسى وبقية أنبيائهم من قَبْلُ ومن بَعدُ.

وعينا مثل شأن بقية الامم على امتداد التاريخ ، من انبيائها قبلَ بني اسرائيل وبعدهم .

أية أمة من الأمم الغابرة ، اطّلعت على حالها ، تجد أنها ـ باستثناء قلة منها ـ كذبت نبيّها الذي بُعثَ لهدايتها وإرشادها الى سعادتها في الدارين :

﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [1]

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [2]

﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [3]

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ﴾ [4]

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [5]

هكذا إذن ، كان جواب الامم السابقة لرسلها ، تكذيب وتسفيه لهم ، ورفض لرسالات الله وكفر بها . . .

وهكذا ايضاً ، كان حال فرعون وملائه بالنسبة لموسى (ع) ورسالته التي بُعث بها من عند ربه .

---

(١) هود/٣٢

(٢) هود/٥٣

(٣) هود/٦٢

(٤) هود/٩١

(٥) مريم/٤٦ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾[1]

مشركوا قريش ... وآل فرعون .... مواطن تشابه والتقاء

ولعل اختيار فرعون وملائه هنا كنموذج ، كان لوجود قواسم مشتركة ، بين كفر هؤلاء وكفر قريش .

واساليب طغيان فرعون ، مع اساليب طغيان طغاة قوم رسول الله (ص)

فمثلا ، رسول الله محمد (ص) كان قد ولد وترعرع وشب وعاش بين ظهراني قومه الى ان بلغ الاربعين ، وهم طيلة تلك المدة يواكبون مسيرة حياته فيجدون فيه الصادق المصدّق، الأمين المقدم، والسيد المهاب الوقور، أخلاقه لا يدانيه فيها أحد منهم، ورجاحة عقله تشع على قومه نوراً وحكمة واتزاناً، ومع ذلك كذبوه عندما أمر بتبليغ رسالة ربه...

وموسى ـ ايضا ـ كان قد ولد وترعرع وشب وعاش فترة من عمره ليست بالقصيرة بين ظهراني بني اسرائيل ، بل في بيت آل فرعون بالذات ، عندما التقطوه بعد ان خافت امه عليه من بطشهم فألقته في التابوت باليم ، ولمحوا فيه من خلال معايشته لهم دلائل النجابة وعلائم النباهة والشجاعة والاقدام ، ومواقف نصرة المظلوم ودفع الظالم ، ومع ذلك كذبوه عندما امر بتبليغ رسالة ربه ...

ورسول الله محمد (ص) حاول عتاة قريش ان يجرّبوا معه اسلوب الاغراء بالجاه والمال والسلطان على ان يقلع عن دعوته ، ويخون امانته فرفض بحزم وجزم .

وفرعون وملاؤه حاولوا نفس الاسلوب مع موسى مذكرين أياه بأياديهم عليه عندما تولوا عملية تربيته وتعليمه الى ان شبّ عن الطوق ، فرفض ايضا بحزم وجزم .

عُتاة قريش استعملوا كل اساليب البطش والتنكيل ، مع مَنْ تابعوا رسول الله (ص) واعتنقوا الدين الجديد الذي جاء به من عند الله ، ظنا منهم بأن ذلك سوف

---

(١) هود/٩٦ ـ ٩٧.

يؤثر في المسيرة الإلٓهية ، ويمنع الناس من ان يدخلوا في الاسلام . . . فخاب ظنهم وفشلت خطتهم . . .

وفرعون وملاؤه استعملوا نفس الاساليب ، من قتل وتنكيل ببني اسرائيل ، حيث كانوا يذبحون ابناءهم ويستحيون نساءهم ، ليكنّ إماءاً في بيوت آل فرعون ، فكان ذلك حافزا عظيما لموسى (ع) على مواصلة الدرب ، والعزم على الاندفاع برسالة السماء الى امام ، واضعا نصب عينيه تخليص شعبه من هذا البلاء العظيم ، بعد تدمير فرعون وسلطانه ، وجعل زمام المبادرة بيد مستضعفي قومه . . .

مشركوا قريش ، دبّروا مؤامرة لقتل النبي (ص) ، تقوم على اساس ان تشترك فيها كل افخاذ قريش ، عدا بني هاشم ، ليتوزع دمه في القبائل فيأمنون من الاخذ بالثأر ، فبأؤوا بفشل ذريع ، عندما هاجر رسول الله (ص) الى المدينة ، وفداه امير المؤمنين علي (ع) بمبيته على فراشه والتحف ببردته ، فظنه القوم انه هو ، .

وفرعون وملاؤه ائتمروا بموسى ليقتلوه وكما خرج محمد (ص) من مكة مهاجرا الى يثرب ، كذلك موسى (ع) خرج من المدينة خائفا يترقب . . .

وعتاة قريش حاربوا الاسلام في شخص رسول الله (ص) عندما اتهموه بالجنون والكذب والسحر ، وكذا فرعون وملاؤه جابهوا موسى (ع) بنفس هذه الاتهامات .

واخيرا ، كما جرّد فرعون جيشه للحاق بموسى ومن آمن معه فأغرقهم الله في اليم ، جزاءاً وفاقا لكل ما ارتكبوه في حق رسالة الله وحملتها ، كذلك جرّد عتاة قريش جيشهم بقيادة ابي جهل الى بدر ، ليحاربوا رسول الله (ص) والمؤمنين ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، واذلّهم وأخزاهم ، وكسر شوكتهم ، وكانت يد الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وهذه سنّة الله في كل الامم التي كفرت بأنعم الله وكذبت رسله ، وهو عقاب عادل على ظلمهم ، وكلٌ كانوا ظالمين ، وردع الظلم مهما كان قاسياً فهو عين الصواب والعدل . . .

وهذا الردع القاسي من قِبَل الله سبحانه ، انما كان بعد امهال الكافرين ، علّهم يراجعون حساباتهم ويتراجعون عن كفرهم ، علّهم يدركون النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، عندما ارسل اليهم انبياءه ليعلّموهم ، ويزكّوهم ، ويهدوهم طريق الحق ، ويعرّفوهم سنن الرشد .

وهو سبحانه ، لم يغيّر نعمته هذه ، بنقمة هي الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، الا بعد ان يغيّروا ما ينبغي ان يكونوا عليه من شكران تلك النعمة ، مع ما تستبطنه من نِعَم ، وتجرّه من خيرات .

وهو سبحانه ، عندما ينزل نقمته ، انما ينزلها بعد ان يتمادى هؤلاء في غيّهم وعنادهم ، وهو عليم بحالهم المنحرفة تلك ، سميع لما يردّدونه ولو في سرهم ، اذ هو اقرب اليهم من حبل الوريد .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وبنفس المنطق هذا ، وكما جرت سُنَّة الله وطريقته ، على ان لا يبدّل النعمة بنقمة ، حتى يصل الكافرون بتلك النعمة الى حدود اللارجوع .

كذلك جرت سنّة الله على ان يبدّل النقمة بنعمة ، فيما لو تراجع المنحرفون عن انحرافهم ، ورجعوا اليه تائبين منيبين ، وبدّلوا كفرانهم بشكران ، وكفرهم بايمان ، وانحرافهم باستقامة ، كما حصل بالنسبة لكثير من الامم السالفة . . . .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١)

وسُنَّةُ الله هذه في الخلق ، يوضحها ويشير اليها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢)

فان كان التغيير الى السيء والشر رَفَع النعمة وأبدلها بنقمة .

وان كان التغيير الى الحسن والخير رَفَع النقمة وأبدلها بنعمة .

فالقاعدة أبداً ، شكر إلهي بشكر ، وغضب إلهي بكفر .

* * *

---

(١) يونس/٩٨

(٢) الرعد/١١ .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

بعد ان بيّن الله سبحانه سُنّته في الذين كفروا على امتداد الزمان والمكان ، وانها تقوم على اساس ، القاعدة القائلة : شكر بشكر ونعمة ، وكفر بعقاب ونقمة . . .
وبعد أن ذكّر المؤمنين بأبرز مثل للكفر والطغيان في التاريخ، فرعون وملائه، ومن سبقهم من الكافرين برسالات السماء .

بعد هذا كله ، اراد ان يذكّر المؤمنين ، بما سبق ان بيّنه سبحانه في اوائل هذه السورة ، من مقياس لانسانية الانسان ، الذي على اساس منه يُفرق بينه وبين سائر انواع الحيوان ، هذا المقياس ليس للارض واهل الارض ، وما تواصفوا عليه من قيم التراب نصيب . . . وانه مقياس سماوي ، مقياس الهي ، هو عبارة عن مدى فاعلية عقل هذا المخلوق ، وتجاوبه مع نداء الفطرة ، وانقياده للعقل المطلق . وانه بمقدار تلك الفاعلية ، وذلك التجاوب وهذا الانقياد ، يستطيع الانسان ان يعمّق معنى الانسانية فيه ، ويحلّق في آفاق السعادة في الدنيا والآخرة . وانه بمقدار ما يَسلّ عقله عن العمل ، ويصمّ اذنيه عن نداء السماء والفطرة ، ويتمرد ـ نتيجة تحكّم غرائزه وشهواته في حياته ـ على ارادة الخالق الحكيم ، القادر المدبّر ، يسفّ الى اسفل ، الى مرابض الحيوان ، ومنازل البهائم بل اكثر من هذا ، الى مصافٍ هو ادنى مرتبة من منزلة الحيوان والبهائم ، ذلك انه يكون قد دمرّ عالم الانسان ، واضاع كنزا اختاره له خالقه ، فكان ذلك سبباً في طغيانه على البيئة الاجتماعية ككل ، وغدا مصدرا ثرّا للعدوان وجلب الشرور والأضرار لبني جلدته في حين بقي الحيوان الأعجم في مساره الذي وضعه الله فيه، يؤدي دوره المرسوم، والذي غالبا ما يكون في وارد جلب الخيرات ، والنفع للانسان المتصرف فيه ، والمالك لزمامه .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فلاحظ تعبير « عِنْدَ اللَّهِ » الذي يُشعر بمقياسية السماء هنا ، التي اشرنا اليها قبل قليل .

ولاحظ تعبير « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » الذي يُشْعر بالديمومة للكفر واستمراريته ، وذلك أمر طبيعي ملازم لكونهم شر الدواب: جمع دابة وهي كل ما يدبّ على الأرض من ذوات الأربع، نتيجة شلّهم عقولهم عن التفكير والتدبير، الذي سطرناه آنفاً. . .

وهذه قاعدة عامة لا استثناء فيها بالنسبة للكافرين . . .

﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

ثم اراد سبحانه ، ان يشير الى مصداقية هذه القاعدة ، في فئة محددة ، يعرفها المؤمنون حقَّ المعرفة ، لانهم عاشوا التجربة معها عن قريب .

وهذه الفئة ـ حسب بعض الروايات عن مجاهد[1] ـ بنو قريظة ، « فإنهم كانوا قد عاهدوا النبي (ص) على أن لا يضروّا به ، ولا يمالئوا عليه عدواً ، ثم مالئوا عليه الاحزاب يوم الخندق ،وأعانوهم عليه بالسلاح . وعاهدوا مرة بعد اخرى ، فنقضوا . . . » .

فهذا النموذج الكافر ـ بنوقريظة ـ عندما غدروا في المرة الاولى ، بنقضهم العهد ، فأخزاهم الله سبحانه وخذلهم ، لم يتعظوا ولم يعتبروا ، ولم يتعلموا درسا ، ولم تنفعهم التجربة ، فدأبوا على النقض ، دون ان يحاذروا غضب الله ويتقوا عقابه ، فتواتر عليهم الخزي والبلاء، لماذا. . .؟.

لان حيوانيتهم اعمتهم ، واصمت اذانهم ، وشلّت عقولهم ، فغامت عندهم الرؤ ية ، وتنكّبوا صراط الحق ، فكانت النتيجة ان دمرّ الله عليهم وأهلكهم .

العهود والمواثيق في الاسلام

والعهْدُ ، من عهِدَ يَعهَدُ : الميثاق ، والذمة ، والأمان . « ومنه قيل للحربي يدخل بالأمان : ذو عهد »[2] .

وهو في الاصطلاح الشرعي : « ميثاق وتعاقد على شروط معينة ، تراعى فيها مصلحة الاسلام والمسلمين ، يبرمه وليُّ الامر ، مع فئة ماّ من أهل الكتاب من

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي ٥٥٢/٤

(٢) محيط المحيط للبستاني مادة / عَهِدَ

اليهود والنصارى ، او المشركين ، الى امد محدد ، يصبح بعدها المسلمون في حلّ منه . كما انهم يصبحون في حلّ منه ، اذا خرج الكفار والمشركون على بند من بنوده » .

كما يمكن للمسلم ، أن يعقد عهدا مع مسلم آخر ، او يعاهد الله سبحانه على شيء فيه رضوان وقربة اليه تعالى . . .

وقد أوْلى الاسلام كل العهود والمواثيق عناية عظمى . وحث على الوفاء بها . وعدم خُلفها او نقضها او خيانتها . وذم اولئك الذين لا يقيمون لعهودهم ومواثيقهم حرمةً أو وزناً . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١)

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤)

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ (٥)

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (٦)

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧)

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (٨)

---

(١) الفتح/١٠
(٢) النحل /٩١
(٣) البقرة/١٧٧
(٤) آل عمران/٧٧
(٥) الانعام/١٥٢
(٦) الأسراء/٣٤
(٧) آل عمران/٧٦
(٨) المؤمنون/٨

عود الى التوجيهات الإلهية

هؤلاء الذين يكشف نقضهم المتكرر للعهود والمواثيق ، عن روح الخيانة والغدر المتأصل فيهم ، ماذا ينبغي ان يكون الموقف منهم ...؟
لقد رسم الاسلام خطة مواجهتهم ، وكيفية التعامل معهم ، وامر النبي (ص) والمؤمنين أن يطبّقوا هذه الخطة ...

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

« وثَقِفَهُ يَثْقَفُهُ ثَقْفاً[1] : صادفه او اخذه ، او ظفر به او ادركه ، واصل الثقف الحذق في ادراك الشيء علماً او عملا ، فهو يتضمن معنى الغلبة ، ولذلك استُعمل فيها . قال الشعر :

فـإمـا تثقفـوني فـاقتـلونـي   فـإنْ أُثقَفْ فليس تَرَون مـالـي

يأمر الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية ، ان يطبّقوا مبدءاً حربياً معروفاً . هو استعمال الشدة والغلظة مع العدو . بحيث يكون ذلك سبباً لبَثّ الرعب والهلع في قلوب بقية الأعداء ، ممن يساندونه ويساعدونه ، ويمدّونه بالعتاد والرجال .
وهذا الرعب ، وذلك الهلع ، سوف يساعدان الى حد كبير ، على تفريق جموع اولئك الاعداء ، وتمزيق صفوفهم . وهو معنى التشريد الوارد في الآية الكريمة .

الهدف من هذا الانتقام ؟

فمثل هذه القسوة في الحرب ، والغلظة في التعامل مع الاعداء ، لم يأمر الاسلام بها أتباعه ، لمجرد الانتقام ، والتشهيّ بمناظر الدم والدمار ، كيف ، والاسلام هو دين الرحمة والرأفة حتى مع أعدائه في ساحة القتال ، وفي ساعة الانتصار .
وانما الهدف من ذلك كله ، هو استعمال اسلوب الردع والصدمة ، بعد ان لم تنفع مع هؤلاء الموعظة والحكمة ، ولم يوقظهم تتالي الهزائم كلما تمادَوا في نقض

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني مادة/ثَقِفَ

العهود والمواثيق ، فكأنهم قد ادمنوا على الغفلة ، والضلال . والمدمن على شيء لن يجدي معه سوى اسلوب واحد ، وهو اسلوب العلاج بصدمة تهزّ كيانه ، وتعيده الى ما ينبغي ان يكون عليه من رؤ ية واضحة لواقعه المعاش . . .

هذه الغلظة وتلك القسوة في التعامل ، انما قُصد منها ارجاعهم الى صوابهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

* * *

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة ، تضمنت التوجيه الثاني من التوجيهات الإلٓهية ، حول الخطة في التعامل مع هؤلاء الأعداء . . .

ويستبطن هذا التوجيه الإلٓهي ، امراً الى جماعة المؤمنين متمثلةً في شخص النبي (ص) ، بأخذ زمام المبادرة عند توقّع اية خيانة من قِبَل الأعداء ، وذلك بتوجيه الضربة الأولى اليهم . وهو الذي يُفهم من معنى النَّبْذ . اي « اذا هادنت قوماً فعلمت منهم النقض بالعهد، فلا توقع بهم سابقا ، الى النقض حتى تُعلِمهَم انك نقضت العهد ، فتكونوا في علم النقض مستويين ، ثم اوقع بهم »[1] .

ولا ريب في ان هذا التصرف ، سوف يربك صفوفهم ، ويوقع البلبلة والهرج فيهم ، ويحبط بالتالي خططهم العدوانية .

ولكن ، لا بد في هذا النبذ ، من ان يكون بناءا على رؤ ية واضحة ، لا غموض فيه ، ولا ظلم ، ولا التواء ، وهو المراد بقوله « عَلَىٰ سَوَاءٍ » .

وفي هذا ما فيه ، من اشارة الى ضرورة التحلي باستمرار ، بأعلى درجات الحيطة والحذر ، في التعامل مع عدو غادر خائن ، لا يقيم للعهود والمواثيق أية حرمة او ذمة . ومَن كان هذا حاله ، فهو منبوذ من قِبَلِ الله ، ومن قِبَل المؤمنين ، ممقوت بسبب الخسّة التي جُبل عليها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني. مادة/نَبَذَ.

ولا ريب في ان توجيه الضربة الأولى ، والصاعقة المباغتة ، من قِبَل المؤمنين لهؤلاء الكافرين ، اعداء الله والانسان ، سوف يكشف لهم ولكل ذي مسكة بوضوح ، ان ما يحوكونه في الخفاء من مكر ، متوهمين انهم قد احكموا خططهم ، وضمنوا دحر الحق واهله ، ـ سوف يكشف بوضوح ـ ان ما حبكوه وأحكموه، انما هو وهم وسخف وخيال . ذلك ان الله سبحانه محيط به وبهم . مطلّع على سرائرهم ، قادر على حلّ ما أبرموا ، وافشال ما مكروا :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ •

فحساباتهم خاطئة ، وسبقهم لم يكن سبقاً الا في نظرهم السفيم ، وتفكيرهم المحدود ، المؤطر بإطار الحقد الأعمى ، ومقاييس الارض والطين والتراب .

اما في مقاييس السماء ، وفي نظر الله العظيم القادر ، فهم اضعف ما يكون ، واحقر ما يكون . . .

أما في مقاييس الايمان، فهم المقصّرون.

وفي مقاييس الحق . . . « إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزونَ »

أي لا يُضْعفون الله ذرة أو أصغر ، ولا يغلبونه ، بل مآلهم القتل والهزيمة في الدنيا ، وعذاب الهُون في الآخرة . . .

* * *

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾

ثم انتقلت الآيات الكريمة ، من خلال هذه الآية ، لتضع قاعدة اساسية لما ينبغي ان يكون عليه حال الأمة المسلمة ، في مواجهة اعدائها ، في حالتي الحرب والسلام فكان هذا التوجيه الثالث ، الذي سيق بصيغة الجزم ، والعزم والأمر .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

فهذا الأمر إذن ، انصبَّ على وجوب أن تهيء الأمة نفسها ، بشكل مستمر وفاعل ، لا تراخي فيه ولا استرخاء ، بكل ما تتطلبه لا المرحلة الحاضرة فقط ، بل

في كل المراحل ، وتحت كل الظروف الموضوعية المحيطة بها من مستلزمات التصدي والصمود . . . ووسائل القوة والمنعة . . .

والذي يتأمل في هذه الآية المباركة ، يستكشف حقيقة جوهرية مرنة ، تتسّع حتى لاتضيق عن استيعاب اي شأن من شؤ ون القوة ، وتضيق حتى لا تترك مجالاً لقبول اي شكـل من اشكال الضعف والوهن والوهم . . .

﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

ومن الواضح أن ما يدخل تحت حيزّ الاستطاعة، يستدعي استنفار كل ما يمكن ان يتوفر من طاقة ، سواء كانت مادية او معنوية ، وجعلها تصب كلها في اتجاه واحد ، هو اتجاه العدو ، سواء كان عدواً عسكرياً ، او عدواً اقتصادياً او عدواً فكرياً . فالعدو ، كل عدو ، فيه كل مواقع القوى هذه ، فلا بد وان يكون الأمر بالإعداد ، بمقتضى مناسبات الحكم والموضوع (كما يقول الأصوليون)، متوجهاً الى بناء مواقع القوى التي من المفروض فيها ان تقابل مواقع قواه ، ولكن على مستوى اكبر ، ووتيرة اعلى . . .

ومن هذاالمنظور ، نرى ألاّ يقتصر فهمنا للاعداد ولا للقوة ، على مجرد النواحي العسكرية وآلة الحرب المتبادرة. . . وانما يجب ان نتوسع في فهمنا لمدلولي هذين التعبيرين، ليشمل كل ما له دخل في وجود الأمة، وتدعيم هذا الوجود سلباً أو إيجاباً.

ومن هنا ، يمكن ان يكون الأمر بالاعداد منصباً على تهيئة الامة علميا واقتصاديا وفكريا بنفس المستوى الذي ينصب فيه على تهيئتها عسكريا . . .

ومنطق الاسلام ـ انطلاقا من فهم الدور الذي اراد الله له تأديته في الارض ـ لا يرى في القوة العسكرية الا اداة يلجأ اليها ، عندما يُعييه منطق الكلمة الهادئة الهادفة ولم تكن القوة العسكرية ، كما لم يكن منطق الحرب ، هو السلاح الاول ابداً ، بل الأخير في كل المعارك التي خاضها رسول الله (ص) ضد أولياء الطاغوت.

ومن هنا ، يمكننا ان نفهم ، كيف ان الاسلام استطاع ان يدمر اعظم حضارتين في التاريخ ، هما حضارة الفرس ، وحضارة الروم في فترة وجيزة .

أنه لم يدمرهما بقوته العسكرية ، بل بتحدّيه الحضاري ، الذي يعتمد سلاح الفكر والعقل ، وقيم الاخلاق ، ومبادىء الايمان كأسس تقوم عليها كل البنى الفوقية للحضارة الانسانية المرتبطة بالسماء. . .

وعلى ضوء ما ذكرناه ، نفهم لماذا عطف الله سبحانه في الآية نفسها ، امراً هو من اظهر مصاديق القوة العسكرية ، وهو رباط الخيل : جمع رُبُط ، والذي يصدق على خمس فما فوق ، انه من قبيل عطف الخاص على العام ، ليشير الى ما ذكرناه ، من الشمولية والاستيعاب في مدلول القوة لكل ما بيّناه . وليشير ، الى ان القوة العسكرية ليست الا جزءا من تلك القوة المطلوبة الايجاد ، بكل صورة ممكنة . . .

قوة هادفة

وليست القوة المطلوبة هنا ، لمجرد حب الانتقام ، واشباع شهوة القتل وسفك الدماء ، فان في ذلك نقضا لغرض السماء ، من ارسال الانبياء وبعث الرسل ، كما ان فيه انتقاضاً لرحمة الله ولطفه بهذا المخلوق ، وانما هي وسيلة لغاية سامية ، وهدف انساني عظيم .

وسيلة لردع المعتدي ، وتحطيم تلك الأصنام ، التي تقف بين الانسان وبين تطلّعه الى حياة انسانية كريمة ، تتمثل في كلمة السماء ، وهَدْي الانبياء ، ونور الاسلام :

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

عدو الله وعدو الانسانية . . .

سواء كان ذلك العدو ظاهراً معروفاً للمسلمين ، أو باطنا مستوراً عنهم ، ولكنهُ منكشف امام الله سبحانه ، المطّلع على الخفايا :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

وقد تأتي (دون) بمعنى وراء .

وعليه يكون المراد بمَنْ دون العدو الظاهر المنكشف للمسلمين ، مَنْ وراءهم من القوى ، او العقول المحرّكة لهم ، الذين يعملون في الخفاء ، فيمدّون العدو الظاهر ، بالرأي والمال ، والسلاح والرجال . . .

وقد تأتي (دون) لتستعمل في الدلالة على الرتبة . فيكون المعنى : ان هنالك عدواً لكم ، أخسّ وأحقر من العدو المنكشف امامكم ، يتميز بشدة المكر ، واتساع الحيلة ، وتأصّل الحقد فيه ، وهو لهذه الصفات التي يشتمل عليها ، يعمل في

السر ، ليكون أشدّ فتكاً ، واقدر على الاتيان من حيث لا تشعرون .

ثم ينبّه الله سبحانه جماعة المؤمنين ، الى حقيقة واضحة ، تحكم تعاملهم مع الله وتعامله معهم . هذه الحقيقة تنصّ على ان كل ما يبذلون من طاقات مادية ومعنوية ، في مقام الاعداد لقوة انفسهم ومنعتها ، ليس فيه ادنى خسارة ، بل هو مكتوب لهم معوّض عليهم . سواء قوّم هذا المبذول بمقياس الارض والمادة والارقام ، الحسابية ، فانه سبحانه كفيل بتوفيتهم لما بذلوه بشكل أوْفىَ في دار الدنيا ، وذلك بلحاظ ما سوف يترتب على قوتهم ، وارهابهم لعدوهم وارعابهم له ، من تحرّر اقتصادي وفكري وسياسي واجتماعي ، مما يستلزم بالتالي بناء قوتهم الذاتية في جميع هذه النواحي . واتساع رقعة سيطرتهم ، لا على مواردهم الطبيعية وثرواتهم فقط ، بل اتساع رقعة سيطرتهم المادية والحضارية، على رقعة تتعدى حدودهم الجغرافية الضيقة . . .

اضافة الى ما يترتب على ذلك ، من رضوان الله ورحمته في الآخرة ، حيث يُجزون بما بذلوه بجنة عرضها السموات والارض . . .

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾

وفي هذه التوفية ما فيها ، من العدل الذي لا يشوبه ظلم لا في الدنيا ولا في الآخرة :

﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

* * *

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

ثم يأتي هذا التوجيه الإلهي لجماعة المؤمنين ، بعد ان هيأوا انفسهم لكل احتمال في مواجهة الاعداء . وحصّنوا انفسهم ماديا ، ببناء قواهم العسكرية ، وغيرها . ليُبيّنَ بوضوح ، ان الهدف من اعداد القوة المؤمنة بهذه الصورة ، لم يكن لمجرد القهر وسفك الدماء ، وانما هو ردع قوى الانحراف عن ان تخوض في دماء المستضعفين في الأرض ، وتفتنهم عن دين الله .

ان الهدف ، هو الوصول الى السلام ، والامن ، والطمأنينة . وارساء دعائم هذا

السلام ، على ارضية صلبة ، لا تقوى جحافل الكفر على زلزلتها وتهشيمها . . .

لقد استبطن هذا التوجيه الإلهي ، ضرورة الاستجابة الى السلام ، ان فكّر العدو فيه . وان كان تفكيرهم ذاك ، نتيجة خوفهم مما أعِدَّ من قوة وحشد ، عدداً وعُدة ، في الجانب المؤمن .

﴿ وإنْ جَنحوُا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لهَاَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾

وجَنَح إليه ، يَجْنُحُ ويَجْنِحُ جُنُوحاً : مَالَ .

وعليه ، فيكون معنى الآية الكريمة ، انْ يا رسول الله إنْ مالَ الكفار بعد أن رأوا ما أعددتم من قوة مادية ومعنوية ، لتدافعوا عن الحق ، او تهاجوا الباطل المتمثِل فيهم ، فَمِلْ أنت ومَنْ معك اليه ايضا . ولا تغلق امامهم نافذة شخصوا بأبصارهم اليها . فقد يكونون صادقين ، فتوفر على المؤمنين وعلى الانسانية ، مزيدا من الآلام ، والدموع ، والدماء . وتوكّل في توجّهك هذا الى السلم ، على ربك الذي يسمع ما لا تستطيع سماعه ، ويعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

* * *

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولكن . . .

إن الاعداد والاستعداد مهما بلغا لدى جماعة المؤمنين ، فان ذلك لا يمنع احتمال ان يكون ميل الكافرين للسلام ، مجرد خديعة واحتيال . . .

فلربما يريدون كَسْبَ الوقت لإعداد خططهم المنحرفة .

او لإيهام المؤمنين بأنهم قد صرفوا النظر عن التصدي العسكري ، لثبوت عدم جدواه ، في مقابل القوة المبنيّة على أُسُسٍ متينة وقوية . وذلك بهدف استحداث قوى جديدة لديهم . واستنفار طاقات عندهم لم تستنفر بعد . ومع ورود هذا الاحتمال ، كيف يمكن ميل المسلمين الى السلم والمهادنة . . .؟!

هنا ، تأتي الآية الكريمة لتنبّه الى ورود مثل هذا الاحتمال . ولكنها تقرّر مع ذلك حقيقة عاشها المؤمنون ، ويعيشونها كل لحظة . وهي ان الله حافظ لهم ، محيط بأعدائهم ، مطّلع على خبايا نفوسهم ، ووساوس صدورهم . . . وهو سبحانه بالتالي ، قادر على ان يتدخّل في اية لحظة ، ليُفسد خططهم . ويدمّر عليهم ، ويرد كيدهم الى نحورهم . . .

فما على المؤمنين ، الا ان يفعلوا ما يجب عليهم فعله ، من الاستعداد والحيطة والحذر ، والباقي على الله . فالنصر بيده ، يؤيد به اولياءه . الذين يجعلونه نصب اعينهم ، في كل ما يعملون :

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾

وحَسْبُ[1] : مصدر حَسَبَ يَحْسُبُ . يستوي فيه الواحد والتثنية والجمع . كما في قولهم : رجل عَدْل ، ومعنى حَسْبُ : كافي .

ولا ريب ، في أن العبد عندما يرتبط بالله ، وينقطع اليه متوكلاً عليه ، بعد ان يستنفذ كل طاقة في انجاز فعلٍ ما أو عمل ، فإنه سبحانه يكفيه مؤونته ، اذ يكون بذلك قد ارتبط بأعظم قوة في الوجود ، بل يكون قد ارتبط بمصدر كل قوة في هذا الكون . . .

ثم تلتفت الآية الكريمة ، لتنبّه النبي (ص) ، الى ما كان عليه من وحدة في طريق الحق ، وضعف في مواجهة الباطل . يتيماً فقيراً معدماً ، فأيّده بنصر من عنده ، وجمع حوله عصبة من ذوي الشدة والبأس والمراس ، اصبحوا ـ بفضل من الله وتوفيق وتسديد ـ على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم ، وميولهم وطبقاتهم ، بنية واحدة متراصّة ، وخطاً واحداً لاحباً لا عِوَجَ فيه ، هو طريق الله ، تجمعه راية واحدة ، هي راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولا بأس في الاشارة هنا ، الى ان الله سبحانه ـ شأنه في مَا يعود على الإنسان والإنسانية من الخير والمصالح ـ لا يفيض النصر الا بعد ان يكون الانسان نفسه قد هيأ له اسبابه ، وبذل مجهوداً في حدود امكاناته في السعي نحوه . فهذا شرط اساس

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني مادة / حَسَبَ

من شروط الفيض الإلهي بالنسبة لأي شيء . وهذا منسجم مع سنّة لله في خلقه ، بعد ن أُغلقت ابواب عيش هذا المخلوق بالمعجزات ، وَوُكِلت ـ اضافة الى الفيض الإلهي الذي يُعبِّر عنه في مصطلح الفلاسفة بالفاعلية ما منه الوجود ـ الى الاسباب الطبيعية ، التي هي من شؤون الانسان ، والمعبر عنها في نفس المصطلح ، بالفاعلية ما به الوجود .

ويشير الى هذا ويومي اليه ، تعبير الآية الكريمة :

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

فالتأييد ، مأخوذ في مفهومه لغةً ، التقوية ليس إلاّ ، والتقوية هذه انما تصح لأساس موجود ، يحتاج الى دعم واسناد . . .

نكتة اخيرة

وهنا نكتة اخيرة ، ربما تكون الآية التي نحن بصددها مستبطنة لها . وسياق الآيات السابقة ، بصدد عرض ما ينبغي ان يكون عليه المؤمنون في مواجهة الباطل والطاغوت . . .

هذه النكتة ، قد تكون هي الميزة التي تتميز بها الجماعة المؤمنة عن غيرها من الجماعات ، وهي وحدة القلوب ، ووحدة الافكار والمفاهيم .

ان جماعة تربط ما بين افرادها ، وحدة العقيدة والصورة والاطار والهدف ، حتى لتصبح بذلك قلباً واحداً ، ويداً واحدة ، لا يعقل لقوة في الارض ان تهزمها ، او تنال منها ، فيد الله مع الجماعة . وما ذلّت امة في التاريخ وتمزقت ، الا بعد ان عصفت بها الفرقة ، وتعددت فيها الرايات ، وتكثّرت بينها الاحزاب والتجمعات ومراكز القوى .

ولعل الاستعمار الكافر ، ادرك هذه الحقيقة ، فعمل على خلقها في العالم الاسلامي ، حتى نَمَتْ وتجذَّرت ، فصارت هذه الامة الى ما نراها عليه اليوم ، من ضعف وانحلال وتشتّت . . .

فالأمة الاسلامية التي خلقتها ارادة الله ، ووحّدت بين قلوب ابنائها المتنافرة رسالة السماء ، لن تعود الى ما كانت عليه من عزة ورفعة ومَنَعَة ، الا اذا عادت الى

موقعها مستظلة راية التوحيد التي جمعت شتاتها في اول امرها . ولن يصلح اخر هذه الامة الا بما صلح به اولها .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

بعد هذه الجولة الطويلة من التوجيهات الالٓهية لجماعة المؤمنين ، والتي تضمنتها الآيات المتقدمة ، حول ما ينبغي ان يكون عليه حالهم في مواجهة اعدائهم حربا او سلما ، تأتي نداءات إلٓهية موجهة الى المؤمنين ايضا ، من خلال رسول الله (ص) تنصب على ما ينبغي على النبي كقائد ، ان يفعله اتجاه اتباعه اثناء المعارك .

وفي هذا الاطار ، تأتي الآية الأولى ، لتؤكد ما تضمنته الآية السابقة عليها من كفاية الله سبحانه لعبده ، الذي هو رسول الله (ص) ، ومن بعدُ كل مؤمن جسّد عبوديته لله في افعاله وتصرفاته ، ومن هنا كانت كفاية الله لرسوله في مواجهته للمشركين بتأييده وتسديده ولطفه ، الذي انتج التفاف المؤمنين حوله كأنهم بنيان مرصوص ، هذا الالتفاف ، الذي يعكس حقيقة تلاحم الجبهة الداخلية للمسلمين ، وتمحورها حول قيادتها المتمثلة بالنبي (ص) ، وفي ذلك ما فيه من قوة ، ومَنَعة ، تنعكسان على تحركهم دفاعاً وهجوماً ، وفي جميع الأحوال. . .

وقد تأتي (مَن) في محل رفع على انها مبتدأ محذوف الخبر فيكون التقدير ﴿ومَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَسْبُهُمُ الله﴾[1] .

واقعية وعقلانية

ثم تعود الآية التالية لهذه الآية ، لتلفت نظر رسول الله (ص) الى دوره كقائد

---

(١) ذهب الى هذا القول الحسن راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٧/

مسؤول عن امة ، ولتنبّهه وجميع من معه ، في الحاضر ومستقبلاً ، بأن كفاية الله له بتأييده بنصره وبجماعة المؤمنين ، لا تعني بحال من الأحوال ، ان ينفض يده من أية مسؤولية ، معتمدا على هذا التأييد وتلك الجماعة ، ومنتظرا معجزات السماء ، فان في ذلك خروجا على سنته سبحانه في النصر والهزيمة ، بعد ان ارادهما ، كما يفهم من مجموع الوقائع والاحداث في تاريخ هذه الدعوة المباركة ، وكما يفهم من الاطار الفكري العام لهذا الدين ، بالاسباب المتعارفة لا بالخوارق والمعجزات .

بل ان هذا التأييد ، وتلك الكفاية ، انما يجديان ويوجدان ، متى تحقق شرطهما ، وهو قابلية المحل لتحمّل مثل هذا النصر الذي يترجم عند حصوله ، لا بالثناء الفارغ والعظمة الجوفاء ، بل باتساع رقعة المسؤولية الانسانية على امتداد الزمان والمكان . ولن توجد مثل هذه القابلية في المحل إلا إذا تحوّل المسلمون إلى بنية محاربة ، قادرة على التصدي لكل صور الانحراف والطغيان في الارض ، وتجذّرت فيهم روح التضحية والعطاء من دون شح ، ولذا فان النبي كقائد ، عليه ان يتولى عملية التحويل هذه والتجذير تلك بإبقاء الروح المعطاءة متأججة في نفوسهم وعقولهم ، وذلك بتحريضهم الدائم على القتال في سبيل الحق وخوض المعارك على جميع الاصعدة ضد قوى الباطل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾

وحرّضه يُحرّضه : حثّه وأحماه عليه . ومنه قوله تعالى

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [1]

ولا إشكال في أن لهذا التحريض ، علاقة بقلة المسلمين العددية امام كثرة اعدائهم ، هذه القلة ، التي قد تكون سبباً في استشعارهم شيئا من الضعف ، وذلك امر طبيعي ومعقول ، والذي يشعر بهذا قوله تعالى بعد ذلك :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

واحد من المؤمنين لكل عشرة من الكافرين ؟!!

ويؤيده ان الآية نزلت بالبيداء ، في غزوة بدر قبل القتال [2]

---

(١) النساء / ٨٤ (٢) مجمع / ٤ / ٥٥٧

والتحريض هنا للوجوب ، فهو امر ؛ وانبعاث المسلمين عن هذا الامر واجب ايضا ، ويدل عليه قوله تعالى فيما بعد

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾

فان التخفيف لا يكون الا بعد التكليف[1] .

ولهذا يبطل ما اختاره الطبري[2] في تفسيره من أن هذا الشيء لم يكن أمراً عزمه الله على المؤمنين ولا أوجبه .

وقد مارس النبي (ص) مثل هذا التحريض ، ففي بدر وقبل ابتداء المعركة ، بعد ان صف اصحابه ، وتقابل الفريقان ، قال (ص) : « قوموا لى جنة عرضها السموات والارض . فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله (ص): نعم فقال: بخ بخ. فقال (ص) :مايحملك على أن تقول بَخٍ بَخٍ قال : رجاء ان اكون من اهلها . قال : فإنك من اهلها . فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه ، واخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم القى بقيتهن من يده وقال : لئن انا حييت حتى آكلهن انها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل »[3] .

ويمكن أن يكون للتحريض صور غير بيان ما يترتب على الجهاد من الاستشهاد الذي يؤدي الى الجنة . فقد يكون ببيان ما وُعِدوا من النصر والظفر بأعدائهم مع ما يترتب على ذلك النصر ، من غنائم الحرب على اختلافها . . . من منقول وغير منقول .

ولكن كيف يغلب الواحد من المسلمين عشرة من المشركين ؟!

نعم ان ذلك ممكن ، ولكنه يتطلب وجود امرين في المقاتل المسلم ، نبهت عليهما الآية الكريمة تصريحاً وتلميحاً :

الاول : ما صرحت به الآية وهو الصبر على القتال في ساحة الحرب .

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

---

(١) راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٧ وقد ذهب الامام الخوئي من الامامية الى ان الامر هنا استحبابي راجع البيان ص ٣٧٦ .

(٢) الطبري /١٤/٥٣

(٣) تفسير ابن كثير /٢/٣٢٤

ولا اشكال ولا ريب ، في ان الصبر ، عندما يتوفر في نفس من النفوس ، يستطيع صاحبها اجتراح المعجزات في حدود امكاناته . ومن المعلوم ان الصبر لا يتناول في آثاره القتال من حيث خشونته وشراسته فقط ، بل يجعل صاحبه مُوطّنا النفس على الاستمرارية فيه ، ومواصلته ، ما دام قادراً على ذلك ، وعنصر الزمن مهما امتد مؤثرٌ فعاّل في نتيجة اية معركة من المعارك الحربية.

وقد ربىّ الاسلام من خلال كثير من تشريعاته العبادية وغيرها ، الانسان المسلم على هذه الخصلة ، ولذا عندما نجده هنا يحثّ المؤمنين عليها، ويُنَبّهم الى خطورتها ، فإنه لا يُحَملهم فوق ما يطيقون .

الثاني : ما لمحّت الآية الكريمة الى افتقاد الكفار له ، وهو الفهم لطبيعة الحرب ، واهدافها ومنطلقاتها .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

والفقه في اللغة الفهم . . . ويستشعر من ذلك ان من المفروض في المقاتل المؤمن بحكم ارتباطه بالله سبحانه ، وادراكه لحقيقة الاسلام ومراميه السامية ، وفهمه لطبيعة دوره في هذه الحياة بالنسبة لنفسه ولمجتمعه البشري ، من المفروض في مثل هذا المقاتل انه يفهم بالتالي ، لم كانت هذه الحرب ، وما هي الغايات التي ترمي اليها ، ومن الواضح انها ليست غايات توسّعية او انتقامية او استعمارية ، وانما هي لاجل تحرير الانسان من عبوديته لطواغيت الارض وجبابرتها ، وتعبيده بدلا من ذلك لرب الارض والسماء ، وخالق الكون والانسان ، ومعنى ذلك تمكينه من لعب دوره في الحياة ، من بناء المجتمع العابد في الأرض ، ذلك المجتمع ، الذي تحكمه شريعة الله لا شريعة الغاب ـ وترفرف عليه السعادة الحقيقية في ظل احكام السماء العادلة .

ومما لا ريب فيه ، ان عدم ادراك الكافر لكل هذه المعاني ، يجعله سجين رغبته ونزوته ونظرته المصلحية الفردية ، وتحرّكه في اطار تلك النظرة ، التي عندما يشعر اثناء المعركة ، او قبل ابتدائها . انها لن تتوفر له من خلال القتال ، فانه سرعان ما ينسحب او يتخاذل .

اضف الى ذلك ، ان هذا الانسان المحدود ، سوف يقيس قوة جيش الإيمان بمنظاره هو ، منظار العدد والعُدّه من دون ان يدخل في حسابه عنصر الإيمان ، وما يستتبعه من توطين صاحبه النفس على البذل حتى الموت ، وما يستبطنه ذلك من عزم

على الاستمرارية في المعركة بقوة وصبر وجلد ، وعندئذٍ سوف يفاجأ جيش الكفر بعنصر في المعركة جديد . يقلب كل تصوراته عن سَيْر القتال ، ويُربك كل مخططاته التي رسمها في حدود تفكيره . ونتيجة ذلك : الهزيمة والخذلان . . .

* * *

﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

الخلاف حول ناسخية الآية

ذهب جلّ العلماء ، الى ان هذه الآية ، ناسخة للحكم في الآية السابقة عليها ، من لزوم ثبات الواحد من المؤمنين لعشرة من الكافرين . لانها نزلت بعدها متضمنة لحكم وجوب ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من الكافرين . ويشترط في الناسخ ان يكون لاحقا في النزول للمنسوخ .

وقد خالف في دعوى النسخ هذه الامام الخوئي[1] من الامامية لان القول بالنسخ « يتوقف على اثبات الفصل بين الآيتين نزولا ، واثبات ان الآية الثانية نزلت بعد مجيء زمان العمل بالآية الاولى ، وذلك لئلا يلزم النسخ قبل حضور وقت الحاجة ، ومعنى ذلك ان يكون التشريع الاول لغوا ، ولا يستطيع القائل بالنسخ اثبات ذلك ، الا ان يتمسك بخبر الواحد » والنسخ بخبر الواحد غير ثابت . . .

كما خالف في دعوى النسخ هذه ، ابو مسلم الاصفهاني[2] .

وعلى دعوى النسخ ، فقد اختلف المفسرون ، هل كان في معركة واحدة ، وهي بدر ، كما يذهب اليه البعض[3] .

او انه نزل بعد فترة من بدر ، « فالتغليظ كان على اهل بدر ، ثم جاءت الرخصة » كما ذهب اليه الحسن وغيره[4] .

---

(١) البيان في تفسير القرآن للامام الخوئي ص ٣٧٥

(٢) فيما ينقل عنه الرازي بنقل القاسمي في محاسن التأويل ج ٨ ص ٣٠٣٤

(٣) راجع لباب التأويل في معاني التنزيل للبغدادي المعروف بالخازن جـ ٣ ص ٤٠

(٤) راجع مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٥٥٧/٤

إمكان النسخ

وليس النسخ مستهجناً ، لانه لا يتنافى مع علم الله سبحانه المطلق . فنحن نعلم، ان الاحكام الإلٓهية انما تشرع ، وفقا لما تقتضيهـا من المصالح والمفاسد ، التي يعلمها تعالى . والتي لا نستطيع بحكم محدوديتنا في الزمان والمكان ، ان نحيط بها وندركها . . .

وعلى هذا ، فالحكمة هنا على دعوى النسخ، كانت تقتضي في علمه، تشريع الحكم الاول الذي يستبطن شدة وحمازة . وهذه الحكمة معلومة له سبحانه ، مقدَّرة بأجلٍ ووقتٍ محدّدين عنده .

ثم ، وبعد ان تحققت الحكمة واستنفذ الاجل المحدد لهذا الحكم ، اقتضت الحكمة ان يرفع ليثبت غيره ، وهو الحكم الجديد ، الذي تضمنتـه الآية اللاحقة . ولا ريب ان هذا الرفع كالوضع ، هو من شؤونه سبحانه ، كما اخبر في كتابه العزيز .

﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾

وقوله سبحانه:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾

ومن هنا ، قعَّدَ العلماء القاعدة المعروفة :

«الرفع لمن بيده الوضع»

حكمة وأسلوب

ولا بأس في الالفات الى شيء ، ربما كان حكمة كامنة وراء هذا الموقف الآلهي ، حكمة كامنة وراء تشريع وجوب تصدّي الواحد من المسلمين لعشرة من الكافرين ، قبل ان ينسخ . بناءاً على تمامية دعواه . . .

وهذه الحكمة تتلخص ، في ان ذلك يدفع المسلم (وهو في بداية طريق صدامي طويل ضد الكفر والانحراف) الى ان يخوض تجارب قاسية ، تحطم في اعماقه حاجز الخوف . وتبُثُّ فيه روح الشجاعة والاقدام ولا اشكال في ان جبن

الانسان انما يتعمق في نفسه نتيجة تهيّبه الدخول في مواقف صدامية قد تعرض له في حياته ، وتكون حصيلة هذا التهيّب المتكرر ، نفسية متخاذلة ، منهارة ، تستسلم للضغوط وترضى بسياسة الامر الواقع . . .

في حين، ان حصيلة تكرار خوض المواقف الصعبة والصدامية، هو تعوُّدُ الانسان على هذا النمط من الأفعال، وردود الأفعال بحيث تصبح معه الشجاعة ملكة فعالة، ودافعة تمنعه من الخورِ والضعف والجبن ، امام الباطل ، وتخلق منه شخصية مقاتلة ، ومؤمنا مستعدا لبذل روحه الى جانب الحق وقيم الخير .

ومن هنا ندرك السر ، في ضعف الامة في عصورها المتأخرة ، وهزائمها المتلاحقة ، حتى امام اقليات عنصرية ، من المفروض فيها ان تكون اولى بالهزيمة والضعف .

ان السر هو تقاعس الامة عن الجهاد ، نتيجة تهيّبها من اتخاذ المواقف الصدامية ، التي قد تجعلها مضطرة الى التخلي عن حياة فيها من الترف والدعة ، اكثر مما فيها من العزة والكرامة والاباء . وقد ولّد هذا الشعور ، في نفوس ابناء الامة بشكل عام ، روحا انهزامية متخاذلة ، بعيدة كل البعد ، عن الحكمة السامية التي رمى الله سبحانه اليها ، من وراء هذا التشريع في سورة الانفال . . . وفي غيرها من السور القرآنية .

ثم تتوّج الآية الكريمة ، هذا الحكم ، بالتذكير بما للصبر من دور فعاّل في النصر . وان الصّابر الصادق ، مسدد من الله ، ومؤيد بتأييده ولذا فلا خوف عليه . . .

﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

* * *

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

أسرى جمع اسير . وقد يجمع على أسارى

والأسر : هو (الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له)[1] والمأسور هو المشدود بالسير من الجلد ، ثم اصبح يطلق على كل من اخذ في الحرب من الاعداء .

والإثخان : من الثخن ، وهو الغلظ والكثافة . والمراد بالإثخان في الارض هنا (تغليظ الحال[2] بكثرة القتل) .

والعَرَض : هو ما يعرض على الشيء فيكون عرضة للزوال عنه ، ومفارقته له ، في مقابل الجوهر . ومن هنا سمي متاع الدنيا عرضاً ، لقلة بقائه ، وسرعة زواله وتلاشيه . . .

سبب نزول الآيات

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآيات[3] انه بعد انجلاء المعركة ببدر عن هزيمة منكرة للمشركين حيث قتل منهم سبعون وأسر مثل هذا العدد في حين كان قتلى المسلمين تسعة رجال على رواية وأحد عشر رجلا على رواية اخرى من دون ان يؤسر منهم احد . فجمع المسلمون الأسارى وساقوهم ، فلما قتل النبي (ص) منهم « النضر بن الحارث وعقبة بن ابي معيط خافت الانصار ان يقتل الاسارى ، فقالوا : يا رسول الله ، قتلنا سبعين ، وهم قومك وأسرتك أتجذ اصلهم ؟ فخذ يا رسول الله منهم الفداء ، وقد كانوا اخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش . فلما طلبوا اليه وسألوه نزلت الآية : ما كان لنبي ان يكون له اسرى الخ وما بعدها فأطلق لهم وكان اكثر الفداء اربعة آلاف درهم واقلّه الف درهم » .

غفلة وتأنيب وتذكير

انها لحظة من لحظات الضعف البشري ، التي قد تعتري بعض بني

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٨

(٢) نفس المصدر

(٣) يراجع تفسير مجمع البيان للطبرسي المجلد ٤ ص ٥٥٩ ، كما يراجع في سبب النزول ولكن بنصوص مختلفة تفسير الطبري جـ ١٤ ص ٦١ وتفسير ابن كثير ٢/٣٢٥

الانسان ، بين فترة واخرى ، فتنسيه دوره الذي هيّء له ، وتصرفه عما ينبغي ان يكون عليه من ارتفاع وطموح وتحليق ، وعيش في المستقبل على ضوء المعطيات التي من المفروض فيه ان يملكها من خلال القيم والمبادىء التي زوّدته بها تعاليم السماء ، لتتركه يتخبط في عالم الطين والارض والتراب على ضوء اهوائه ورغباته التي تتقوقع في اطار عالم الضرورات . . . فيتصرف على ضوئها ، ويتحرك وفق ضغوطها . . .

وهذا هو عينا ما حصل لدى بعض المسلمين بعد انجلاء غبار المعركة في بدر ، عن هزيمة ساحقة لجيش الباطل ، .وانتصار مؤزر لجيش الايمان بقيادة رسول الله (ص) . . .

لقد استهوى هذا البعض حطام الدنيا من مال وغنائم ، فجعلهم ـ لا شعوريا ـ يعيشون لحظاتهم تلك منقطعين عن سنوات ماض حافل بالآلام والمحن بسبب اتباعهم طريق الهدى والايمان ، وغير مدركين ان وقعة بدر بداية مرحلة من المفترض ان تكون اشرس واشد في مقابل قوى الكفر والطغيان وصولاً الى الهدف النهائي الذي رسمه لهم الاسلام من اعلاء كلمة الله في الارض مرورا بتحرير الانسان من كل العبوديات لغير الله ، تلك العبوديات التي تدفعه ابدا عن الاتصال بالله والاهتداء بنور هداه .

لقد تشبث هذا البعض بعرض زائل ، غافلين عن الجوهر الذي يبقى ويستمر . . .

استبدلوا الأدنى بالذي هو خير . . .

فضّلوا الاحتفاظ بالغنائم واخذ الفداء ، على الاحتفاظ بالاسرى تعزيزا لشوكة الحق وإمعاناً في إذلال الباطل المتمثل فيهم من خلال جرهم مكبلين بالقيود والاغلال . . . « تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة » .

وعندما نقول بأن البعض من المسلمين ببدر هم الذين تورطوا في مثل هذا الهبوط وذلك الانهزام النفسي ، لننبه الى ان الكثرة الكاثرة منهم بقيت على صفاء الرؤية ووضوح الهدف وسلامة القصد ، غير عابئة بغنائم او فداء ومتاع ، ولذا نراها ساوعت الى الطلب الى رسول الله (ص) ان ينزل اشد النكال والعقاب بهؤلاء الاسرى ، من دون ما شفقة او رأفة . . .

يجسد حقيقة موقف هذه الكثرة الواعية من المسلمين كلمة سعد بن معاذ

لرسول الله (ص) عندما رأى كراهته اخذ الفداء قبل نزول الآيات المباركة حتى بانت تلك الكراهية في وجهه الشريف ، قال : « يا رسول الله ، هذا اول حرب لقينا فيه المشركين والاثخان في القتل احب اليّ من استبقاء الرجال »[1]

ولكن ضعف هذا البعض في بدر لا يؤثر مقدار ذرة في قوة الله وغلبته لانه هو « العزيز » . . . وبالتالي غلبة كل من يلوذ بتلك القوة وهذه الغلبة .

وان ضعف هذا البعض الذي ادى به الى اختيار الطريق الخاطىء واتباع الهوى حيث غوى ، لن يؤثر مقدار ذرة في تنفيذ ارادة الله بوضع الامور في مجراها الصحيح ، لانه هو « الحكيم » الذي لا يضلّ ولا يُضَلّ فيه .

ما سبق وما لحق

ولقد كان ما كان ، وحصل ما حصل ، فماذا كان الموقف الإلهي ، ازاء الموقف البشري هذا ؟

﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

لولا مركبة من « لو » و « لا » وهي حرف امتناع لوجود ، « تدخل على جملتين اسمية ففعلية لربط امتناع الثانية بوجود الاولى »[2]

والفاء في (فيما) للسببية .

ولكن ما المراد بالكتاب الذي سبق في الآية الكريمة ؟

لقد اختلفت كلمات العلماء في المراد به على اقوال[3] : قول بأن المراد بالكتاب القرآن ، حيث ان ايمانهم به وتصديقهم له استوجب الغفران لهم وقد اختاره الجبائي .

وقول لابن عباس وهو انه « لولا ان الله حكم لكم باباحة الغنائم والفداء في ام الكتاب وهو اللوح المحفوظ لمسّكم فيما استحللتم قبل الاباحة عذاب عظيم فان الغنائم لم تحل لأحد قبلكم » .

---

(١) راجع تفسير الطبرسي مجلد ٥٥٩/٤ وتفسير القرطبي جـ ٤٧/٨ والخازن ٤٠/٣

(٢) محيط المحيط للبستاني مادة : لَوَلَ

(٣) راجع مجمع البيان للطبرسي ٥٥٨/٤ - ٥٥٩ والقرطبي ج ٨ ص ٥٠ والطبري ٦٤/١٤

وقول نقل عن ابن جريج مؤداه انه « لولا ما مضى من حكم الله ان لا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون وانه لم يبيّن لكم ان لا تأخذوا الفداء لعذّبكم بأخذ الفداء » .

ومهما يكن اختلاف الاقوال في معنى الكتاب الذي سبق ، وان لم يبعد ان تصلح مجتمعة لتوضيح المراد بشكل عام ، فانه يمكن ان يكون الكتاب مأخوذا مـن الكتب وهو عندما ينسب الى الله سبحانه انما يراد به الحكم والقضاء ، وهما من معاني الكتاب لغة[1] .

وقد كان هذا الحكم الآلهي وذلك القضاء الرباني موجبين لدفع العذاب العظيم عنهم بسبب ما ارتكبوه في قضية اخذ الفداء من اسرى المشركين ببدر . . . مندفعين بعيدا عن الهدف من خروجهم اليها تحت ضغط تعلقهم بالدنيا وعرضها الزائل الحقير . . .

وقد يكون لوجود رسول الله (ص) بين ظهرانيهم مدخلية في دفع العذاب عنهم ، لما سبق وقضى سبحانه بأن يكون محمد رحمة للبشرية كلها كما بيّن في موقف آخر تقدم اوائل هذه السورة وهو قوله سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم »[2] .

بعد هذا التحذير المستبطن توبيخاً ورد الحكم الألهي بإباحة ما أخذوه من الفداء ، لا لانه اصبح امرا واقعا كما قد يتوهم ، وانما هو اللطف الآلهي الذي كان يشملهم بشكل عام في كل موقف منذ اللحظة الاولى لتحركهم من المدينة ، وهو عينه اللطف الآلهي الذي انتزع منهم ملكية الغنائم عندما اختلفوا حولها وتنازعوا عليها ايقاظا لهم من غفلتهم عن الهدف الذي خرجوا من اجله الى بدر وانقاذا لهم من انفسهم التي ضعفت امام هواها ، وتربية آلهية لهم ترفعهم الى آفاق الانسانية العابدة المرتبطة بالله ، وتترفع بهم عن الرضوخ لعالم الضرورات وتزكيهم ليتمحضوا لله ويخلصوا عملهم من أجل رضوانه وإعلاء كلمته . . .

وهو ايضا عينه اللطف الآلهي ـ بعد ان تحققت الحكمة ـ الذي أعاد إليهم ملكية هذه الغنائم بعد اخراج خمسها ، كما مرّ ذلك مفصلا عند تعرضنا لآية

---

(١) راجع مادة كتب من محيط المحيط للبستاني   (٢) آية ٣٣

الخمس[1] من هذه السورة .

« فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً »

« والفرق بين الحلال والمباح ان الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل ، وان اجتمعا في الحل »[2] .

والطيب : المستلذ . و« حلالاً طيباً » منصوب على الحال . . .

والفاء في « فكلوا » للجزاء . اي : لقد احللت لكم الفداء فكلوا منه .

ولكن هذا اللطف الالهي الذي شملكم الآن وفيما سبق ، ينبغي ان يكون بالنسبة لكم حافزا على الالتزام بأوامر الله ونواهيه ، ومذكرا لكم باستمرار بأنه سبحانه هو المالك لأموركم ، وانتم المملوكون لارادته وسلطانه ومن شأن المملوك ألّا يتصرف اي تصرّف في نفسه وفيما يعود الى غيره الا وفق ما يرسم له مالكه ، وعندما تكونون بهذا المستوى من الارتباط بالله ، تتحقق فيكم التقوى ، حيث تكون وقاية لكم من الوقوع في معصية ربكم والخروج عن دائرة عبوديتكم له . . .

﴿ واتقوا اللّهَ ﴾

واعلموا ان الله سبحانه قد تجاوز عما ارتكبتموه في امر الفداء من تسرّعكم في الحكم فيه قبل ورود حكم الله فيه ، وغفر لكم رحمة منه بكم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

المقصود بالأسرى هنا الذين طلب الله سبحانه من نبيّه (ص) ان يبلّغهم هذا البلاغ الإلهي ، أسرى بَدْر . « وانما ذكر الأيدي ـ لِمَنَ في ايديكم ـ لأن من كان في وثاقهم فهو بمنزلة من يكون في أيديهم لاستيلائهم عليه »[3] .

---

(١) آية ٤١

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٨

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٦٠

وقد تضمن هذا البلاغ السماوي وعداً من بندين :

الأول: تعويض دنيوي من سنخ ما اخذ منهم من فداء ولكنه اوفر واكثر .

الثاني: تعويض اخروي اعظم وابقى من هذا العَرَض الدنيوي الزائل لا يعادل بمال ولا متاع ولا سلطان . ذلك هو رضوان الله عليهم بعدما ارتكبوه في حق الاسلام والمسلمين ، ومغفرته لهم مع ما يترتب على ذلك من لوازم في الدنيا والآخرة . . .

تطييب وترغيب

ومن الواضح ان هذا البلاغ الالهي ، كما في بلاغات الهية اخرى تكرر ورودها في كتاب الله ، استبطن تطييباً لخواطر اولئك الاسرى الذين وجدوا انفسهم في تلك اللحظات يعانون بحدّة ما ترتب على هزيمتهم الشنعاء ببدر ، فهم من ناحية يستشعرون مدى الهوان الذي لحق بهم بعد ان قتل القسم الاكبر من صناديدهم وها هو القسم الاخر يرسف في القيود والاغلال بعد ان كانت غطرستهم وعنجهيتهم تصور لهم ان هذه القيود سوف تكون في هذه اللحظات من نصيب مَنْ يمكن ان يبقى من اعدائهم المسلمين على قيد الحياة . . . !!

وهم من ناحية أخرى يدركون ضخامة الخسائر التي منوا بها نتيجة هذه الحرب، تلك الخسائر التي ضمت إلى جنب الغنائم التي حازها المسلمون من معسكرهم على اختلاف أنواعها، الفداء، الذي كان مقداره لكل واحد من الأسرى أربعين أوقية من الذهب إلا العباس بن عبد المطلب فقد كان فداؤه ثمانين أوقية(١).

وهذا التطييب لخواطرهم في تلك اللحظات النفسية الصعبة التي يعيشون يزامنه ترغيب إلهي لهم بالايمان بالرسالة الجديدة والدخول في طاعة الله ورسوله والانضمام الى جماعة المؤمنين وهجران ما هم عليه من كفر وعناد ومحاربة للحق وأهله ، وذلك من خلال وعده لهم بالتجاوز عنهم وادخالهم ضمن دائرة رحمته التي وسعت كل شيء وغفرانه ورضوانه .

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٩

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾

ولم يكن هذا التطييب وذلك الترغيب اللذين استبطنهما الوعد الإلهي لهم ، مجرد شعار خاوٍ وموقف ادعائي مسرحي وانما كانا حقاً وصدقاً وحقيقة تجسّدت بوضوح في عالم الواقع يكفينا هنا ايراد نموذج واحد كشاهد على ما ذكرناه من حقانية الوعد الإلهي وصدقه ومن اصدق من الله قيلاً ، وهو لا يخلف وعده .

ذلك النموذج الحي ، هو ابرز الأسرى ببدر ، العباس ابن عبد المطلب ، عم النبي (ص) حيث كان مجموع ما دفعه فداءاً يوم بدر مائة وثمانين اوقية من الذهب ، ثمانين منها عن نفسه بعد ان امر رسول الله (ص) اصحابه بأن يضعفوا الفداء عليه ، وثمانين اوقية دفعها فداءا عن ابني اخويه نوفل بن الحارث وعقيل بن ابي طالب اضافة الى عشرين اوقية كانت معه حين اسر فاعتبرت غنيمة عندما رفض النبي (ص) ان تحسب من جملة فدائه قائلا له « لا ، ذاك شيء اعطانا الله منك »[1] .

العباس بن عبد المطلب هذا ، الذي كان اكثر الاسارى خسارة مادية يوم بدر يروى[2] عنه انه قال : « فأعطاني الله مكانها عشرين عبدا كل منهم يضرب بمال كثير ، وأدناهم يضرب بعشرين الف درهم ، واعطاني زمزم ، ما احب ان لي بها جميع اموال اهل مكة ، وانا انتظر المغفرة من ربي » .

شرط لا بد من تحققه

ولكن تحقيق هذا الوعد الإلهي بشقّيه ، منوط بأن يحقق هؤلاء الاسرى شرطا ممكن التحقيق بالنسبة اليهم ، لانه مقدور لهم وهذا الشرط هو ايمانهم مع خلوص نيتهم في التوبة والاقلاع عما هم عليه من ضلال ، والخروج مما هم فيه من ظلام ، والإهتداء الى مصدر الخير والهدى والنور . . .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾

---

(١) راجع القرطبي جـ ٨ ص ٥٢

(٢) راجع مجمع البيان للطبرسي ٤ / ٥٦٠ وتفسير القرآن العظيم لابي الفداء ٢ / ٣٢٨ وتفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢ / ٢٣٨

وهل من خير اعظم واكرم من نعمة الهداية والايمان يعيش الانسان في رحابه بسلام مع نفسه ومع مجتمعه ؟ يأمن ويؤمن ويؤتمن . . . ؟!

* * *

﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

تحذير وتذكير

الخطاب وان كان موجها هنا الى النبي (ص) الا ان ذلك لا يمنع ان يكون المقصود منه تحذير هؤلاء الاسرى. ان هم ارادوا الدخول في الاسلام بنطقهم بالشهادتين من ان يكون موقفهم ذلك مجرد مكر ونفاق وخديعة للرسول وجماعة المؤمنين ، وخيانة لهم ، وذلك ليس ببعيد عليهم ولا منهم ، كيف وقد سبق ان خانوا الله عندما كذّبوا رسوله وحاربوا رسالته وعملوا على طمسها بالتآمر على قتل حامل لوائها والجائه إلى هجر بيته والابتعاد عن بلده وأهله وتأليبهم القبائل عليه ، وعقدهم المعاهدات مع اليهود ، اعداء الله والانسانية لخنق دعوته .

﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾

يحذرهم الله من ان يعودوا لهذا ، ويحذر نبيّه (ص) منهم ليعدّ العدّة ويأخذ الحيطة ، وفي نفس الوقت يذكّرهم بأن النتيجة سوف تنقلب عليهم وبالا وخزيا ودمارا ، كما إنقلبت عليهم في خيانتهم الاولى ، حيث مكّن المؤمنين من رقابهم ، يُقتّلون صناديدهم ، ويأسرون ابطالهم ، ويغنمون نساءهم واموالهم ، ويمرّغون انوفهم في الذل والهوان والصغار .

﴿ فأمكنَ منهم ﴾

ثم يحذرهم مرة اخرى ، ان هم اظهروا كلمة الاسلام وابطنوا الكفر والشقاق والنفاق ، بأن الله مطلع على سرائرهم ، يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . .

﴿ واللّهُ عَليمٌ ﴾

ويترتب على علمه بما تنطوي عليه نفوسهم من خيانة او تصديق حق ما تقتضيه حكمته السامية من تمزيق او توفيق ، فهو « حكيم » يضع الامور في نصابها . . .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

معالم مجتمع جديد

معركة بدر ، كما اتضح من خلال كل ما تقدم ، كانت فرقانا بين مرحلتين من مراحل الدعوة الاسلامية المباركة ، في ذاتها ، وفرقانا حاسما في نتيجتها بين مسيرتين ، مسيرة مباركة ترعاها ملائكة السماء ، ومسيرة منحرفة تواكبها شياطين الارض والسماء .

وكانت قد سبقت هذه المعركة الفصل ، معارك بين العصبة المؤمنة بقيادة رسول الله (ص) واعداء الله ورسوله من ائمة الكفر واولياء الشيطان في قريش ، معارك من سنخ آخر كانت القوة تستعمل فيها من جانب واحد حيث لم يؤمر المؤمنون بعدُ بقتال .

وان بطاح مكة وصخورها وازقتها لتشهد مدى الصبر على الاذى وتحمل صنوف الآلام والاحزان وضخامة التضحيات التي بذلها المؤمنون الاولون كثمن للحفاظ على ايمانهم والدفاع عن عقيدتهم ، حتى توجت تلك التضحيات بمعركة كبرى مع النفس خرج منها الإيمان منتصراً من خلال انتصار المؤمنين على كل علائق الارض والطين والتراب ، تلك هي معركة الهجرة ، في شكلها الاول على مستوى ضيق الى الحبشة ، وفي شكلها الثاني على المستوى الاوسع الى المدينة . . .

ولا نكون مبالغين عندما نعبّر عن هذه الهجرة بالمعركة الكبرى ، لأنها تستبطن الجهاد الإكبر بالمعنى المتقدم كما ورد عن رسول الله (ص) . . .

نعم . . . انها معركة كبرى مع النفس . . . ولا يمكن ان ينتصر فيها الا مَنْ توثقت علاقته بالله حتى اضمحل ازاءها كل ما يمكن ان يتصور من علائق الانسان بغيره . . .

علاقته بالارض والوطن . . .

علاقته بالاهل والولد . . .

علاقته بالعشيرة والجاه والمنصب . . .

علاقته بالمال والفضة والذهب . . .

علاقته بكل شيء . . . عدا الله ؟!!

هذا ما كانت تعنيه الهجرة بالنسبة للمسلمين الاولين . . .

ولذا كانت هجرتهم قمة الجهاد . . . جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، بل بما هو انفس واعزّ . . .

بعد تسنمّهم قمة الايمان . . .

ولكن ، لم تتمخض الهجرة المباركة عن هذه النتيجة العظيمة فقط ، بل تمخضت عن شيء آخر لا يقل اهمية ولا اثرا في حياة الاسلام والمسلمين ، بل الانسانية جمعاء . . .

عنيتُ أوّلَ مجتمَع عابد في الارض . . . المجتمع المسلم بيثرب . . .

هذا المجتمع الذي بدأ رسول الله (ص) بإرساء قواعده منذ الايام الاولى لوصوله الى موطنه الجديد . . . الى اليوم الذي شاء الله سبحانه ان يتحول فيه المسلمون الى قوة ضاربة ، يُحسب لها الف حساب . . . يوم بدر . . .

لقد كان هذا المجتمع الجديد قد بدأت تتضح معالمه على جميع الصُعُد سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وغير ذلك . . .

معالم لم تكن لها سابقة في تاريخ الانسانية الطويل . . .

وكان النبي (ص) يضع بأناة وحكمة كل مَعْلَم من هذه المعالم في مكانه السليم ، مسترشداً في ذلك كله توجيهات السماء . . .

إلى أن تمت الولادة السعيدة لهذا المجتمع الأرضي ذي الأبعاد السماوية والسمات الاسلامية . . .

ولم يعد ينقص هذا الوليد الجديد لينمو ويترعرع ويشتد عوده ليعم خيره الانسانية كلها الا قوة تدفع عنه كيد اعداء الانسان والقيم الذين يتربصون به وبحاملي رايته الدوائر . . .

وقد شاء الله لهذه القوة ان توجد ، وان تكون معركة بدر اولى مجالات اختبارها كعنصر وقائي قبالة جراثيم الكفر والطغيان والانحراف .

ضمانات لا بد من توافرها

ومما لا شك فيه ، ان مجتمعا جديداً كهذا ، وتجربة رائدة كهذه ، لكي ينمو ويتجذّر ، وتتفاعل وتؤثّر فتؤثَر ، يحتاج الى كل طاقات افراده ، وكل جهود ابنائه ، تتظافر وتتآزر لتصب بقوة وزخم في مجرى واحد ، يتّجه صافياً رقراقاً ليصب بالأخرة في عملية النمو والتجذير والتأثير . . .

وان مما تقتضيه الحكمة ، في مجال عمليات التغيير الاجتماعي ، اكبرها فضلا عن صغيرها وكبيرها ، كشرط اساس لنجاحها وشمولها ، وديمومةهذا النجاح وذلك الشمول ، هو توفر التجانس والانسجام في المقومات والرؤية لدى القائمين على تلك العمليات التغييرية كما لدى الشريحة البشرية وهي الأرضية التي تستهدفها عملية التغيير . والحقل الذي تُجرى فيه التجربة الاجتماعية .

عود الى اجواء الآية

ومن هذا المنطلق بالذات ، جاءت الآية الكريمة لترسم حدود معالم ما ينبغي ان يكون وحده اللحمة التي تربط سدى ذلك المجتمع افرادا وجماعات ، حيث حصرت الولاية على الاطلاق شاملة لجانبيها الحسي والمعنوي من القرب والمحبة والنصرة بين العناصر البشرية للمجتمع الجديد في مَنْ توفرت فيه عناصر ثلاثة : الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل اعلاء كلمة الله في الارض . . .

ومن الواضح ان هذه العناصر الثلاثة ، انما لحظ توفّرها كمجموع . فلا يكفي ـ على هذا ـ وجود بعضها فقط ، كالايمان مثلا ، او كالايمان والجهاد

فقط ، بل لا بد من اجتماعها كلها في الشخص لكي يستحق حمل هوية هذا المجتمع الجديد . . .

ولا يخفى بأن هذه العناصر لم تتوفر وقت نزول الآية الا في طائفتين من الناس . . .

الطائفة التي هاجرت بعد ايمانها احدى الهجرتين الى الحبشة او يثرب حتى طغى على هذه الطائفة لقب « المهاجرين » .

والطائفة التي آمنت بالرسول والرسالة من الأوس والخزرج بالمدينة اطلق عليهم إسم «الأنصار» حتى أصبح إسماً خاصاً بهم غُلّبَ فيه جانب الاسمية على جانب الوصفية ولهذا نُسب إليه على لفظه فقيل «أنصاري».

أما توفرّ العناصر الثلاثة ، الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالأنفس والأموال في الطائفة الأولى فواضح لا غموض ولا لَبْسَ فيه.

واما توفر الإيمان والجهاد بالاموال والأنفس في الطائفة الثانية فواضح ايضاً ، فهم من السابقين الأولين للاسلام عندما جاؤ وا الى مكة وبايعوا رسول الله (ص) سراً ، وعاهدوه على التأييد والنصرة ، والذود عنه ، وطالبوه بالهجرة اليهم على ان يمنعوه واصحابه مما يمنعون منه انفسهم ، وعاهدوه على ذلك ، ووفوا بما عاهدوا الله عليه ، حتى أذن سبحانه بالنصر المؤ زر في بدر حيث أبلَوا البلاء الحسن . . .

من أجل ذلك كله، نزلت الآية الكريمة مبيّنة الدائرة البشرية التي تؤطر حدود المجتمع المسْلم الجديد ، ولتحصرها ابتداءاً في هاتين الطائفتين المنسجمتين والمتطابقتين في المقومات المطلوبة . . .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

وهؤ لاء هم المهاجرون الأولون من مكة احدى الهجرتين او كلتيهما . . .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾

وهؤ لاء هم الأنصار في المدينة . . .

وآواه إيواءاً أنزله مأوىً سكنه ومال إليه . . .

وهذا موقف من جملة مواقف اتخذها الأنصار من المهاجرين عند وصولهم يثرب حيث انزلوهم في مساكنهم معززين مكرّمين ، وقاسموهم اضافة الى

بيوتهم اموالهم وأرزاقهم ، حتى شعر المهاجرون حقا انهم بين أهليهم وأحبتهم . وانهم لم ينتقلوا الى دار غربة ، بل الى دار هي اعز من دارهم التي كانوا قد ولدوا وترعرعوا فيها ، والى قوم هم أبرّ وأرحم بهم من أرحامهم وقراباتهم . . .
وقد ضرب الانصار بمواقفهم من اخوانهم المهاجرين اعظم مثل واصدق للايثار والتآخي في الله ، والتواصي بالخير والمعروف ، وصدق الله :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

وأولياء : جمع وليّ من الوَلاية بالفتح وقد قيل في معنى ولاية الانصار والمهاجرين هنا عدة اقوال :[1]

منها : عقد النصرة للموافقة في الديانة ، ويكون المعنى على هذا : أن المهاجرين والأنصار ، بعضهم أولى ببعض في النصرة ، وان لم يكن بينهم قرابة من اقربائهم من الكفار .

ومنها : ان بعضهم اولى ببعض في التوارث ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة .

ومنها : ان بعضهم أولى ببعض ، في التناصر والتعاون والموالاة في الدين عن الاصم .

ومنها : ان أمان بعضهم نافذ على البعض الآخر ، فلو أن واحداً من المسلمين أمّن انساناً نفذ أمانه على سائر المسلمين .

ومهما يكن من أمر اختلاف هذه الاقوال ، فلا يبعد ان الموالاة هنا تتحمل كل هذه المعاني بلا تأوّل او مبالغة ، بما فيها التوارث ، لما ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة[2] ، وانها « نزلت في الميراث ، فكان المسلمون يتوارثون بالهجرة ، فجعل الله الميراث للمهاجرين والانصار دون ذوي الارحام » .

وهذا في نظري ، يؤيده منطق الاسلام الحنيف ، الذي ينبهنا في اكثر من

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٥٦١/٤

(٢) تفسير ابن كثير ٣٢٨/٢ ومجمع البيان ٥٦١/٤

مقام على ضرورة تقديم العلاقة مع الله سبحانه على كل العلائق الأخرى ، وتلاشي علائق الدم والأرض والطين ازاء علاقة الانسان بربه وخالقه . . . والا ، فهو الفسوق بعينه . . .

﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وإِخْوانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَسَاكِنُ تَرْضَونَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾[1].

بهذه المقوّمات ، الايمان ، والهجرة ، والجهاد ، حدّدت مواصفات المواطنية في المجتمع الاسلامي الجديد بالمدينة ، من دون ان يكون لتوفر بعضها ، او لعنصر الدم والقرابة اية مدخلية في استحقاقها ولذا جاء الشق الثاني من هذه الآية المباركة واضحا في تكريس هذه المقوّمات كمجموع، رافضة ان يكون حتى الايمان وحده دون هجرة من ارض الكفر الى موئل الايمان ونصرة لأهله بالمال والنفس كافيا بأي حال :

وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ

وذلك حق . . .

لأن الايمان ، وان كان في حد ذاته مطلوبا ومرغوبا فيه ، إلّا انه ، في ظلال رماح الشرك ، وسيوف الظلم ، وتسلّط الطغاة ، يبقى ايماناً خائفاً متردداً ، وهو بذلك يكون ايماناً سلبيا لا يشعّ ولا يعطي ولا يتوهج ، في حين يريده الله ايمانا ايجابيا فاعلا على الساحة ، وهو لن يكون كذلك ، الا اذا عبّر عن نفسه بالرفض، الرفض المطلق لكل صور القهر والظلم والتسلط القائمة في مجتمع الارض ، والهجرة اوضح صور الرفض الهادف ذاك . . .

ولكن ، ليس معنى هذا ، ليس معنى نفي الوَلَاية بين المؤمن المهاجر المجاهد ، والمؤمن الغير المهاجر الى رحاب المجتمع الوليد ، ان المؤمن الاول عليه ان ينفض يديه من المسؤولية اتجاه المؤمن الآخر ، فذلك مرفوض في الاسلام ، والا فما معنى علاقة الإيمان ؟

ان مسؤولية المؤمنين ازاء بعضهم البعض من خلال رابطة الايمان ، قائمة

---

(١) التوبة /٢٤

وفاعلة ، ولذا فعليهم حتى بالنسبة لمن لم يهاجر منهم وبقي في نطاق المجتمع الكافر ان يهبوا لنصرته ان استنصرهم واستصرخهم فيما لو هُدِّد ايمانه ووجوده من قِبَل الكفار ، الا في حالة واحدة فقط ، ان يكون استنصاره لهم على طائفة من الأعداء سبق وأبرم المسلمون معهم عهد مهادنة وميثاق سلام الى أَجَل ، إذ حينئذٍ يجب العمل بمقتضى بنود هذا العهد ، لحرمة نقض العهد في الاسلام حتى بالنسبة للكافر .

﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾

فاعلموا أيها المؤمنون ، حدود ما رسمه لكم ربكم ، واعملوا على المحافظة على حدوده ان تنتهكوها ، واوامره ان تعصوها . . .

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

ثم جاءت هذه الآية المباركة ، لتُلقيَ أضواءاً على بعض مواصفات مجتمع الكفر ، بلحاظ ما عليه افراده من تكاتف وتعاضد فيما بينهم على باطلهم . . .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

والولاية بين الكافرين هنا ربما تأتي بنفس المعاني التي وردت بها فيما سبق بين المؤمنين . . . من النصرة ، واولوية بعضهم لبعض فيها وفي الميراث . وكون عقد الكفر أقوى عندهم من علاقة الرحم والقرابة ، وذلك كان يبدو واضحا من خلال ممارساتهم الجائرة الظالمة حتى ضد اخوانهم وابنائهم وقراباتهم في مكة .

ولتحذّر المسلمين ، وهم في بدايات تكوين المجتمع المضاد ، من التفتت والتشتت عن حقهم ، وضرورة مراعاة اوامر ربهم بتنفيذ تعاليمه ، فيما يتعلق بالدين الجديد بشكل عام ، والعمل الدؤوب على تطبيق شروط المواطنية المؤمنة في مجتمعهم العابد بدقة وحدّية ، والا فان أي تلكّوء في ذلك ، بممالأة الكفار ،

ومداهنتهم، والتودد اليهم ، ولو بشكل غير مباشر ، سوف يؤدي الى امرين خطيرين :

الاول : الفتنة .

ويمكن ان تحدث بصور متعددة اهمها :

ـ ان يقع المؤمنون المتواجدون بين ظهراني الكافرين بمحنة شديدة قد تؤدي بهم الى الميل نحو الضلال نتيجة شعورهم بضعف اخوانهم بسبب تشتتهم وعجزهم عن مد يد العون اليهم في غربتهم .

ـ كفر المؤمنين المتواجدين بين ظهراني الكافرين نتيجة ضغط هؤلاء عليهم وإكراههم على ان يعودوا الى ملتهم ، ويكون الكفار في هذا الضغط وذلك الاكراه مترسلين نتيجة كون ممالأة المؤمنين لهم قد اعطوهم ـ وان بصورة غير مباشرة ـ الضوء الاخضر لممارسة ظلمهم ذاك .

الثاني : الفساد الكبير ومعناه ـ كما عن الحسن ـ[1] سفك الدماء . وذلك امر طبيعي ، اذا ان ضعف المؤمنين ان هم لم يلتزموا ما أمروا به ، وتشتتهم عن الحق ، سوف يقابله في الضفة الاخرى قوة الكافرين واجتماعهم على الباطل ، وفي ذلك ما فيه من تمادي الكفار في الغيّ ، ونيلهم من المؤمنين بالقتل والاسر وارجاعهم الى حظيرة الكفر ، وفي ذلك ما فيه من تكريس للباطل ، بدل دحضه . مع ما يستتبعه من اضعاف لكلمة الله في الارض بدل اعلائها .

« إلّا تفعلوه » اي[2] ما امرتم به في الآية الاولى والثانية من التناصر والتعاون والتبرؤ من الكفار ولم تعلقوا التوارث بالايمان والهجرة والجهاد ولم تقطعوه بعدمها ﴿ تَكُن فِتۡنَةٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤ ﴾

---

(١) و (٢) مجمع البيان للطبرسي ٥٦٢/٤

هذه الآية الكريمة جاءت لتؤكد الحقيقة الواردة فيما سبق ، من أن الايمان والهجرة والجهاد في سبيل الله ، هي وحدها مجتمعة مقومات المواطنية الصالحة في المجتمع العابد ، ملحّة على ان هذه المقومات متوفرة في طائفتي المهاجرين والانصار دون سواهم ، فهم الذين جسّدوا الايمان في صورة حيّة متحركة فاعلة في الحياة ، وهذا هو الايمان الحق :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

وان هؤلاء ، كان « لهم » الجائزة الكبرى من ربهم وهي « مَغْفِرَةٌ » لهم وتجاوز عنهم بادخالهم في رحمته وايوائهم الى ظله « ورِزْقٌ كَرِيمٌ » لا تشوبهُ شائبة تنغّصه عليهم في الدنيا ، حيث فتح عليهم بركات الارض بما استولوا عليه من ارض الكفار واموالهم وديارهم ، وفي الآخرة ، حيث يتناولون من طعام الجنة الذي لا يستحيل في اجوافهم قذارات وفضلات ، بل يصير كالمسك ريحا . . .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

ثم تجيء هذه الآية كحلقة اخيرة في استعراض مقومات سلسلة الولاية لتضع اللمسات النهائية في التشريع الآلهي حول ما ينبغي ان تقوم عليه علاقات الافراد والفئات على اختلافها في المجتمع الاسلامي الجديد ، ولتصبح تلك اللمسات من صميم تشريع ثابت يبقى ما بقي الليل والنهار ، ولا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، حتى تتبدل السموات والأرض . . .

نفس المقومات السابقة الايمان والهجرة والجهاد . . .

ولكن هذه الآية ، فتحت الباب مشرعا امام اولئك الناس الذين لم يؤمنوا بعد ، والمؤمنين الذين لم يهاجروا بعد ، ولم يستحقوا بالتالي شهادة المواطنية الصالحة في المجتمع العابد ، ونبهتهم الى ان زمام المبادرة بأيديهم ، فهم يملكون وحدهم حق تقرير مصيرهم نحو هذا الاتجاه او ذاك ، فان هم اختاروا اتجاه مَنْ سبقوهم من المهاجرين والأنصار شملتهم كل شؤون المواطنية الصالحة ، ودخلوا في ولاية الله ورسوله والمؤمنين مع كل ما

تستلزمه تلك الولاية من حقوق وواجبات لهم وعليهم اضافة الى المغفرة الآلهية والرزق الكريم . . .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ مِنكُمْ . . . ﴾

والبعدية هنا مطلقة غير مقيدة بزمان معين ، ولا مكان معيّن ، تشمل الهجرة الاولى ، والهجرة الثانية بعد الحديبية ، كما تشمل نزول هذه الآية ، وما تلاها ، وكل هجرة من دار كفر الى دار اسلام . . .

نعم ، ان السبق الى الايمان والهجرة باعتباره امتثالا لامر رباني يبقى سبقا الى الخير والمعروف ، ويبقى السابق اليهما في درجة اعلى واقرب الى الله ، كما نبه سبحانه الى ذلك في قوله جل شأنه :

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ أُولَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢)

ثم يبين الله سبحانه أن رابطة الايمان والهجرة والنصرة والجهاد في سبيله ، هي الركيزة الاساس في العلاقات الانسانية من وجهة نظر الاسلام ، فاذا انضمت الى هذه العلائق علاقة الدم والرحم ، كانت ادعى لترتب آثار تلك الرابطة واوكد ، سواء كانت تلك الآثار معنوية او مادية بما فيه التوارث .

و « أولو » معناها اصحاب . . . والارحام جمع رِحْم ورَحِمْ وهو العضو من المرأة الذي يكون بيت الولد ، وذو الرحم القرابة ، وهو خلاف الاجنبي . . .

﴿ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

وقد قيل(٣) في سبب نزول هذه الجزء من الآية ان المسلمين بعدما كانوا يتوارثون

---

(١) الحديد / ١٠

(٢) الواقعة / ١٠ ـ ١١

(٣) مجمع البيان للطبرسي ٥٦٣/٤ وابن كثير ٣٢٨/٢/

بالمعاقدة والهجرة والمؤاخاة التي عقدها رسول الله (ص) بين كل اثنين منهم في المدينة وعقدها بين نفسه الشريفة وبين امير المؤمنين علي (ع) وغير ذلك من الاسباب . جاءت هذه الآية لتنسخ هذا الحكم وتجعل ذوي الارحام بعضهم احق بميراث بعض من غيرهم بشرط الايمان اذ لا توارث بين اهل ملتين ، كما ورد عن النبي (ص) .

والمقصود بكتاب الله ، حكم الله عن الزجّاج[1].

وقيل[2]: إنه اللوح المحفوظ ، كما في قوله تعالى : «ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها[3] » .

وقيل : انه القرآن .

ثم يذكّر الله سبحانه المؤمنين ، بضرورة الصدق في التعامل معه في كل ما امرهم به ، وبيّنه لهم ، ظاهراً وباطناً ، لانه المطلع على سرائرهم ، وخفايا ضمائرهم ، لا تخفى عليه خافية في الارض ولا في السماء .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

خاتمة المطاف

وبعد ، فقد حطمّ الاسلام كل الاعتبارات التي تقوم حاجزاً ، بين بعض البشر وبعضه ، ليقيم حاجزاً واحداً في مفرق الطريق . . . فاما طريق الى الله ، واما طريق الى الشيطان ، فَمنْ كانوا مع الله متجردين من كل اعتبار آخر فهم اولياء بعضهم لبعض ، ومن كانوا مع الشيطان فهم اولياء بعضهم لبعض . ومَنْ آمن بالله ، ولكنه لم يتجرّد من الاواصر الاخرى التي تشده وتحتجزه ، فليس بينه وبين الجماعة الاسلامية ولاية . انما هو مسلم ينصره المسلمون حين يستنصر بهم في الدين ـ إلا على قوم بينهم وبين الجماعة الاسلامية عهد ـ فالاسلام يصون عهوده حتى ينبذها على سواء ـ ولكن المسلمين لا

---

(١) و (٢) مجمع البيان للطبرسي /٤/٥٦٣

(٣) الحديد /٢٢

يحتملون تبعة ولايته ، ما لم يهاجر إليهم ، ويتجرد من كل آصرة سوى آصرة العقيدة التي تجمعهم» .

« لقد كان الاسلام سابقاً بنظامه ، وسابقاً باتجاهاته . وما يزال ، وان البشرية لتظلع في الطريق لتتابع خطواته ، ولكنها لا تبلغ لانها لا تسير على النهج ، ولا تبدأ من حيث بدأ ، فلا ترتفع الى حيث ارتفع . . . »

والحمد لله أولاً ، وآخـراً وظاهـراً وباطنا

ربنـا لا تؤاخذنـا إن نسينـا أو اخطأنـا

☆ ☆ ☆

مصادر الكتاب

١ ـ تفسير التبيان للشيخ أبي جعفر الطوسي
٢ ـ تفسير مجمع البيان للشيخ ابي علي الطبرسي
٣ ـ تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي
٤ ـ البيان في تفسير القرآن للإمام أبي القاسم الخوئي
٥ ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد القرطبي
٦ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للامام جار الله محمود الزمخشري
٧ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد البغدادي الخازن
٨ ـ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء اسماعيل بن كثير
٩ ـ تفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي
١٠ ـ تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا
١١ ـ وسائل الشيعة الى أحكام الشريعة للشيخ الحر العاملي
١٢ ـ أصول الكافي للشيخ الكليني
١٣ ـ نيل الأوطار للشوكاني
١٤ ـ البحر الزخّار لابن المرتضى
١٥ ـ مسند أحمد
١٦ ـ مسند داوود
١٧ ـ جواهر الأخبار والآثار لمحمد بن يحيى الصعدي (مطبوع بهامش البحر الزخّار)
١٨ ـ جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي
١٩ ـ شرائع الاسلام للمحقق الحلي
٢٠ ـ المسائل المنتخبة للامام الخوئي
٢١ ـ المغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي
٢٢ ـ بدائع الصنائع للكاساني
٢٣ ـ الرسالة لابن ابي زيد القيرواني
٢٤ ـ كفاية الطالب لعلي بن الحسن الشاذلي

٢٥ ـ سنن البيهقي	للبيهقي
٢٦ ـ اقتصادنا	للامام محمد باقر الصدر
٢٧ ـ البداية والنهاية	لابن رشد
٢٨ ـ الدرّ المختار ورد المحتار عليه	لابن عابدين
٢٩ ـ اعانة الطالبين	للسيد البكري الدمياطي
٣٠ ـ كفاية الأصول	للمحقق الخراساني
٣١ ـ الصواعق المحرقة	لابن حجر العسقلاني
٣٢ ـ النص والاجتهاد	للامام عبد الحسين شرف الدين
٣٣ ـ تفسير القرآن الكريم	للشيخ محمود شلتوت
٣٤ ـ كتاب المنطق	للشيخ محمد رضا المظفر
٣٥ ـ تفسير جامع البيان	لمحمد بن جرير الطبري
٣٦ ـ تاريخ الطبري	لمحمد بن جرير الطبري
٣٧ ـ تفسير الرازي الكبير	للرازي « الفخر »
٣٨ ـ شرح الصحيفة السجادية	لمحمد جواد مغنية
٣٩ ـ العقيدة والشريعة في الاسلام	جولد تسيهر
٤٠ ـ السيرة النبوية	لابن هشام
٤١ ـ مختصر مختار الصحاح	للرازي (عبد القادر)
٤٢ ـ محيط المحيط .	للبستاني
٤٣ ـ الكامل في التاريخ	لابن الأثير
٤٤ ـ الارشاد	للشيخ المفيد
٤٥ ـ لسان العرب	لابن منظور
٤٦ ـ مصادر التشريع فيما لا نص فيه	لعبد الوهاب خلّاف
٤٧ ـ فلسفة التشريع في الاسلام	لصبحي المحمصاني
٤٨ ـ مجلة القضايا المعاصرة	الجزء الثاني من المجلد الاول تشرين الثاني /١٩٦٩

فهرست... أهم الموضوعات

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - الوصية وأحكامها في الفقه الاسلامي دراسة فقهية مقارنة على المذاهب السبعة	
٢ - دراسات في العقيدة الاسلامية	طبعة ثانية
٣- نساؤنا كيف يتمثلن الزهراء	طبعة ثالثة
٤ - آية الخمس في القرآن	طبعة ثانية
٥ - الاسلام والمرأة وحق تقرير المصير	طبعة ثانية
٦ - الصلاة الإسلامية	طبعة ثالثة
٧ - في ظلال سورة الأنفال	(هذا الكتاب)